


تأليف


سماحة آية الله العظمى

السيد كاظم الحسيني الحائري (دام ظله)


شبكة الفكر
alfeker.net


أصول الدين




قم ـ خ صفائیه ـ پاساژ المهدی ـ طبقه زیرزمین ـ پلاک ۲۲۸
تلفن همراه : ۴۰۴٤ ـ ۳۵۳ ـ ۰۹۱۲

---

• اسم الكتاب : ........................ أُصول الدين

• المؤلف : ... سماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسينيّ الحائريّ

• الناشر : ........................ دار البشير

• الطبعة : ........................ الرابعة ( منقّحة )

• سنة الطبع : ........................ ١٤٣٢ هـ. ق

• المطبعة : ........................ شريعت ـ قم

• الكمية المطبوعة : ........................ ٤٠٠٠ نسخة

• الشابك : ........................ ٩٦٤ ـ ٨٣٧٣ ـ ٢٦ ـ ٤

---

إصدار مكتب سماحة آية الله العظمىٰ السيّد الحائري


بسم الله الرحمن الرحیم

# المقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله علىٰ محمّدٍ وآله الطيبين.

أبدأ بعون الله ببحث مختصر حول أُصول الدين، وأتجنّب التعمّق الفلسفي الكثير والتفصيل الطويل والاستيعاب الواسع؛ كي يكون البحث مناسباً لعموم الناس. وأعقد البحث في خمسة فصول:

**الأوّل** : الله جلّ جلاله.

**الثاني** : النبوّة.

**الثالث** : الإمامة.

**الرابع** : البرزخ.

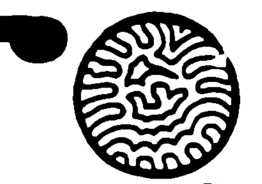
**الخامس** : المعاد.

وأسأل الله تعالىٰ التوفيق لبحث نافع ومفيد ولإتمامه بعونه وبقوّته، كما أسأله الإخلاص الكامل لتحصيل مرضاته، إنّه وليّ التوفيق، وعليه توكّلت وإليه أُنيب.

وعلىٰ أساس محاولة الاختصار فقد حذفنا بحثين هامّين كان المفروض أن يتقدّما بحث أُصول الدين، وهما: بحث نظريّة المعرفة، وبحث المفهوم الفلسفي للعالم، وقد بحثهما أُستاذنا الشهيد سماحة آية الله العظمىٰ السيّد محمّدباقر الصدر في كتاب فلسفتنا بحثاً ممتعاً ونافعاً، وكذلك علماء آخرون في كتبهم،

أخصّ منهم بالذكر سماحة آية الله الشيخ ناصر مكارم -حفظه الله- الذي خصّص المجلّد الأوّل من كتابه پيام قرآن -باستثناء أربع وخمسين صفحة من أوّله- بنظريّة المعرفة من منظار القرآن، وخصّص ثلاث صفحات منه قبل نظريّة المعرفة بالمفهوم الفلسفي للعالم بشكل مختصر.

ﮃﮄ

الفصل الأوّل

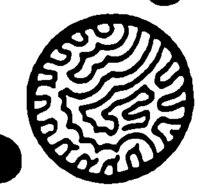
# اللّٰه جلّ جلاله

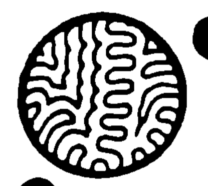
نبحث حول ما يتعلّق بالله جلّ جلاله تارة: عن إثبات وجود الله سبحانه بقطع النظر عن وحدانيّته، وأُخرىٰ: عن إثبات وحدانيّته تعالىٰ، وثالثة: عن صفاته جلّ وعلا، فيقع البحث في ثلاث مراحل:

○ **الأُولىٰ : إثبات الصانع.**

○ **الثانية : التوحيد.**

○ **الثالثة : صفات اللّٰه تعالىٰ.**

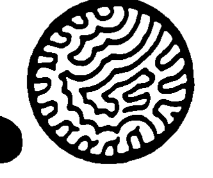





١

# إثبات الصانع

- أسباب لزوم الفحص عن وجود اللّه تعالىٰ.
- فطريّة الإيمان باللّه تعالىٰ.
- البراهين علىٰ وجود اللّه تعالىٰ.

# أسباب لزوم الفحص عن وجود الله تعالىٰ

العقل يُلزم كلّ إنسان غير عالم بوجود الله بالفحص عن وجوده تعالىٰ؛ لأحد أسباب ثلاثة:

**الأوّل:** دفع الضرر المحتمل، سواء فرض الضرر عبارةً عن العذاب المحتمل، أو فقدان الثواب المحتمل، أو فرض عبارةً عن أمر عرفانيّ هو الحجب عن الله تعالىٰ، أو فقد رضوانه، أو فقد الالتذاذ بالنظر إليه بالمعنىٰ المعقول من النظر إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[2]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3]، وعن الصادق عليه السلام أنّه قال لابن أبي العوجاء: «إن يكن الأمر كما تقول ـ وليس كما تقول ـ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول ـ وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت»[4].

**الثاني:** شكر المنعم؛ إذ علىٰ تقدير وجود المنعم الحقيقي يجب شكره عقلاً،

---

(١) س ٧٥ القيامة، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) س ٨٣ المطفّفين، الآية: ١٥.
(٣) س ٩ التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) البحار ٣: ٤٧، الباب ٣ من كتاب التوحيد، الحديث ٢٠.

ويتحقّق شكره بمعرفته، واحتمال الوجوب العقلي ينجّز الفحص.

وأوّل النعم هو أصل الوجود، وثانيها الفهم والمعرفة، ووسائلهما التي زوّدنا الله بها، ثُمّ باقي النعم التي لا تحصىٰ، وقد ذكّر الله تعالىٰ عباده في محكم كتابه مرّات كثيرة بنعمه، ومنها هذان المقطعان:

١ ـ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

٢ ـ ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ *

---

(١) س ١٦ النحل، الآية: ٣ ـ ١٨.

وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١].

ومن الطريف أنّ كلا المقطعين خُتما بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ كما أنّ كلا المقطعين مشتملان علىٰ مسألة شكر النعمة وكفرانها، فالأوّل بتعبير: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والثاني بتعبير: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ومن الطريف أيضاً في المقطع القرآنيّ الأوّل أنّه حثّ في ثلاثة مواضع من عدّه نعم الله تعالىٰ علىٰ التفكّر تارة وعلىٰ التعقّل أُخرىٰ وعلىٰ التذكّر ثالثة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وعلىٰ أيّة حال فالآيات التي تذكّر الناس بنعم الله تعالىٰ كثيرة، نختم الحديث عنها هنا بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[٢].

وأمّا الروايات فأقتصر منها هنا علىٰ ذكر رواية واحدة تربط بين جسيم النعمة وبين الهداية، وهي المرويّة عن عليّ عليه السلام: «ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكنّ القلوب عليلة والبصائر مدخولة»[٣].

**الثالث:** مسألة المالكيّة والمملوكيّة، فإنّ جميع الملكيات العرفية والعقلائية والشرعية الإلهية والشرعيات الوضعية ليست عدا اعتبارات جعلية، والملكيّة

---

(١) س ١٤ إبراهيم، الآية: ٣٢ ـ ٣٤. (٢) س ٣١ لقمان، الآية: ٢٠.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٥.

الوحيدة التي هي بمعنى الجدة الحقيقية إنّما هي ملكيّة الخالق لمخلوقه إن كان هناك في الواقع خالق للعالم بما فيه من الموجودات، فعلى تقدير وجوده في واقع الأمر تجب معرفته وطاعته واتباعه اتباعَ المملوك لمالكه الحقيقي واحتمال ذلك يكون منجّزاً عقلاً.

والوجهان الأخيران يؤثّران في النفوس الشفّافة والقلوب الصافية، والأخير أرقّ من الثاني ويكون تأثيره بحاجة إلى صفاء أكثر، أمّا الأوّل وهو دفع الضرر المحتمل فهو الأمر العامّ المؤثّر في نفوس العقلاء الاعتياديين.

❊ ❊ ❊

# فطرية الإيمان بالله تعالىٰ

يدلّ القرآن الكريم علىٰ أنّ الإيمان بالله أمر فطري للبشر، إمّا وحده وإمّا ضمن فطرية الدين، قال الله تعالىٰ: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[1]، وقال عزّ من قائل: **﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾**[2] فهاتان الآيتان المباركتان صريحتان في فطرية الدين أو الإيمان بالله عزّ وجلّ.

إلّا أنّ هذه الفطرية يمكن تفسيرها بأحد تفسيرين:

**الأوّل:** الفطرية بمعنى البداهة، وهذا لا ينافي استبطانه للبرهان؛ فقد يحتاج حكم معيّن إلى البرهان إلّا أنّ برهانه حاضر لدى فطرة العموم لا يغيب عن الذهن لدى تصور القضية، وعلىٰ هذا الأساس سمّى أصحاب المنطق الصوري قسماً من البديهيات بـ«الفطريات» وهي التي قياساتها معها، بمعنى أنّ الحد الأوسط لا يغيب عن الذهن لدى تصور الأصغر والأكبر فتعتبر النتيجة بديهيّة.

**الثاني:** الفطرية بمعنى كون الإيمان بالله عن علم حضوري وعن إحساس

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ٣٠.

(٢) س ٢ البقرة، الآية: ١٣٨.

باطنيّ فطريّ مباشر به سبحانه وتعالىٰ بالرغم من أنّه قد يغيب عن الذهن بسبب تراكم العلائق المادّيّة.

وأيّ التفسيرين هو الصحيح؟

لا شكّ في صحة الفطرية بالمعنى الأوّل؛ لفطرية بعض براهين وجود الله سبحانه للكلّ، كبرهان النظم أو حساب الاحتمالات الذي سوف يأتي شرحه، وكبرهان الصديقين لدى بعض النفوس الذكيّة الوقّادة وسوف يأتي أيضاً بيانه إن شاء الله.

وأمّا الفطرية بمعنى الإحساس الحضوري فلا إشكال في أنّه لا يوجد الإحساس بها في الحالات الاعتيادية لدى الناس الاعتياديّين، وتفسير الآيات بها غير واضح بعد صدق الفطرية علىٰ البداهة أيضاً، وفي الفلسفة أيضاً لا نجد شاهداً علىٰ فطرية الإيمان بالله بمعنى الشهود والإحساس الحضوريين؛ لأنّ الفلسفة تقول: إنّ وجود الخالق هو الوجود المستقل، ووجود المخلوق هو عين الربط والتعلق، ولعله يأتي في المستقبل بيان ذلك إن شاء الله، ومن المعلوم أنّ الوجود الربطي والتعليقي هو الذي يجب أن يكون حاضراً لدى الوجود الحقيقي والمستقل، وأنّ الوجود الحقيقي والمستقل هو الذي يجب أن يكون واجداً للوجود الربطي والتعلّقي بالعلم الحضوري لا العكس.

نعم يبدو من القرآن حصول الشهود بعين القلب والإحساس الحضوري مرّتين لرسول الله ﷺ علىٰ أحد التفسيرين لآيات سورة النجم، وكذلك يبدو منه ذلك للمؤمنين أو لبعضهم في يوم القيامة في قوله: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**[1].

---

(١) س ٧٥ القيامة، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

وأمّا ثبوت ذلك ولو بمرتبة دنيا لعامّة الناس في هذا العالم فهذا ما لا يستفاد من آيات الفطرة، فمن أحسّ بحالة الشهود والعلم الحضوري بالله سبحانه وتعالىٰ فهنيئاً له، سواء أكان هذا الإحساس بسبب شفّافية خاصّة لوجدانه وفطرته، أو بسبب ترويض النفس وتهذيبها وانقطاعها التربوي عن المادّيات، أو بسبب انقطاع علائقه بالمادّيات صدفة في حالة غرق مثلاً أو نحو ذلك.

أمّا من لم يحصل له شهود بسبب من الأسباب فمجرد آيات الفطرة لا تبرهن له علىٰ هذا الشهود؛ لإمكان حملها علىٰ البداهة.

وقد تلحق بآيات الفطرة آيات الالتجاء إلى الله لدى اليأس من الأسباب المادّية، ولعل أبرزها ثلاث مقاطع من القرآن الكريم:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[1].

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2].

٣ ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[3].

---

(١) س ٣١ لقمان، الآية: ٣١ ـ ٣٢.
(٢) س ١٠ يونس، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.
(٣) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٦٥.

وحاصل الفكرة التي يفترض إشارة هذه الآيات إليها هو أنّ الإنسان قد يبتعد عن الفطرة فيغطّي عينَ قلبه غشاءُ المادّيّات فيغفل عن الله تعالىٰ، ولكن تنجلي فطرته لدى زوال هذا الغشاء بسبب انقطاعه عن المادّيّات بمثل عروض حالة الغرق علىٰ سفينة في البحر إذ لا منجي إلّا الله تعالىٰ، فتتيقّظ فطرته وتنفتح بصيرته ولا يرى إلّا الله سبحانه وتعالىٰ.

بل تلحق بهذه الآيات مطلق آيات الالتجاء إلى الله لدى الضرّ من قبيل:

١ ـ **﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾**(١).

٢ ـ **﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾**(٢).

٣ ـ **﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**(٣).

وعندي أنّ كلّ هذه الآيات لا تدل علىٰ فطرية التوحيد ووجود الله سبحانه وتعالىٰ عدا آيتي الفطرة والصبغة؛ لأنّ ما مضى من الآيات الأُخرى قابل للحمل علىٰ معنى آخر، وهو أنّ الإنسان بلغ في مستوى كفرانه وطغيانه أنّه علىٰ رغم من يقينه بالله ـ بأيّ سبب من الأسباب ـ تراه يعترف به ساعة انقطاع جميع الحيل المادّية ثمّ يرجع إلى غيّه من كفر أو كفران لدى انتهاء الاضطرار، من قبيل ابن يلتجئ إلى أبيه في ساعة الاضطرار ولكنه يطغىٰ عليه في ساعة الإحساس بالاستغناء، أمّا أنّ ثبوت الله أو التوحيد عنده هل كان علىٰ أساس

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ٣٣.

(٢) س ٣٩ الزمر، الآية: ٤٩.

(٣) س ١٠ يونس، الآية: ١٢.

الوجدان، أو علىٰ أساس برهان نظري، أو غير ذلك، فلم يعلم كون هذا داخلاً في عهدة هذه الآيات.

نعم هناك رواية يحتمل أن تكون ناظرة إلى آيات جري الفلك وابتلائها بحالة الغرق، ولو كانت ناظرة إليها فهي تشهد علىٰ أنّ تلك الآيات تنظر إلى فطرية التوحيد وبروز الفطرة لدى الانقطاع عن الأسباب، وتلك الرواية ما يلي:

«قال رجل للصادق عليه السلام: يا بن رسول الله، دلّني علىٰ الله ما هو، فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني؟ فقال له: يا عبدالله، هل ركبت سفينة قطّ؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر علىٰ أن يخلّصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر علىٰ الإنجاء حيث لا منجي، وعلىٰ الإغاثة حيث لا مغيث»[(١)].

وهذه القصّة قد تجسّدت أيضاً في مقطع تاريخيّ رواه صاحب مجمع البيان في ذيل آية: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[(٢)] وهو ما يلي:

«لمّا كان يوم فتح مكّة أمّن رسول الله صلى الله عليه وآله الناس إلّا أربعة نفر، قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن أخطل، وقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، فأمّا عكرمة فركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة فقال أهل السفينة: أخلصوا فإنّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلّا الإخلاص ما ينجيني في البرّ غيره، اللهمّ لك عليّ عهدٌ إن أنت عافيتني ممّا أنا فيه أن آتي محمداً حتّى

---

(١) البحار ٣: ٤١، الباب ٣ من كتاب التوحيد، الحديث ١٦.

(٢) س ٣١ لقمان، الآية: ٣٢.

أضع يدي في يده فلأجدنّه عفوّاً كريماً، فجاء فأسلم».

وعلىٰ أيّة حال فلا شكّ علىٰ الإجمال في فطرية التوحيد ووجود الله تعالىٰ، والروايات المصرّحة بفطرية ذلك مستقلاً أو ضمن فطرية الدين كثيرة، جمع قسماً منها المجلسي‌رحمه‌الله في البحار المجلد الثالث في الباب الحادي عشر من كتاب التوحيد، وآخرها في ذاك الباب الحديث المعروف عن النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: «كلّ مولود يولد علىٰ الفطرة حتّى يكون أبواه يهوّدانه و ينصّرانه»(١).

ومن طرائف الروايات الدالة علىٰ فطرية وجود الله سبحانه وتعالىٰ عن طريق بروز آياته كلام الإمام الصادق‌عليه‌السلام مع ابن أبي العوجاء المرويّ عن أبي منصور المتطبّب قال: «أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفّع في المسجد الحرام، فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق؟ ـ وأومى بيده إلى موضع الطواف ـ ما منهم أحد أُوجب له اسم الإنسانية إلّا ذلك الشيخ الجالس ـ يعني جعفر بن محمّد‌عليه‌السلام ـ فأمّا الباقون فرعاع وبهائم، فقال له ابن أبي العوجاء وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنّي رأيت عنده ما لم أر عندهم، فقال ابن أبي العوجاء: مابدّ من اختبار ماقلت فيه منه، فقال له ابن المقفّع: لا تفعل فإنّي أخاف أن يفسد عليك ما في يدك، فقال: ليس ذا رأيك، ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إيّاه المحلّ الذي وصفت، فقال ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت عليّ هذا فقم إليه وتحفّظ ما استطعت من الزلل، ولا تثن عنانك إلى استرسال يسلمك إلى عقال، وسمه ما لك أو عليك، قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت وابن المقفّع فرجع إلينا وقال: يابن المقفّع، ما هذا ببشر! وإن كان في الدنيا روحانيّ يتجسّد إذا شاء ظاهراً

---

(١) البحار ٣: ٢٨١، الباب ١١ من كتاب التوحيد، الحديث ٢٢.

ويتروّح إذا شاء باطناً فهو هذا، فقال له: وكيف ذاك؟ قال: جلست إليه فلمّا لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال: إن يكن الأمر علىٰ ما يقول هؤلاء وهو علىٰ ما يقولون ـ يعني أهل الطواف ـ فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر كما تقولون ـ وليس كما تقولون ـ فقد استويتم وهم، فقلت له: يرحمك الله وأيّ شيء نقول؟ وأيّ شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلّا واحداً، فقال: كيف يكون قولك وقولهم واحداً وهم يقولون: إنّ لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأنّ للسماء إلهاً، وأنّها عمران، وأنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد؟ قال: فاغتنمتها منه فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتّىٰ لا يختلف منهم اثنان، ولمَ احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به. فقال لي: ويلك! وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك؟ نشوؤك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحّتك وصحّتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك وفرحك بعد حزنك، وحبّك بعد بغضك وبغضك بعد حبّك، وعزمك بعد إبائك وإباؤك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده من ذهنك. ومازال يعدّ عليّ قدرته التي في نفسي التي لا أدفعها حتّى ظننت أنّه سيظهر فيما بيني وبينه»[1].

إلى هنا عرفنا أنّ بعض الآيات والروايات تشير إلى فطرية التوحيد أو وجود الله تعالىٰ المنسجمة مع قصد البداهة، أو كونه من قبيل القضايا التي

---

(١) البحار ٣: ٤٢ ـ ٤٣، الباب ٣ من كتاب التوحيد، الحديث ١٨.

قياساتها معها، ولم نعرف منها الإشارة إلى خصوص العلم الحضوري أو الإحساس المباشر بالله سبحانه عزّ وجلّ.

ولكن في القرآن آية قد تستفاد منها الإشارة إلى العلم الحضوري والإحساس المباشر به سبحانه، وهي آية الذرّ أو الميثاق. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

وقد ذكر علماؤنا الأبرار احتمالات عديدة في تفسير هذه الآية[٢] نقتصر هنا علىٰ ذكر ثلاثة منها:

**الأوّل**: أن تكون الآية إشارة إلى عالم جمعيّ يسمّى بعالم الذرّ أو الميثاق؛ جمع فيها كلّ بني آدم وسحبهم علىٰ صورة الذرّ من صلب آدم عليه السلام، وأخذ منهم الميثاق وأشهدهم علىٰ أنفسهم، وعلىٰ هذا الاحتمال لا بأس بافتراض السؤال والجواب بلسان المقال.

وأظنّ أنّ هذا الاحتمال أبعد الاحتمالات عن الصواب؛ لصراحة الآية المباركة في أخذ الذريّة من ظهور بني آدم جميعاً لا من ظهر آدم عليه السلام.

**الثاني**: أن تكون الآية إشارة إلى زمان يختلف باختلاف الأشخاص، وهو زمان انتقال النطفة من صلب الأب إلى رحم الأُمّ، وعليه فالآية لاتشير إلى عالم واحد جمع فيه كلّ بني آدم، ولا إلى خطاب شعوري عرفه الناس وأجابوه بالاختيار والشعور، بل تشير إلى أنّ فكرة التوحيد قد عجنت في فطرة كلّ أحد

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) راجع پيام قرآن ٣: ١٠٨ ـ ١١٥، ومنشور جاويد ٢: ٦٣ ـ ٨٢.

منذ انعقاد نطفته في رحم أُمّه.

وقد يعترض علىٰ هذا الاحتمال بأنّ ظاهر الآية الإخبار عن زمان مضى حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ...﴾ في حين أنّ انتقال النطفة من صلب الرجل إلى رحم المرأة أمر تدريجيّ باختلاف زمان انعقاد النطف، فمنهم من مضى زمانه حين نزول الآية ومنهم من هو باقٍ علىٰ عهدة الاستقبال.

إلّا أنّ هذا الأُسلوب في المستقبل المحقق الوقوع مألوف من القرآن الكريم من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً... * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ...﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات[3].

وقد يعترض علىٰ هذا الاحتمال أيضاً بأنّ ظاهر الآية هو السؤال والجواب بلسان المقال لا السؤال بلسان التكوين أو الجواب بلسان الحال.

إلّا أنّ هذا النمط من الاستعمال شائع ومستحسن في لغة العرب، فمثلاً

---

(١) س ٤٠ غافر، الآية: ٤٨ ـ ٥٠. (٢) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٨ ـ ٧٣.

(٣) منها الآية: ٢١ ـ ٢٣ من سورة ١٤ إبراهيم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ...﴾[(١)] لم يقصد بـه إلّا الوحـي الطـبيعي والغريزي والهداية التكـوينيّة مـن قـبل الله سـبحانه وتـعالىٰ لهـذا الحـيوان، وقوله عليه السلام:

نادَاهُـم صـارخ مـن بـعد دفـنهم — أيـن الأسـرّة والتـيجان والحـللُ
أين الوجـوه التـي كـانت مـنعّمة — من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حـين سـاءلهم — تلك الوجوه عليها الدود تنتقل[(٢)]

لم يقصد بالنداء والجواب فيه إلّا لسان الحال.

**الثالث:** أن تكون الآية أيضاً إشارة إلى زمان يختلف باختلاف الأشخاص وهو زمان بلوغ الإنسان سنّ العقل والرشد، ويكون المقصود الدلالة الفـطرية العقلية لكلّ أحد إلى التوحيد ووجود الله سبحانه وتعالىٰ لدى بلوغه هذا السنّ.

وهذا التفسير يشبه التفسير الثاني في الاعتراض عليه وفي الجـواب عـن الاعتراض.

وبناءً علىٰ التفسير الثالث يكون المقصود بالآية المباركة الإشارة إلى فطرة العقل بمعنى بداهة وجود الله تعالىٰ، أو كونه من القضايا التي قياساتها معها، ولا تحمل علىٰ العلم الحضوري والإحساس المباشر بالقلب.

وبناءً علىٰ التفسير الثاني يمكن حملها علىٰ فطرة العقل بمعنى البداهـة أو وضوح القياسات، ويمكن حملها علىٰ فطرة القلب بمعنى الإحسـاس والعـلم الحضوريين.

وبناءً علىٰ التفسير الأوّل يفترض في الآية وجود عالم أخذ الله تعالىٰ فيه

---

(١) س ١٦ النحل، الآية: ٦٨.

(٢) منتهى الآمال ٢ : ٦٧٦ ـ ٦٧٧، في أحوال الإمام الهادي عليه السلام.

من الإنسان هذا التعهد والميثاق في حالة شعور الإنسان وفهمه، وبما أنّنا قد نسينا ذلك ولا يمكن الاحتجاج بتعهد منسيّ من قبل المتعهّد فلابدّ من حمل الآية علىٰ معنى أنّ ذاك التعهد الشعوري كان سبباً في تكوّن الفطرة علىٰ التوحيد ووجود الله تعالىٰ بأحد المعنيين، أعني فطرة العقل أو القلب أو قل: الإحساس البديهي أو المباشر والحضوري.

وامتياز هذه الآية عن آيات الفطرة أنّ آيات الفطرة لم نر فيها قرينة علىٰ إحدى الفطرتين بالخصوص: فطرة العقل أو فطرة القلب، أو قل: فطرة البداهة أو فطرة الإحساس الحضوري، فكانت الأُولى هي المتيقنة والثانية المحتملة، في حين أنّ آية الميثاق فيها قرينة علىٰ إرادة فطرة القلب أو الإحساس الحضوري، وتلك هي الإشارة إلى شخص الربّ سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾ فإنّ هذا لا يناسب فطرة العقل؛ لأنّ العقل ينتهي دائماً إلى فكرة كلّية وهي مثلاً وجود خالق موصوف بكذا وكذا، أمّا الانتهاء إلى المصداق والشخص فهذا إنّما يكون عن طريق الإحساس والحضور والشهود.

ويدعم ذلك بعض الروايات من قبيل ما رواه القمّي عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن ابن مسكان عن أبي عبداللهﷺ في قوله تعالىٰ:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ قلت: «معاينةً كان هذا؟» قال: «نعم فثبتت المعرفة ونسوا الموقف وسيذكرونه، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه»[١].

فإضافةً إلى تعبيره بالمعاينة تراه عبّر بقوله: «ولولا ذلك لم يعرف أحد من خالقه ومن رازقه»، وهذا التعبير يناسب معرفة شخص الخالق والرازق، وهي لا

---

(١) تفسير القمّي ١ : ٢٤٨.

تكون إلّا بالشهود القلبي، ولو أراد المعرفة العقلية لوجود خالق ورازق بالمفهوم الكلّي لكان يناسب أن يقول: ولولا ذلك لم يعرف أحد أنّ له خالقاً ورازقاً[١].

والتفكيك الذي فرضناه بين آية الفطرة وآية الميثاق ـ من حمل الأُولى علىٰ ما يناسب كلّ واحدة من الفطرتين العقلية والقلبية أو البديهية والشهود، وحمل الثانية علىٰ خصوص الفطرة القلبية والشهود ـ إنّما هو مبلغ فهمنا من ظواهر الآيات.

ولكننا نرىٰ في بعض الروايات مايدل علىٰ أنّ المقصود بالآيتين أمر واحد، وأنّ فطرة الله التي فطر الناس عليها هي في زمن أخذ الميثاق، فقد ورد في صحيحة عبدالله بن سنان عن أبي عبداللهعليه السلام قال: «سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٢] ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم علىٰ التوحيد قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وفيه المؤمن والكافر»[٣].

وختم الكلام: أنّه لا شك كتاباً وسنّة وعقلاً في فطرية وجود الله تعالىٰ علىٰ مستوى فطرة العقل والقضايا التي تكون قياساتها معها، ولا أظنّ أنّه يختلف في ذلك اثنان من الموحّدين، وتبدو من بعض الآيات والروايات فطريته علىٰ مستوى فطرة القلب والإحساس والشهود، وسلام الله علىٰ الإمام المعصوم الحسين الشهيد الذي قال حسب ما ورد عنه في دعاء يوم عرفة: «كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّىٰ يكون هو المظهر لك، متى غبت حتّىٰ تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى

---

(١) راجع معارف قرآن ١ : ٤٠.
(٢) س ٣٠ الروم، الآية: ٣٠.
(٣) الكافي ٢ : ١٢، باب فطرة الخلق علىٰ التوحيد من كتاب الإيمان والكفر، الحديث ٢.

بعدت حتّىٰ تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبّك نصيبا».

کی رفته‌ای زدل که تمنّا کنم ترا    کی گشته پشت پرده که حاشا کنم ترا
با صد هزار جلوه برون آمدی که من    با صد هزار دیده تماشا کنم ترا

* * *

# البراهين علىٰ وجود الله تعالىٰ

نقتصر لإثبات وجود الله تعالىٰ بغض النظر عن وحدانيته علىٰ بعض البراهين ضمن منهجين: أوّلاً: المنهج الفلسفي، وثانياً: المنهج العلمي.

## المنهج الفلسفي لإثبات وجود اللّٰه تعالىٰ

يستفيد من المنهج الفلسفي لإثبات الصانع من يدرك بعض الدقائق الفلسفية، ونذكر في هذا المنهج عدداً من البراهين:

### البرهان الأوّل ـ برهان الإمكان الذاتي

وهذا البرهان مؤلّف من ثلاث مقدّمات:

**الأُولى :** أنّ عالمنا هذا بما يزخر به من المادّيات المختلفة ممكن الوجود، أي: يمكن أن يوجد ويمكن أن ينعدم.

**الثانية :** أنّ كلّ ما كان ممكن الوجود ـ أي كانت نسبته إلى الوجود والعدم علىٰ حدّ سواء ـ احتاج في وجوده إلى علّة.

**الثالثة :** أنّ تلك العلّة يجب أن تنتهي إلى واجب الوجود، وذلك قطعاً للدور أو التسلسل.

أمّا المقدّمة الأُولى فتوضيحها: أنّ كلّ ما يزخر به عالمنا من الأُمور التي نحسّها له ماهيّة ثابتة في عالم التقرر، ووجود مرتبط بها في لوح الخارج، وهناك بعض الأُمور تعتبر من لوازم الماهية، فتكون ذاتية لها يستحيل انفكاكها عنها من قبيل الزوجية للأربعة، وآية ذلك: أنّها لا تنفكّ عنها حتّىٰ في الوجود الذهني، فلو كانت الزوجية من لوازم الوجود لا الماهية، أو كانت من المقارنات من دون ملازمة لما كان إيجاد الماهية في الذهن غير قابل للانفكاك عن الزوجية. وهناك من الآثار ما قد يعتبر من لوازم الوجود ـ كالإحراق بالنسبة للنار ـ وليس من لوازم الماهية، وآية ذلك: أنّه لا يترتب علىٰ الوجود الذهني للماهية، فليس تصوّر النار مثلاً محرقاً، ولو كان من لوازم الماهية لترتّب علىٰ تصوّر النار كما يترتّب علىٰ وجودها الخارجي؛ لأنّ الماهية مشتركة بين الوجود الذهني والوجود الخارجي حسب التصوّر المعروف في الفلسفة.

يبقى الكلام في النسبة بين نفس الوجود والماهية، وطبعاً لا معنى لافتراض كون الوجود من لوازم وجود الماهية كالإحراق بالنسبة للنار مثلاً؛ لأنّ الوجود هو هو والملازمة فرع نوع من الاثنينيّة، وعليه فيتّجه السؤال إلى أنّ الوجود: هل هو من لوازم الماهية ولا ينفكّ عنها كما أنّ الزوجية لا تنفك عن ماهية الأربعة، أو لا؟ ومجرّد تصوّر ذلك كافٍ في الإجابة عنه بالنفي لوضوح عدم دخل الوجود في الهويّة التقررية للماهية، ولهذا لا يتحقّق ـ أعني الوجود الخارجي ـ بمجرد تصوّرها ذهناً، وعليه فكل ماهية نفترضها يمكن أن توجد ويمكن أن لا توجد.

ولا أرغب في الاستشهاد لعدم كون الوجود من لوازم أيّ ماهية ممّا حولنا من الماهيات بما قد نحسّ به من حدوثها وتحققها بعد أن لم تكن كما فعله

بعضهم[١]؛ لأنّ الحدوث وحده كافٍ في مقابل الإمكان كنقطة بدء للاستدلال علىٰ وجود الله تعالىٰ، كما سيأتي إن شاء الله في ما نسمّيه ببرهان الحدوث، فلا نرغب في الخلط والتركيب بينهما.

وأمّا المقدّمة الثانية : فتوضيحها: أنّه اذا كانت نسبة الماهية إلى الوجود والعدم علىٰ حدّ سواء فترجيح كلّ واحد من كفّتي الوجود والعدم علىٰ الأُخرىٰ من دون علّة وبدون مرجّح غير معقول، واستحالة الترجيح بلا مرجّح من بديهيات العقل، وعلّة العدم عبارة عن عدم علّة الوجود.

وأمّا المقدّمة الثالثة: فتوضيحها: أنّ ما فرضناه علّة لإيجاد الماهية لو لم يكن واجب الوجود ولا منتهياً إلى واجب الوجود للزم التسلسل أو الدور، وكلاهما مستحيلان: أمّا استحالة الدور فلرجوعه إلى توقّف الشيء علىٰ نفسه، واستحالته من بديهيات العقل، وأمّا استحالة التسلسل فإمّا لبداهتها أو لبعض البراهين من قبيل برهان لزوم كون تمام السلسلة قد وجدت بلا مرجح.

ثُمّ إنّنا إنّما احتجنا في برهان الإمكان الذاتي إلى المقدّمة الأُولى وهي إثبات أنّ المادّة ممكنة الوجود؛ لأننا كنّا نهدف لإثبات أنّ المادّة ليست هي الله تعالىٰ.

أمّا لو أُريد الاقتصار علىٰ إثبات واجب الوجود من دون هدف تعيين المصداق هل هو المادّة أم غيرها فالمقدّمة الأُولى يُستغنى عنها.

ثُمّ الواقع أنّ هذا البرهان مع ما سيأتي إن شاء الله من البرهان الرابع يمكن أن يكونا برهاناً واحداً؛ وذلك لأنّ هذا البرهان يناسب أصالة الماهية[٢]، وما

---

(١) راجع الإلهيّات ١ : ٦٨.

(٢) ويناسب أصالتهما أيضاً.

سيأتي إن شاء الله من البرهان الرابع يناسب أصالة الوجود[١]، ونحن في هذا الكتاب لا يسعنا الحديث عن هذين المبنيين وتحقيق ما هو الحق في المقام، إذن بإمكاننا أن نضمّ دليلاً علىٰ وجوده سبحانه علىٰ مبنى أصالة الماهية في المادّة إلى دليل علىٰ وجوده سبحانه علىٰ مبنى أصالة الوجود، ونعتبر مجموع الدليلين دليلاً واحداً علىٰ المقصود مستوعباً لكلا الاحتمالين.

ولعلّ الفهم الأوّلي للعوام هو أصالة الماهية، بمعنىٰ تمايل أذهانهم إلى واقع أصالة الماهية من دون أن يعرفوا المصطلحات.

فإن كانت الماهية أصيلة صحّ أن يقال: هل الوجود ينبع منها أو يلازمها، أو أنّ له علّة مستقلّة عن هذا الشيء؟ ويكون الإيجاب بالثاني؛ لأنّ العقل يرى أنّ الماهية بما هي لا يكمن فيها الوجود.

أمّا علىٰ القول بأصالة الوجود وكون الماهية حدّاً للوجود ولو حدّاً وجودياً ـ فضلاً عن القول بكونها حدّاً عدمياً ـ فلا معنى للتساؤل عن كون الوجود لازماً لحدّه أو نابعاً عنه وعدمه، بل لابدّ عندئذٍ من تفسير إمكان الوجود ووجوبه بتفسير آخر ينسجم مع أصالة الوجود، كما سيأتي إن شاء الله في البرهان الرابع.

ومن الغريب أني رأيت برهان الإمكان بشكله المناسب لأصالة الماهية حتّىٰ عند بعض القائلين بأصالة الوجود، فقد ذكر الشيخ السبحاني حفظه الله حسب تقرير الشيخ حسن المكّي العاملي: «إنّ كلّ معقول في الذهن إذا نسبنا إليه الوجود والتحقّق، فإمّا أن يصح اتّصافه به لذاته أو لا. الثاني هو ممتنع الوجود كاجتماع النقيضين، والأوّل إمّا أن يقتضي وجوب اتّصافه به لذاته أو لا، والأوّل هو واجب الوجود لذاته، والثاني هو ممكن الوجود لذاته...»[٢]، وأنت

---

(١) ويناسب أصالتهما أيضاً.

(٢) الإلهيّات ١ : ٦١.

ترىٰ أنّ المعقول في الذهن حسب تصوّراتهم[١] ليس إلّا الماهية، وأنّ التساؤل عن نسبة الوجوب والإمكان للوجود بالقياس إلى الماهية لا معنى له لو فرضت الماهية حدّاً للوجود.

### البرهان الثاني ـ برهان الحدوث

وهذا البرهان أيضاً مؤلّف من ثلاث مقدّمات :

**الأُولى** : الحدوث.

**الثانية** : احتياج الحادث إلى علّة.

**الثالثة** : ضرورة الانتهاء في سلسلة العلل إلى القديم؛ وذلك لاستحالة الدور والتسلسل.

أمّا المقدّمة الأُولى : وهي حدوث العالم، فلإثبات حدوثه طرق عديدة منها مايلى :

١ ـ الحركة الجوهريّة:

لا إشكال في كون العالم مليئاً بالحركة الظاهرية، والحركة: هي الخروج من القوّة إلى الفعل تدريجاً، أو قل: هي الزوال والحدوث المستمرّ، وهذه الحالة حسّيّة لنا في البشر في نموّه وبلوغ أشدّه ثُمّ انتكاسه، وكذلك في الحيوانات، والأشجار، وكذلك التغيّرات الأُخرى: من الحرّ والبرد والليل والنهار وحركة السيّارات وما إلى ذلك.

والمادّة عموماً ـ وفقاً لاكتشاف العلم الحديث ـ يتألّف كلّ مليمتر واحد منها

---

(١) إشارة إلى وجود تصوّر آخر وهو أنّ المعقول في الذهن يكون صورة عمّا هو خارج الذهن، لا ماهية مشتركة بين الوجود الذهني والوجود الخارجي.

من ملايين الذرّات، والذرّة: هي الجزء الصغير الذي يفقد بانقسامه خصائص عنصره البسيط، وكلّ ذرّة تحتوي علىٰ نواة مركزية وعلىٰ الألكترونات التي تدور حول النواة، والالكترون: هو وحدة الشحنة السالبة[1]، وقد أصبح تبدّل العناصر بعضها إلى بعض ـ بل وتبدّل المادّة إلى الطاقة وبالعكس تلقائياً تارة وبالطرق العلمية أُخرىٰ ـ من واضحات العلم الحديث.

وقد جعل المولى صدرالدين الشيرازي رحمه الله الحركة الظاهرية دليلاً علىٰ الحركة الجوهريّة علىٰ أساس أنّ كلّ ما بالعرض ينتهي إلى ما بالذات[2]، إذن فالعالم كلّه حركة في ذاته وليست الحركة إلّا حدوثاً وزوالاً باستمرار، ولا يعني هذا سكونات مترادفة أو وجودات متتالية يستقلّ بعضها عن بعض، بل يعني وجوداً واحداً يتحرّك من القوّة إلى الفعل دائماً.

٢ ـ العالم متغيّر وكل تغيّر حادث:

لئن لم نقبل بالحركة الجوهريّة فالتغيّر السطحي الظاهري واضح كما أشرنا إليه في تقريب الحركة الجوهريّة، وعندئذٍ نقول: إنّ التغيّر سواء فرض جوهريّاً ـ كما هو مبنى القائلين بالحركة الجوهريّة ـ أو سطحياً ـ كما هو مبنى المنكرين لها ـ يكون حركة عارضة علىٰ المادّة، والتغير خروج تدريجي من القوة إلى الفعل، فلو كان قد مضى علىٰ العالم أو قل علىٰ المادّة وقت لا أمد له لكان المفروض انتهاء كل ما بالقوّة إلى الفعل، ووصول المادّة أو العالم إلى الفعل الكامل منذ أمد طويل، وهذا يعني انتهاء التغيّر والحركة والوصول إلى السكون المطلق.

---

(١) راجع فلسفتنا : ٣١٨.

(٢) راجع پيام قرآن ٣ : ٣٦ ـ ٣٧.

٣ـ العلم الحديث:

أثبت العلم الحديث أنّ للعالم بداية، وحسب عمر الأرض والشمس والقمر وكثير غيرها، وهي أعمار متقاربة تناهز ستة مليارات سنة[١] وكان إثباته لحدوث العالم بأحد طريقين:

**الأوّل** : أنّ هناك انتقالاً حراريّاً مستمرّاً من الأجسام الحارّة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن العكس، ومعنى ذلك أنّ الكون يتّجه إلى درجة تتساوى فيها جميع الأجسام، بل إلى نضوب معين الطاقة والحياة؛ لأنّ الحرارة إذا انحدرت إلى الأجسام الباردة وتساوت فُقد المستوى من الحرارة اللازم للحياة والطاقة، فإذن لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً وإلّا لاستهلكت طاقاته منذ زمن بعيد، ولو لم تكن اليوم عمليات كيمياوية أو طبيعية لتوقف كلّ نشاط في الوجود، ولتساوت جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة البالغة الانخفاض من الصفر المطلق[٢].

**الثاني** : يتعلّق بالعناصر التي يكون وزنها الذرّي أكثر من (٨٠)، فهي تشتمل علىٰ شحنات موجبة أكثر من (٨٠) وتوازيها أيضاً شحناتها السالبة، والعناصر التي تكون من هذا القبيل تشعّ من نفسها اشعاعات ذرّيّة تتحوّل بالتدريج إلى عنصر أخفّ في وزنه الذريّ، حتّىٰ تصل إلى عنصر ثابت لا يشعّ من نفسه شيئاً، وعلىٰ هذا الأساس ينتهي مثلاً عنصر اليورانيوم إلى عنصر الرصاص[٣]، فلو كان العالم أزلياً لانتهت العناصر التي يزيد وزنها الذريّ علىٰ الثمانين منذ أمد بعيد[٤].

---

(١) پيام قرآن ٣ : ٤٣ نقلاً عن كتاب (إثبات وجود خدا) : ١٦٠ نقلاً عن العالم الفلكي استونتر.

(٢) راجع پيام القرآن ٣ : ٤١.

(٣) راجع فلسفتنا : ٣٢٠.

(٤) راجع پيام قرآن ٣ : ٤٢.

وأمّا المقدّمة الثانية : وهي أنّ الحادث بحاجة إلى علّة، فيقال في ذلك بحكم العقل البديهي.

وقد تقول: إنّ هذا يعني المصير إلى كون سرّ الحاجة إلى العلّة يكمن في الحدوث، في حين أنّ الوجه الفلسفي في بيان سرّ الحاجة إلى العلّة لا ينحصر بالقول بكمون سرّها في الحدوث، بل هناك نظريتان أُخريان وهما: الإمكان الذاتي والإمكان الوجودي، أمّا الإمكان الذاتي فهو ما مضى بيانه في البرهان الأوّل ووضّحنا تفرّعه علىٰ مبنى أصالة الماهية. وأمّا الإمكان الوجودي فهو ما سيأتي بيانه إن شاء الله في البرهان الرابع، وهو بيان متفرّع علىٰ أصالة الوجود؛ وعليه فهذا البرهان الثاني وهو برهان الحدوث مبتن علىٰ أحد المباني الفلسفية: وهو كون سرّ الحاجة إلى العلّة يكمن في الحدوث، كما أنّ برهان الإمكان الذاتي مبتن علىٰ مبنى أصالة الماهية، وبرهان الإمكان الوجودي مبتن علىٰ مبنى أصالة الوجود.

ولكن الواقع أنّ برهان الحدوث أوسع من برهان الإمكان بكلا معنييه، وأنّ العقل يدرك بالبداهة أنّ الحادث بحاجة إلى علّة، غاية الأمر أننا تارةً نلتفت إلى كمون نكتة الحاجة إلى العلّة في الإمكان بأحد معنييه فيصحّ لنا الرجوع إلى برهان الإمكان الذاتي أو الوجودي، وأُخرىٰ نغضّ النظر عن ذلك ولكنّا نقول: إنّ الحادث بحاجة إلى محدث ببداهة العقل سواء أكانت نكتة الحاجة هي الحدوث ـ كما هو أحد الوجوه التي تذكر ـ أو هي الإمكان بأحد المعنيين، فإنّ الحدوث سيستبطن الإمكان لا محالة؛ إذ لو كان واجباً لكان أزلياً ولو كان ممتنعاً لما حدث، وعليه فبرهان الحدوث أوسع من برهان الإمكان بكلا معنييه.

وأمّا المقدّمة الثالثة : وهي ضرورة الانتهاء في سلسلة العلل إلى القديم فلما مضت في البرهان الأوّل الإشارة إليه من استحالة الدور والتسلسل.

وإنّما عبّرنا هنا بكلمة « القديم » لا بكلمة « واجب الوجود»؛ لأننا إن التفتنا إلى أنّ سرّ الحاجة إلى العلّة وعدمها يكمن في الإمكان والوجوب لانتهى الأمر إلى برهان الإمكان. فهنا نكتفي بالقول بأنّ العلل الحادثة يجب أن تـنتهي إلى القديم سواء أكان سرّ الحاجة إلى العلّة الحدوث فالعلّة الأصلية يجب أن تكون غير حادثة، أو الإمكان لأنّ كلّ حادث ممكن، فالعلة الأصلية يجب أن تكون أيضاً غير حادثة كي يعقل أن يكون واجباً.

ومـن المـحتمل أن يكـون مـما يشـير إلى بـرهان الحـدوث قـوله سبحانه عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[١]، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٢]، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٣]، ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[٤].

وأيضاً مما يناسب أن يكون مشيراً إلى برهان الحدوث عن طـريق صـفة التغير ما ورد في الكافي من أنّ ابن أبي العوجاء قال للإمام الصادق عليه السلام: «مـا الدليل علىٰ حدث الأجسام؟ فقال: إنّي ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلّا وإذا ضمّ إليه مثله صار أكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأُولىٰ، ولو كان قديماً ما زال ولا حال؛ لأنّ الذي يزول ويحول يـجوز أن يـوجد ويـبطل، فـيكون بوجوده بعد عدمه دخولاً في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم[٥]، ولن تجتمع صفة الأزل والعـدم والحـدوث والقـدم فـي شـيء واحـد، فـقال عبدالكريم: هبك علمت في جري الحالتين والزمانين علىٰ ما ذكرت واستدللت بذلك علىٰ حدوثها فلو بقيت الأشياء علىٰ صغرها من أين كان لك أن تستدلّ

---

(١) س ٥٢ الطور، الآية: ٣٥.
(٢) س ٧ الأعراف، الآية: ١٩١.
(٣) س ١٦ النحل، الآية: ٢٠.
(٤) س ٢٥ الفرقان، الآية: ٣.
(٥) الموجود في ما عندي من نسخة الآخوندي: «العدم» ولكنه خطأ والصحيح ما أثبتناه.

علىٰ حدوثهن؟ فقال العالمﷺ: إنّما نتكلم علىٰ هذا العالم الموضوع فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدلّ علىٰ الحدث من رفعنا إيّاه ووضعنا غيره، ولكن أُجيبك من حيث قدّرت أن تلزمنا فنقول: إنّ الأشياء لو دامت علىٰ صغرها لكان في الوهم أنّه متى ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروجه من القدم، كما أنّ في تغييره دخوله في الحدث، ليس لك وراءه شيء يا عبدالكريم. فانقطع وخزي»[1].

أقول: قولهﷺ: «إنّ الأشياء لو دامت علىٰ صغرها لكان في الوهم أنّه متى ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروجه من القدم...» كأنّ المقصود به أننا لسنا بحاجة إلى فعلية التغيير، بل إذا أدركنا بعقولنا قابلية التغيير كفى ذلك لإثبات الحدوث؛ لأنّ القديم لا يقبل التغيير.

## البرهان الثالث ـ برهان الحركة أو التغير

مضت ضمن البرهان الثاني الإشارة إلى إثبات الحركة الجوهرية أو التغير السطحي علىٰ أقل تقدير إلّا أننا كنّا ننظر إلى ذلك هناك كمقدّمة لإثبات حدوث المادّة؛ كي يصبح حدوث المادّة بدوره دليلاً علىٰ وجود الله تعالىٰ، أمّا هنا فننظر إلى ذلك كدليل مباشر علىٰ وجود الله تعالىٰ؛ لأنّ نفس الحركة أو التغير أمر حادث فيحتاج إلى محدث أي إلى محرّك ومغيّر، ولا يمكن أن يكون المحرّك أو المغيّر نفس المتحرّك أو المتغيّر؛ لأنّ الحركة أو التغير إن هما إلّا الخروج بالتدريج من القوّة إلى الفعل، والمتحرّك أو المتغير يكون قبل تحرّكه أو تغيرّه

---

(١) الكافي ١ : ٧٧، باب حدوث العالم وإثبات المحدث من كتاب التوحيد، ذيل الحديث ٢.

فاقداً لتلك الفعلية وناقصاً بلحاظها فكيف يوجدها؟!

**البرهان الرابع ـ برهان الإمكان الوجودي**

وهذا البرهان مبتن علىٰ أصالة الوجود، ويمكن تأليفه من أربع مقدمات ـ بعد التسليم بأصل الإيمان بالواقع الخارجي ورفض السوفسطائية، وهو مقدمة مفروضة في كلّ البراهين؛ ولذلك حذفناها منها ـ:

**المقدّمة الأُولى** : إنّ الارتباط بين كلّ شيئين في المألوف عبارة عن نوع علاقة بين أمرين مستقلين، أي أنّ أحدهما مستقل عن الآخر، فالرسّام مثلاً مستقلّ عن اللوحة وبينهما نوع علاقة وارتباط، وكذلك الكاتب بالقياس للقلم والمطالع بالنسبة للكتاب، والأسد بالنسبة لما طوّق به من سلسلة الحديد، وما إلى ذلك.

ولكنّه يستثنىٰ من هذا القانون العام ارتباط واحد وهو الارتباط بين العلّة والمعلول الحقيقيين، أعني حينما يكون أصل وجود أحد الطرفين مديناً للطرف الآخر ـ كالوجودات الذهنية التي تخلقها نفوسنا ـ ففي هذا القسم يستحيل افتراض وجود مستقلّ للمعلول في مقابل العلّة كي تعرض عليهما علقة الربط كما في العلاقات الأُخرى؛ إذ لو كان الأمر كذلك لما كان أصل وجود المعلول منبثقاً من العلّة وهذا خلف، وبكلمة أُخرىٰ: إن لم يفرض وجود المعلول في المرتبة السابقة علىٰ علقة العلّية والمعلولية فعلى ماذا عرضت هذه العلقة المفروض كونها ذات طرفين؟ وان فرض وجوده في المرتبة السابقة علىٰ هذه العلقة إذن كان مستقلاً عن العلّة وموجوداً بلا علّيّة، فانحصر الأمر في أن يفترض أنّ هذه العلقة ليست ذات طرفين بل لها طرف واحد وهو العلة، فالمعلول هو عين العلقة والربط ويكون وجوداً متقوّماً بوجود العلّة.

وهنا ينبغي الالتفات إلى مغزى ما نقصده بالإمكان والوجوب، فلقد كـان المقصود بهما في ما مضى من البرهان الأوّل بيان نسـبة الوجـود إلى المـاهيّة بمعنى أنّ الوجود هل هو ذاتيّ للماهيّة وهذا هو الوجود الواجب، أو منبثق من شيء آخر لا من نفس الماهيّة ولهذا يحتاج إلى العلّة وهذا هو الوجود الممكن؟ أمّا هنا فلا نقيس الوجود بالماهيّة بل نلحظ ذات الوجود كي نقسّمه إلى الوجود الربطي ـ وهو الربط المحض والتعلق المحض ـ والوجود الاستقلالي، فـالأوّل هو الممكن وليس إلّا مظهراً من مظاهر الثاني ووجوداً إشراقياً له أو قل: تجلّياً من تجلّياته، والثاني هو الواجب ولا يحتاج إلى علّة لفرض استقلاله لذاته، في حين أنّ الأوّل ليس له تحقق بذاته لأنّه عين التعلق والربط.

**المقدّمة الثانية** : إنّ وجود المادّة متى ما كان فهو دائماً من القسـم الأوّل، أعني ممكن الوجود أو الوجـود الربـطي أو التـعلّقي دون واجب الوجـود أو الوجود القائم بذاته؛ وذلك لما مضى شرحه من أنّ المادّة مـتحرّكـة ومـتغيرة، وليس التحرّك والتغيّر إلّا الحدوث المستمر، ومن الواضح أنّ ذلك لا ينسجم مع الوجود الذاتي والمستقل.

**المقدّمة الثالثة** : إنّ الوجود الربطي أو التعلقي بحاجة لا محالة إلى ما يرتبط به أو يتعلّق به، أو قل: إنّ الوجود الإشراقي بحاجة إلى ما يشرق به، أو قل: إنّ الوجود الانبثاقي بحاجة إلى ما ينبثق منه.

**المقدّمة الرابعة** : إنّ هذا الانبثاق أو الربط أو الإشراق لا يمكن أن يتسلسل أو يدور فلابدّ من الانتهاء إلى واجب الوجود.

والمقدّمة الثانية من هذه المقدّمات إنّما احتجنا إليها لأننا كنّا بصدد أنّ المادّة ليست هي الواجبة الوجود، أمّا لو لم نكن بهذا الصدد وكنّا فقط بصدد إثـبات واجب الوجود لم نحتج إلى المقدّمة الثانية وكفتنا المقدّمات الثلاث الأُخرى.

وربّما تسمّىٰ تلك المقدّمات الثلاث الأُخرى ببرهان الصديقين، لكنّني أُفضّل بقاء هذا الاسم وقفاً للبرهان الخامس.

### البرهان الخامس ـ برهان الصديقين

وقد سمّي بذلك لأنّه خالٍ من الاستدلال بغير واجب الوجود عليه بسبب بطلان الدور والتسلسل، بل هو استدلال بنفسه عليه، وهذا مبتن علىٰ أصالة الوجود وتحليل الوجود بالذي مضى في البرهان الرابع من وجود ذاتيّ مستقل، ووجود ربطيّ وتعلّقي وأنّ الأوّل هو الواجب والثاني هو الممكن.

وعندئذٍ نقول: إنّنا تارةً لا نؤمن بوجودٍ أصلاً ونرىٰ رأي السوفسطائيين ومعه لا معنى للوصول إلى واجب الوجود، وأُخرىٰ نبني علىٰ ما هو واضح لدينا من تحقق أصل الوجود خلافاً لأهل السفسطة؛ وذلك إمّا ببداهةٍ أو ببرهان أو بحساب الاحتمالات أو بأيّ سبب من الأسباب التي رفضنا بها السوفسطائيّة، وعندئذٍ نقول: إنّ هذا الوجود إمّا هو واقع وعينيّ بذاته وبالاستقلال أو هو عين الربط والتعلق الذي لا يستغني عن الوجود المستقل لا لاستحالة الدور والتسلسل؛ بل لأنّ الفقير لا يغني الفقير وما ليس له وجود ذاتي لا يعطي وجوداً ربطياً وتعلقياً، فعلى كلا الحالين يثبت الوجود الذاتي الذي يكون بذاته طارداً لنقيضه وهو العدم فهو واجب الوجود.

وهذا المقدار من البيان يكفي لإثبات المقصود إن كان المقصود مجرّد إثبات واجب الوجود.

وأمّا لو قصد زائداً علىٰ ذلك نفي كون المادّة واجبة الوجود فيضاف إلى ما مضى أنّ الوجود الذاتي الذي يطرد العدم يطرد لا محالة كلّ حدّ من الحدود؛ لأنّ الحدود إنّما تكون بلحاظ ما يقابل الوجود من العدم، فإحساسنا في كلّ

مادّة بمحدوديتها يبطل عندنا كونها واجبة الوجود.

ومن المحتمل أن يكون هذا الوجه الخامس هو المقصود بما عن إمامنا زين العابدين عليه السلام: «بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْت»[1].

ومن المحتمل أيضاً كون هذا مقصوداً بما عن إمامنا الحسين عليه السلام مما مضى احتمال تطبيقه علىٰ العلم الحضوري بالله سبحانه وتعالىٰ وهو قوله عليه السلام: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتىٰ غِبْتَ حَتّىٰ تَحْتَاجَ إِلىٰ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتىٰ بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوْصِلُ إِلَيْك»[2]؟

وأيضاً يحتمل أن يكون مشيراً إلى هذا البرهان ما ورد عن الفضل بن سكن عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة، وأُولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان»[3].

وكذلك ماورد عن ابن حازم قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّي ناظرت قوماً فقلت لهم: إنّ الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يعرف بخلقه بل العباد يعرفون بالله، فقال: رحمك الله»[4].

❊ ❊ ❊

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

(٣) الكافي ١ : ٨٥، باب أنّه لا يعرف إلّا به من كتاب التوحيد، الحديث ١.

(٤) الكافي ١ : ٨٦، باب أنّه لا يعرف إلّا به من كتاب التوحيد، الحديث ٣.

## المنهج العلمي لإثبات اللّٰه تعالىٰ ( برهان النظم )

المنهج العلمي لإثبات الصانع هو منهج حساب الاحتمالات وتجميع قرائن الحكمة ودلائل القصد أو قل : برهان النظم، ولعلّه أكثر الأدلّة بروزاً في القرآن الكريم وفي الروايات، وتوحيد المفضّل المعروف رواية واسعة وشاملة لكثير من دلائل القصد وآيات الحكمة وقرائن الشعور.

## مميّزات المنهج العلمي

يمتاز هذا البرهان عن البراهين الفلسفية بعدّة مميّزات:

**الأُولى** : إنّ البراهين الفلسفية تملأ العقل، وهذا البرهان يملأ الوجدان والعقل.

**الثانية** : إنّ البراهين الفلسفية قد تبتعد عن فهم الناس الاعتياديين وتختصّ بأصحاب التفكير الدقيق، في حينِ أنّ هذا البرهان لا يختلف فيه الساذج البسيط عن المفكّر العبقريّ.

**الثالثة** : إنّ البراهين الفلسفية ربّما لا تخلو من جفاف الابتعاد عن مخاطبة العواطف، في حين أنّ هذا البرهان يمتلك الطرواة والنداوة والتجاوب مع العواطف والأحاسيس.

**الرابعة** : إنّ هذا البرهان في نموّ مستمرّ؛ لأنّ دلائل القصد تكتشف في كلّ يوم بأكثر ممّا كانت مكتشفة من ذي قبل؛ وذلك ببركة تقدّم العلم والتجارب : **﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا**

بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[١]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وعلىٰ هذا الأساس نعتقد أنّ العلم ـ بمعنى علم الطبيعة ـ يدعو إلى الإيمان، ولعله يشير إلى ذلك قوله سبحانه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[٣]، فإنّ الإشارة في صدر الآية إلى الآيات الطبيعية: من إنزال المطر وإخراج الثمرات واختلاف ألوانها واختلاف ألوان الطُرق الجبلية الحاكية عن المعادن الأرضية المختلفة تناسب أن يكون المقصود بالعلماء في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ هم علماء الطبيعة الذين يكتشفون أسرارها باستمرار.

**الخامسة** : إنّ البراهين الفلسفية بالقدر الذي شرحناها اقتصرت علىٰ إثبات الله، وأمّا صفاته تعالىٰ فقد أجّلنا البحث عنها لما بعد الفراغ من بحث التوحيد، في حين أنّ هذا البرهان يمرّ في طريقه لإثبات الله علىٰ إثبات الحكمة والعلم والإدراك؛ لأنّه إنّما يثبت الله عن طريق آثار حكمته وعلمه: قال الله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾[٤]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ

---

(١) س ١٨ الكهف، الآية: ١٠٩.
(٢) س ٣١ لقمان، الآية: ٢٧.
(٣) س ٣٥ فاطر، الآية: ٢٧، ٢٨.
(٤) س ٤١ فصّلت، الآية: ٥٣.

الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون﴾[١]، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِير﴾[٢].

## تحليل برهان النظم

وبرهان النظم يمكن تحليله إلى مقدّمتين:

**المقدّمة الأُولى** : أنّه لا إشكال في أنّ آثار العقل والشعور ونتائج النظم والحكمة تدلّ علىٰ عقل الفاعل وحكمته، ولا يحمل كلّ ما صدر عنه من الحركات المعقولة الحكيمة علىٰ مجرّد الصدفة.

**المقدّمة الثانية** : إنّ النظم الحاكم في العالم وقرائن الحكمة والقصد فيه تفوق كلّ علامات العلم والعبقريّة في تصرّفات أيّ عبقريّ في العالم بشكل لو قسنا علامات نبوغ هذا العبقريّ أو ذاك في أفعاله إلى نظم العالم وإتقانه وحكمته لكانت النسبة أصغر من نسبة القطرة إلى البحر، فلا يبقى شكّ في أنّ العالم مصنوع لعليم حكيم خبير.

أمّا المقدّمة الأُولى : فلها أحد جذرين :

**الأوّل** : ما يذكر في المنطق الصوري من أنّ الصدفة يستحيل بالبداهة أن تكون أكثرية، فلئن كان الفاعل إنساناً مجنوناً لا يعي ما يفعل ولا يقصد هدفاً معقولاً من وراء فعله، ومع ذلك لم تر في آلاف من تصرّفاته إلّا ما يناسب القصد والشعور لكان معنى ذلك أنّ الصدفة أصبحت أكثرية أو دائمية، وقد قلنا: إنّ هذا محال.

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) س ٦٧ الملك، الآية: ٣ ـ ٤.

**الثاني**: ما هو مختار أُستاذنا الشهيد‏ﷺ وقد حقّقه ونقّحه بما لا مزيد عليه في كتابه (الأُسس المنطقية) من إرجاع ذلك إلى حساب الاحتمالات علىٰ أساس أنّ احتمال الصدفة في كلّ جزئيّ من جزئيات تصرّف هذا الشخص يساوي النصف مثلاً، فلو ضرب في قيمة احتمال ما يماثله في جزئي آخر تنزّل احتمال مجموع الصدفتين إلى الربع، وهكذا يزداد ضرب الاحتمال بعدد الجزئيات التي تفوق ملايين المرّات، وبالنتيجة يضعف احتمال الصدفة إلى ما يصعب حسابه ويكاد أن يسمّى بما لا نهاية له، وبالتالي يضمحلّ هذا الاحتمال من النفس وفق نُظم وقوانين مشروحة في كتاب الأُسس المنطقية، ولا مجال لنا هنا لشرحها وإنّما نكتفي بوجدانيّة ذلك في نفس كلّ إنسان في مجموعة حياته ومواقفه باتجاه أُمور تكتشف ليل نهار عن طريق حساب الاحتمالات.

وعلىٰ كلّ واحد من هذين الفرضين ـ أعني فرض استحالة أكثرية الصدف بداهةً، أو فرض حساب الاحتمالات ـ فالمهم أنّه لا شك لدىٰ كلّ عاقل سويّ متعارف في صحّة هذه المقدّمة.

وأمّا المقدّمة الثانية: وهي نظم العالم وإتقانه ودلائل القصد والحكمة والحنكة فيه، فهذا الأثر أمر واضح ومحسوس بالعيان في الآفاق والأنفس جميعاً، وحمل ذلك علىٰ الصدفة الحاصلة من الطبيعة العمياء يفوق في سخفه وغرابته آلاف المرّات علىٰ حدّ تعبير أُستاذنا الشهيد‏ﷺ[1] من سخف من يجد ديواناً ضخماً من أروع الشعر وأرقاه أو كتاباً علميّاً زاخراً بالأسرار والاكتشافات، فيزعم أنّ طفلاً كان يلعب بالقلم علىٰ الورق فاتّفق أن ترتّبت

---

(١) فلسفتنا: ٣٥١.

الحروف فتكوّن منها ديوان شعر، أو كتاب علم.

**نزر يسير من آثار الحكمة والقصد:**

إليك نزر يسير من آثار الحكمة والقصد في العالم ضمن عدّة أمثلة:

**الأوّل ـ ظاهرة الحياة فوق الأرض:**

تكوّنت الحياة فوق الأرض نتيجة لاجتماع شروط كثيرة كلّ واحد منها بمنزلة جزء علّة للحياة وتستحيل الحياة بفقدانه، وهذه الشروط منها ما يرتبط بالفلك، ومنها ما يرتبط بالهواء والغازات، ومنها ما يرتبط بالأرض وما فيها من نبات وحيوان وجماد، وهذه الشروط من الكثرة بدرجة يكون احتمال اجتماعها بالترتيب والتنسيق الذي يؤدّي إلى استقرار الحياة عن طريق الصدفة احتمالاً واحداً في مقابل ما لا يحصى من الاحتمالات، وبالغاً في الضئالة ما لا يقبل الانحفاظ في الوجدان البشري. وهنا نشير إلى أقلّ القليل منها:

١ ـ تبتعد الأرض عن الشمس ٩٣ مليون ميل فتكون الحرارة التي تصلها من الشمس بمقدار يلائم الحياة ومتطلّباتها، فقد لوحظ علمياً أنّ المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس لو كانت ضِعف ما عليها الآن لما وجدت الحرارة بالمقدار الذي يتيح الحياة، ولو كانت نصف ما عليها الآن لتضاعفت الحرارة إلى درجة لا تطيقها الحياة[1].

٢ ـ «يحيط بالأرض التي نعيش علىٰ متنها غلاف سميك من الغازات يسمّى بالغلاف الجوّي يبلغ سمكه ثمان مئة كيلومتر، وهو بمنزلة مظلّة واقية تصون

---

(١) الإلهيّات ١ : ٥٢، والفتاوى الواضحة : ٣٦.

الكرة الأرضية من التعرّض لخطر النيازك التي تنفصل يومياً من الكواكب وتتناثر في الفضاء منذ ما يقرب من عشرين مليوناً من السنين، ولولا هذا الغلاف لسقطت علىٰ كلّ بقعة من الأرض ملايين النيازك المحرقة». هذا هو التعبير الوارد في الإلهيات[١] للشيخ السبحاني حفظه الله، وجاء ما يقرب منه في الفتاوى الواضحة لأُستاذنا الشهيد‏ؒ وهو مايلي:

«نلاحظ أنّ الهواء كمّيّة محدودة في الأرض قد لا يزيد علىٰ جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية، وهذه الكميّة بالضبط تتوافق مع تيسير الحياة للإنسان علىٰ الأرض، فلو زادت نسبة الهواء علىٰ ذلك أو قلّت لتعذّرت الحياة أو تعسّرت؛ فإنّ زيادتها تعني ازدياد ضغط الهواء علىٰ الإنسان الذي قد يصل إلى ما لا يطاق، وقلّتها تعني فسح المجال للشهب التي تتراءى في كلّ يوم لإهلاك من علىٰ الأرض واختراقها بسهولة»[٢].

٣ ـ إنّ الهواء الذي نستنشقه مزيج من غازات شتّى منها: النيتروجين ٧٨٪، والأُوكسجين ٢١٪، فلو تغيّر المقدار وصارت نسبة الأُوكسجين في الهواء ٥٠٪ لتبدّلت جميع الموادّ القابلة للاشتعال إلى موادّ محرقة، ولبلغ الأمر إلى درجة لو أصابت شرارةٌ غابةً لاحترقت جميع ما فيها دون أن تترك غصناً يابساً، ولو تضاءلت نسبة الأُوكسجين في الهواء لتعذّرت الحياة أو صعبت ولما توفّرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهمّاتها، ولولا أنّ الأرض تحتجز قسماً كبيراً من الأُوكسجين علىٰ شكل مركبات لكانت نسبة الأُوكسجين في الهواء أكثر بكثير مما هو الآن، ولكن قشرة الأرض والمحيطات تحتجز ـ علىٰ شكل مركبات ـ الجزء الأعظم من الأُوكسجين حتّىٰ إنّه يكوّن ثمانية من عشرة من جميع المياه

---

(١) الإلهيّات ١ : ٥٢.

(٢) الفتاوى الواضحة : ٣٧ ـ ٣٨.

في العالم، ويبقى جزء محدود من الأُوكسجين طليقاً يساهم في تكوين الهواء، وهذا الجزء يحقّق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة عن طريق التنفّس[١].

٤ ـ هناك تبادل طريف بين الحيوانات بما فيها الإنسان من ناحية، والنباتات من ناحية أُخرىٰ في مساعدة كلّ منهما علىٰ حياة الآخر، فلولا الأوّل لانعدم الثاني ولولا الثاني لانعدم الأوّل. وتوضيح ذلك: أنّ النباتات بحاجة إلى التنفّس بثاني أُوكسيد الكربون، والحيوانات بحاجة إلى التنفّس بالأُوكسجين، والحيوان عموماً حينما يتنفّس الهواء ويستنشق الأُوكسجين يتلقّاه الدم ويوزّع في جميع أرجاء الجسم، ويباشر هذا الأُوكسجين في حرق الطعام، وبهذا يتولّد ثاني أُوكسيد الكربون الذي يتسلّل إلى الرئتين ثُمّ يلفظه الإنسان أو الحيوان، وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار والذي يكون شرطاً ضرورياً لحياة كلّ نبات. والنبات بدوره حين يستمدّ ثاني أُوكسيد كربون يحلّله إلى كربون وأُوكسجين، ويحتفظ النبات بالكربون ليصنع منه ومن غيره من الموادّ الفواكه والأثمار والأزهار، ويلفظ الأُوكسجين ليعود نقيّاً صالحاً لاستنشاق الإنسان والحيوان من جديد، ولولا الحيوان بمعناه العامّ لنفدت المواد الكربونية باستنشاق النباتات، ولولا النبات لنفد الأُوكسجين باستنشاق الحيوانات، ومعنى ذلك انقراض كلا النسلين في وقتٍ سريع. فسبحان من راعى هذه الموازنة واحتفظ بها[٢].

٥ ـ لو كانت الأرض أكثر سمكاً ممّا هي الآن لامتصّت الأُوكسجين وثاني

---

(١) الإلهيّات : ٥٢، والفتاوى الواضحة : ٣٦.

(٢) الفتاوى الواضحة : ٣٦ ـ ٣٧، والإلهيّات : ٤٤، ومنشور جاويد ٢ : ١١٩.

أُوكسيد الكربون أكثر ممّا عليه، ولهلك النبات والحيوان والإنسان[١]، ولو كانت الأرض أقلّ سمكاً ممّا هي الآن لفاض الأُوكسجين أو ثاني أُوكسيد الكربون وأدّى ذلك إلى أضرار زيادتهما.

٦ ـ ظاهرة الزوجية علىٰ العموم والتطابق الكامل بين التركيب الفسلجي للذكر والتركيب الفسلجي لأُنثاه في الإنسان، وأقسام الحيوان والنبات هي الأُخرى مظهر كونيّ للتوافق بين الطبيعة ومهمّة تيسير الحياة[٢].

وقبل أن يكشف العلم النقاب عن شمول ظاهرة الزوجية لغير الحيوانات كشف القرآن النقاب عن ذلك فقال: **﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**[٣]، وقال: **﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾**[٤].

والتلقيح بين الزوجين قد يتمّ بصورة إرادية أو غريزية كما في الإنسان والحيوان، وكان هذا أمراً محسوساً منذ اليوم الأوّل، وقد يتمّ عن طريق الرياح، وهذا ما كشف عنه القرآن قبل أن يصل العلم إليه علىٰ ما يظهر لنا من قوله تعالىٰ: **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾**[٥]، وقد يتمّ عن طريق الحشرات، وقد لوحظ أنّ الأزهار التي ترك تلقيحها للحشرات قد زوّدت بعناصر الجمال والجذب من اللون الزاهي والعطر المغري بنحو يتفق مع جذب الحشرة إلى الزهرة وتيسير عملية التلقيح، بينما لا تتميز الأزهار التي يحمل الهواء لقاحها عادة بعناصر الإغراء[٦].

ولو قصرنا النظر علىٰ ظاهرة الزوجية التي يفهمها كلّ أحد في الإنسان

---

(١) الفتاوى الواضحة : ٣٨.

(٢) الفتاوى الواضحة : ٣٩.

(٣) س ٥١ الذاريات، الآية: ٤٩.

(٤) س ١٣ الرعد، الآية: ٣.

(٥) س ١٥ الحجر، الآية: ٢٢.

(٦) الفتاوى الواضحة : ٣٩.

والحيوان، وافترضنا عدم كشف العلم عن هذه الظاهرة في النباتات أو في أيّ شيء آخر لكفت نفس تلك الظاهرة بمقدارها الذي يدركه كلّ أحد آيةً لحكمة الله تعالىٰ، كما ورد في الحديث المعروف بتوحيد المفضّل قوله عليه السلام: «انظر الآن يا مفضّل، كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأُنثى جميعاً علىٰ ما يشاكل ذلك، فجعل للذكر آلة ناشزة تمتدّ حتّىٰ تصل النطفة إلى الرحم إذ كان محتاجاً إلى أن يقذف ماءه في غيره، وخلق للأُنثى وعاءً قعر ليشتمل علىٰ المائين جميعاً، ويحتمل الولد ويتّسع له ويصونه حتّىٰ يستحكم، أليس ذلك من تدبير حكيم لطيف سبحانه وتعالىٰ عمّا يشركون؟

فكّر يا مفضّل في أعضاء البدن أجمع وتدبير كلّ منها للإرب؛ فاليدان للعلاج والرجلان للسعي، والعينان للاهتداء، والفم للاغتذاء، والمعدة للهضم، والكبد للتخليص، والمنافذ لتنفيذ الفضول، والأوعية لحملها، والفرج لإقامة النسل، وكذلك جميع الأعضاء إذا تأمّلتها وأعملت فكرك فيها ونظرك وجدت كلّ شيء منها قد قدّر لشيء علىٰ صواب وحكمة.

قال المفضّل: فقلت: يا مولاي، إنّ قوماً يزعمون أنّ هذا من فعل الطبيعة. فقال: سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة علىٰ مثل هذه الأفعال أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإنّ هذه صنعته، وإن زعموا أنّها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة علم أنّ هذا الفعل للخالق الحكيم، وأنّ الذي سمّوه طبيعة هو سنّة في خلقه الجارية علىٰ ما أجراها عليه»[1].

٧ ـ الحياة. قال الله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ**

---

(١) البحار ٣ : ٦٦ ـ ٦٧ ، الباب ٤ من كتاب التوحيد.

﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون﴾[(١)].

صدر الآية المباركة خارج عن مقطعنا الحالي من البحث، وهو البحث عن الحياة الإنسانية والحيوانية، ولكن لا بأس بالإشارة بالاستطراد إلى أنّه يلفت النظر أيضاً إلى آية عظيمة من آيات الله، وهي انفلاق الحبّة الصلدة عن زهرة لطيفة وظريفة تنتهي في سيرها إلى شجرة يانعة مثمرة، فسبحان خالقها وبارئها.

وحديثنا الآن في ذيل الآية الذي يشير ـ كعديد آخر من الآيات ـ إلى أنّ أصل الحياة من الآيات الباهرات لوجود الله جلّت عظمته، فنحن في الأمثلة السابقة كنّا نعدّ شرائط الحياة من آياته عزّ وجلّ، في حين أنّ هذه الآية تناولت أصل الحياة وجعلتها آية عظمة الله جّل جلاله، فالحياة من أعجب عجائب الخلق، وقد عجز أكابر المفكّرين ونوابغهم العظماء عن دركها أو تفسير نشوئها فضلاً عن خَلقها وإيجادها، ويحتمل أن يكون قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾[(٢)] إشارةً إلى أنّ سرّ الحياة سيبقى مجهولاً للبشريّة إلى الأبد.

وأيضاً يشير إلى الفاصل الحدّي بين خلق المادّة وخلق الحياة أو الروح قوله سبحانه وتعالىٰ ـ بعد ذكر المراحل الماديّة للجنين ـ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين﴾[(٣)].

والشيء الملفت للنظر في الحياة أُمور:

---

(١) س ٦ الأنعام، الآية: ٩٥.

(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٨٥.

(٣) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٤، وتمام الآية ما يلي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين (١٤)﴾.

منها: ما أشرنا إليه من أنّ سرّ الحياة بقي غامضاً لدى البشرية وسيبقى غامضاً، ولئن اجتمعت الجنّ والإنس علىٰ خلق ذباب ما فعلوه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾[١].

وقد ورد في نهج البلاغة قولهﷺ: «ولو اجتمع جميع حَيَوانها من طيرها وبهائمها وما كان من مُراحها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها ومتبلّدة أُممها وأكياسها علىٰ إحداث بعوضة ما قدرت علىٰ إحداثها، ولا عرفت كيف السبيل إلى إيجادها، ولتحيّرت عقولها في علم ذلك، وتاهت وعجزت قواها وتناهت ورجعت خاسئة حسيرة عارفة بأنّها مقهورة مقرّة بالعجز عن إنشائها مذعنة بالضعف عن إفنائها»[٢].

ومنها: أنّ الحياة وعلىٰ الخصوص الحياة الإنسانية أصبحت مظهراً قويّاً من مظاهر الله تعالىٰ، حيث تحمل معها بنسبة القطرة من البحر أو أقل بعض صفات الله تعالىٰ من علم وإرادة واختيار وما إلى ذلك.

ومنها: الهوّة السحيقة الموجودة بين الحياة والمادّة، فواضح أنّ الحياة مرتبة أعلىٰ وأشرف وألطف وأدقّ من الوجود بالقياس إلى المادّة، فيستحيل أن يكون خالقها وبارئها هو المادّة؛ لأنّ الناقص لا يخلق الكامل، فخالق الحياة وبارئها هو الله جلّ جلاله سواءٌ فرض ذلك مباشرة، أو فرض جعل الله سبحانه لمادّة من الموادّ مقدّمة إعدادية لنفخ الروح وإعطاء الحياة.

أمّا الذي دلّ عليه العلم الحديث فهو أمر أصبح اليوم من المسلّمات، وهو: أنّ الكائن العضوي أو الحيّ ـ حتّىٰ في الحياة النباتية فضلاً عن الإنسانية

---

(١) س ٢٢ الحج، الآية: ٧٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٦.

والحيوانية ـ لا يولَد إلّا من كائن عضوي أو حيّ، ففي داخل الحبّة أو النوى توجد خلية حيّة غير الموادّ الغذائية، وهي التي تنفلق وتتغذّىٰ من ذاك الغذاء وتنمو، وكذلك توجد في نطفة الإنسان أو الحيوان خلايا حيّة هي التي تكون مبدأً لإنسان آخر أو حيوان آخر.

ومن الطريف ما يقوله العالم السوفياتي اوبارين من أنّ بعث الحياة عن طريق التفاعل المادّي لا يزال ممكناً في كواكب أُخرىٰ غير كوكبنا، وإنّما تركت المادّة تبديل الكائن غير العضوي إلى العضوي اليوم في كوكبنا لأنّه لم تعد حاجة إلى ذلك، ولم يبق له لزوم ما دامت النتيجة المطلوبة تتحقّق عن طريق أسرع وأقرب وهو توالد الكائنات الحيّة(١).

وهذا كما ترىٰ كلام غريب حقّاً، فلاحظه كيف يفترض استغناء الطبيعة عن عملية التكاثر الذاتي بسبب أنّها عملية لا لزوم لها بعد أن وجدت الطريق الأسرع والأقرب إلى إنتاج الحياة، وكأنّه يتكلّم عن قوّة عاقلة واعية تترك عملية شاقّة بعد أن تجد الطريق الأيسر!(٢)، فسبحان الذي أودع سرّ الحياة في الخلية أو الخلايا الأُولى.

ومن هنا يتوجّه سؤال وهو: أنّ توالد الكائنات العضوية الحيّة إن لم يكن إلّا من مثيلاتها فما معنى قوله سبحانه وتعالىٰ: **﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ﴾**(٣)؟

ويمكن الجواب عن ذلك بوجوه:

**الوجه الأوّل**: إنّ الحياة الإنسانيّة أو الحيوانيّة تختلف عن حياة الخلايا

---

(١) فلسفتنا : ٣٤٥.    (٢) المصدر السابق.

(٣) س ٦ الأنعام، الآية: ٩٥.

والحياة النباتيّة، فالمادّة التي يتكوّن منها الإنسان مثلاً بالرغم من اشتمالها علىٰ خليّة حيّة وبالرغم من اشتمال الجنين قبل ولوج الروح علىٰ الروح النباتية، تعتبر بالقياس إلى الروح الإنسانية أو الحيوانية ميّتة إلى أن ينشئه الله تعالىٰ خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

**الوجه الثاني** : أن يقال: إنّ أوّل ما انفصلت الكرة الأرضية عن الشمس لم تكن تشتمل علىٰ كائن حيّ يقيناً؛ لأنّ درجة الحرارة التي كانت فيها لم تكن تسمح بذلك، فالله سبحانه وعلا هو الذي نفخ الروح أوّل مرّة في مادّة غير حيّة، وافتراض أنّ الحياة انتقلت من كرة أُخرىٰ إلى هذه الكرة لا يحلّ من المشكل شيئاً؛ لأنّنا ننقل الكلام إلى تلك الكرة بلحاظ زمان انفصالها عن الشمس[١].

**الوجه الثالث** : إنّ الخليّة الأُولى لأيّ إنسان أو حيوان وإن كانت ذات حياة منذ أوّل وجودها، ولكن هذه الخليّة تنمو عن طريق التغذية من الموادّ، وهذه العملية تؤدّي إلى تحوّل الموادّ التي اتّحدت مع تلك الخليّة إلى كائن حيّ مشتمل علىٰ ملايين خلايا حيّة[٢].

**الثاني ـ جهاز الإبصار :**

يشبّه جهاز الإبصار في الإنسان عادة بجهاز التصوير المادّي الصناعي، في حين أنّ جهاز التصوير في العالم لو قيس بجهاز الإبصار كان بمنزلة أداة لعب من ألعاب الأطفال في مقابل جهاز حقيقي. وجهاز التصوير يشتمل علىٰ عدسة ثابتة لابدّ لتصوير الظواهر المختلفة من تحريكها من قبل المصوّر بدقّة كاملة في إتقان هذا التحريك وتطبيقه علىٰ حالة تلك الظواهر، ولكن عدسة العين الواقعة

---

(١) پيام قرآن ٢ : ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) المصدر السابق.

خلف إنسان العين تتحرّك بذاتها وتتغيّر تبعاً لما يناسب وضع الظاهرة التي أُريد إبصارها؛ لأنّها عضو حيّ ويصغر قطرها لحدّ واحد ونصف ميليمتر ويتّسع لحدّ ثمانية ميليمترات لقرب أو بعد الظاهرة التي أُريد إبصارها، وهذه العدسة تعكس النور علىٰ شبكة مؤلّفة من سبع طبقات منفصلة عن بعضها، ولا يبلغ سمك مجموعها ما يزيد علىٰ ورقة رقيقة، وتلك الطبقات هي المعروفة بالصلبية -وهي بياض العين- والعنبيّة والمشيميّة والجلديّة والزلاليّة والزجاجيّة والشبكيّة، ولكلّ واحدة منها بناؤها المتقن الدقيق، وأقل إخلال في أيّ واحدة منها يفسد الإبصار. وآخر طبقات هذه الشبكة تتكوّن من ثلاثين مليوناً من الأعواد وثلاثة ملايين من المخروطات، وقد نظّمت هذه الأعواد والمخروطات تنظيماً محكماً رائعاً إلّا أنّ الأشعّة الضوئية ترتسم عليها بصورة معكوسة، فزوّد جهاز الإبصار وراء تلك الشبكة بملايين من خويطات الأعصاب، وعندها تحدث بعض التغييرات التي يتداركبها ما أشرنا إليه من انعكاس الصورة بشكل مقلوب، وأخيراً يتمّ إدراك الصورة بوضعها الصحيح. وهذا جزءٌ من كلّ في مقام توضيح عمليّة الإبصار، فهل يكون هذا الجهاز الجبّار الذي يضمن عملية الإبصار بأفضل وجه من فعل المادّة علىٰ غير هدى وقصد مع أنّ مجرد كشفه يحتاج إلى جهود فكريّة جبّارة[1]؟!

**الثالث ـ جهاز الهضم :**

قال أُستاذنا الشهيد الصدر ﷺ: «جهاز الهضم أعظم معمل كيميائي في العالم بما يتفنّن به من أساليب تحليل الأغذية المختلفة تحليلاً كيميائياً مدهشاً،

---

(١) پيام قرآن ٢ : ٤٣٧ ، وفلسفتنا : ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، والفتاوى الواضحة : ٣٨ ـ ٣٩.

وتوزيع الموادّ الغذائية الصالحة توزيعاً عادلاً علىٰ بلايين الخلايا الحيّة التي يأتلف منها جسم الإنسان، إذ تتلقّىٰ كلّ خليّة مقدار حاجتها، فيتحول إلى عظام وشعر وأسنان وأظافر وأعصاب طبق خطّة مرسومة للوظائف المفروضة عليها في نظام لم تعرف الإنسانية أدقّ منه وأروع»[١].

**الرابع ـ الخليّة :**

قد كشف العلم الحديث النقاب عن الخليّة، وعن تكوّن جسم الإنسان في المعدّل المتوسّط من عشرة ملايين مليار خليّة حيّة.

وأوّل من كشف الخليّة هو عالم يسمّىٰ هوك في القرن السابع عشر الميلادي، ولم يكن يعرف وقتئذٍ أنّ الخليّة التي اكتشفها تحتوي الواحدة منها علىٰ نظام ملتوٍ معقّد محيّر للعقول، والعلماء الذين جاءوا بعده وحذوا حذوه في كشف أسرار الجسم عرفوا أنّ كلّ خليّة لا ترىٰ بغير المجهر ممكن تشبيهها ببلد يحتوي علىٰ آلاف المعامل والتأسيسات لتبديل الموادّ الغذائية إلى الموادّ التي يحتاجها الجسم، ولا يمكن أن يقاس أعظم وأحدث المصانع البشرية بهذا المصنع.

وهذا البلد الصغير حجماً، العظيم نظماً ـ الخليّة ـ مؤلّف من ثلاثة أقسام:

الأوّل : القشر وهو بمنزلة جدار البلد.

الثاني : مادّة بيضاء داخل الخليّة.

الثالث : نواتها التي تنظّم كلّ أوضاع الخليّة.

وقشر الخليّة يبلغ من الدقّة والرقّة ما لو ضوعف حجمه خمس مئة ألف مرّة

---

(١) فلسفتنا : ٣٤٢.

لا يزيد حجمه عن ورقة اعتيادية، وهذه القشرة الرقيقة الدقيقة تـقاوم هـجوم العوامل الخارجية المزاحمة وكأنّها أحكم من جدار برلين.

وهذا السدّ الخفيف مؤلّف من ثلاثة جدران، أو قل: من قشور ثلاثة، ففي كلّ من طرفيه شبكة من البروتين، وما تحتها مملوء بمادّة دهنية تمنع عن ورود أيّ وارد إلى هذا البلد إلّا الذي يحمل كلمة السّر، وهي أن يقدر ذاك الوارد علىٰ تذويب تلك المادّة فذلك آية أنّه صديق وليس عدوّا فيسمح له بالدخول.

وفي داخل هذا البلد قنوات تبدأ من الجدار وتـنتهي إلى أطـراف النـواة، تجري فيها الموادّ الغذائية وتتحوّل إلى بروتينات، ويدخل في هـذه القـنوات ثلاثة وعشرون نوعاً من الأسيد ويتحصّل البروتين من تركيب عدد من تـلك الأنواع.

أمّا النواة المركزية لهذه الخليّة فهي مؤلّفة من طبقات لو قيست إليها ناطحات السحاب في العالم المكوّنة من آلاف الطبقات لعدّت تلك القصور بيوتاً محقّرة.

وتلك النواة مؤلّفة من غشاء وماء وخيوط دقيقة لكلّ واحد مـنها تكـليف معيّن يقوم به.

وهذه النواة مشتملة علىٰ جينات تصل في عددها إلى خمسة وعشرين ألفاً، وهي المسيطرة علىٰ أعمال الخليّة وعلىٰ أعـمال البـدن أجـمع، ومـنها تـنقل الصفات الوراثية إلى النسل.

وكلّ واحد من هذه الجينات مؤلّف من ثلاثين ألفاً إلى خمسين ألف طبقة، والعظمة لله الواحد القهّار[(١)].

أتـــزعم أنّك جـرم صـغير ... وفيك انطوىٰ العالم الأكبر

---

(١) پيام قرآن ٢ : ٦٩ ـ ٧١.

دواؤك فـيك ومـا تشـعر　　　وداؤك مـنك ومـا تُـبصر
وأنت الكتاب المبين الذي　　　بأحـرفه يـظهر المـضمر

وأختم الحديث عن الخلايا بكلمة أُستاذنا الشهيد ﷺ إذ قال: «ونظرة واحدة إلى تلك الخلايا الحيّة التي تنطوي علىٰ سرّ الحياة تملأ النفس دهشةً وإعجاباً بالخليّة حين تتكيّف بمقتضيات موضعها وظروفها، فكأنّ كلّ خليّة تعرف هندسة العضو الذي تتوفّر علىٰ إيجاده مع سائر الخلايا المشتركة معها في ذلك العضو، وتدرك وظيفته وكيف يجب أن يكون»[١].

**الخامس ـ اللسان:**

من الوظائف المحيّرة للسان ما يلي:

١ ـ إرسال الغذاء تحت الأسنان؛ ولولا ذلك لكان بعض أجزاء اللقمة منفلتاً عن مضغ الأسنان، ولكنّا بحاجة إلى تحريك أجزاء اللقمة في الفم بواسطة الإصبع كي تصل تحت الأسنان، ولكن اللسان يتكفّل هذه المهمّة بمهارة كاملة من دون أن يقع هو تحت ضربات الأسنان، وقد يتفق نادراً بسبب غفلة الإنسان أن يقع اللسان تحت الأسنان وينجرح بضغط الأسنان، ولعل الله يريد بذلك أن تتضح لنا عظمة مهارة اللسان التي لولاها لاستفحلت مصيبة اللسان تحت ضغط الأسنان.

٢ ـ خلط اللقمة ببزاق الفم المؤثّر في سهولة بلع الغذاء من ناحية، والمولّد لفعل كيماويّ مساعد علىٰ الهضم من ناحية أُخرىٰ.

٣ ـ الاستعانة به في بلع الغذاء بل والماء، ولولا اللسان لتعسّر أو تعذّر بلع

---

(١) فلسفتنا: ٣٤٢.

لقمة واحدة.

٤ ـ تذوّق الطعام لتشخيص كثير من الأغذية الفاسدة أو المضرّة كي يمتنع الإنسان عن أكلها.

٥ ـ تنظيف الفم بعد الانتهاء من الأكل.

٦ ـ التكلّم، وهو يتمّ بالتعاون بين المخّ والشفة واللسان والحنجرة.

وقد اعتبره الله تعالىٰ آية من آياته الباهرة في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(١).

فالفكر يختار أوّلاً من بين مئات الآلاف أو الأكثر من الكلمات أوّل كلمة يريد الشخص أن يلفظها، فيأمر اللسان أن يتحرّك بكلّ سرعة ودقّة علىٰ مخارج حروف تلك الكلمة، ثُمّ يختار بالسرعة نفسها الكلمة الثانية ويعيد العملية بواسطة اللسان، وهكذا إلى أن تنتهي الجملة المقصودة وبمعونة الشفة والحنجرة وأوتار الصوت، وحينما يقع صدفة أقلّ خطأ للفكر في اختيار الكلمات أو اللسان في طريقة التحرك تخرج الجملة ملحونة.

**السادس ـ المخّ :**

لا أستطيع أن أتحدّث عن عظمة المخّ وعن أقسامه المرتبطة بالفكر والإدراك والذاكرة والإرادة والعواطف، ثُمّ تأشيره اللازم علىٰ أعصاب البدن كافّة بوظائفها الخاصة حتّىٰ إنّ الخلل في بعض أجزائه يوجب الشلل في قسم من الأعصاب، والعظمة لله الواحد القهّار.

ولكنّي أكتفي بالقول بأنّ مِن أبدع ما صنعه البشر، وكان صنعه هذا بواسطة

---

(١) س ٥٥ الرحمن، الآية: ١ ـ ٤.

مخّه الجبّار الذي آتاه الله إياه، هو ما يسمّىٰ بالعقل الالكتروني والذي يفترض عملاً جبّاراً وهو يفقد الإرادة والعواطف وإدارة الأعصاب، كما أنّه ليس له الإدراك ولا الذاكرة إلّا ما يكون شبيهاً بهذا أو بذاك ممّا يكون مؤشّراً إعدادياً لإدراك الناس أو تذكّرهم للأمور بمخّهم الذي أكرمهم الله تعالىٰ به.

وقد روي عن مصمّم العقل الالكتروني كلودم هزاوي قوله: «طُلب منّي قبل عدّة سنوات القيام بتصميم آلة حاسبة كهربائيّة تستطيع أن تحلّ الفرضيات والمعادلات المعقّدة ذات البعدين، واستفدت لهذا الغرض من مئات الأدوات واللوازم الالكتروميكانيكيّة، وكان نتاج عملي وسعيي هذا هو العقل الالكتروني، وبعد سنوات متمادية صرفتها لإنجاز هذا العمل وتحمّل شتّى المصاعب، وأنا أسعى لصنع جهاز صغير، يصعب عليّ أن أتقبّل هذه الفكرة وهي: أنّ الجهاز هذا يمكن أن يوجد من تلقاء نفسه دون حاجة إلى مصمّم...»[1].

فلئن كان العقل الالكتروني الذي ليس في مقابل المخّ إلّا كجهاز من أجهزة لعب الأطفال لا يمكن أن يوجد من تلقاء نفسه فما رأيك في المخّ الذي أبدعه الله تعالىٰ بهذا الإبداع الرائع؟! ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[2].

**السابع ـ الجنين:**

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً**

---

(١) الإلهيّات ١ : ٤١.

(٢) س ٣١ لقمان، الآية: ١١.

**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**[١].

ورد في توحيد المفضّل: «قال المفضّل: فقلت: صف نشوء الأبدان ونموّها حالاً بعد حال حتّىٰ تبلغ التمام والكمال. فقال عليه‌السلام: أوّل ذلك تصوير الجنين في الرحم حيث لا تراه عين ولا تناله يد، ويدبّره حتّىٰ يخرج سويّاً مستوفياً جميع ما فيه قوامه وصلاحه من الأحشاء والجوارح والعوامل إلى ما في تركيب أعضائه: من العظام واللحم والشحم والمخّ والعصب والعروق والغضاريف...»[٢].

سبحان الذي كشف الغطاء قبل أربعة عشر قرناً عن المراحل الهامّة للجنين حينما لم يكن يمكن للعلم امتلاك الوسائل التي تكشف عن وضع الجنين الذي يعيش في ظلمات ثلاث[٣]: البطن والرحم والمشيمة، ثُمّ اكتشف العلم ذلك بوسائله بعد حين، فكانت نفس المراحل وهي: النطفة ـ وهذه كانت معلومة بالحسّ منذ البدء ـ ثُمّ العلقة بمعنى تبدّل النطفة إلى دم منجمد، ثُمّ المضغة بمعنى قطعة لحم بمقدار تمضغ، ثُمّ العظام بمعنى تبدّل تلك القطعة بالعظام، ثُمّ إلباس العظام اللحم، فسبحان الذي أخبر قبل ولادة العلم عن أنّ خلق العظام في الجنين يكون قبل اللحم ثُمّ يكسوه اللحم، ومن كان يعلم أنّه هل يخلق اللحم أوّلاً ثُمّ يخلق في وسطه العظام، أو هل يتحوّل لحم المضغة إلى العظام ثُمّ تكسىٰ العظام لحماً؟!

وأمّا المرحلة الأخيرة للجنين ـ وهي مرحلة نفخ الروح ـ فقد عبّر عنها

---

(١) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٢ ـ ١٤.

(٢) البحار ٣ : ٦٨ ، الباب ٤ من كتاب التوحيد.

(٣) إشارة إلى الآية ٦ من سورة ٣٩ الزمر.

القرآن بتعبير متميّز عن باقي المراحل فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾. وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير إنشائه خلقاً آخر بنفخ الروح فيه[١]. وطبعاً المقصود بذلك نفخ الروح الإنسانية، فلا ينافي ذلك ما لا يشكّ فيه العلم من حياة الجنين من أوّل يومه حياة أشبه بالحياة النباتية، فترى الجنين يمتلك في مرحلة معيّنة من الحسّ والحركة ما لم يكن يمتلكهما من قبل. ويحكم الفقه علىٰ من قتله بالدية الكاملة بينما لم يكن يحكم بذلك من قبل. ثُمّ عبّر القرآن لتبجيل هذا الخلق في هذه المرحلة الجديدة وتبريكه بتعبير لم يعبّر عنه في أيّ خلق آخر وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وحتّىٰ خلق السماوات والأرض الذي وصفه الله تعالىٰ بأنّه أكبر من خلق الناس[٢] لم يبارك له الله بتعبير كهذا.

نزرٌ يسير من آيات الحكمة في الجنين :

١ ـ مقرّ الجنين :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[٣].

أيّ قرار أمكن له وأحفظ من الصدمات ممّا وقع بين سلسلة الفقرات والأضلاع والخاصرتين وعظام الظهر وعضلات البطن من ناحية وجعل في مشيمة مليئة بماء لزج من ناحية اُخرىٰ، فيعلّق في هذا الماء الذي يأخذ عنه ثقله فيأمن من الضغوط التي قد تتجه إلى بدن الاُم أو بطنها، فلا تؤثّر فيه علىٰ رغم من نعومته ودقّته، وأيضاً يحفظ له هذا الماء وهذه المشيمة ضمن درجة حرارة في مستوى معتدل أمام الحرارة أو البرودة التي قد يتعرّض لها جسم الاُم

---

(١) راجع پيام قرآن ٢ : ٧٧ نقلاً عن تفسير نور الثقلين ٣ : ٥٤١ ، الحديث ٥٦ و٥٧.

(٢) إشارة إلى الآية: ٥٧ من سورة (٤٠) غافر.

(٣) س ٢٣ المؤمنون الآية: ١٣.

فجأة؟!

٢ ـ تغذية الجنين :

الجنين بحاجة إلى الغذاء والماء ومعدته بعدُ لم تتهيّأ للعمل، وبحاجة إلى الأُوكسجين ورئتاه لم تتهيّأ بعدُ للتنفس، فيصله الطعام والماء بواسطة العروق والأوردة التي تأخذهما له بعد التصفية من قلب الأُمّ من ناحية، وبواسطة الحبل المتصل بصرّته من ناحية أُخرىٰ، ويصله الأُوكسجين بعد تصفية الهواء الذي تتنفّسه الأُمّ عن طريق جريان الدم في جسمها.

٣ ـ ولادة الجنين :

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[(١)].

من الذي علّم الطفل حين الولادة أن ينقلب علىٰ رأسه بالرغم من أنّه حين استقراره في الرحم تكون رجلاه هما اللتين تليان باب الخروج؟ أفهل كان يعلم صعوبة بدء الخروج من جهة الرجلين؟! ومن الذي يجعل كلّ عضلات الأُم تضغط بشدّة علىٰ الجنين لإخراجه؟! ومن الذي يرطّب ويليّن عضلات الباب قبيل الخروج؟!

العبرة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)].

سبحان القادر الحليم الذي يخلق الإنسان من أقذر شيء وهي النطفة، ثُمّ إذا قوي بقدرة الله تعالىٰ وإفاضته المستمرّة أصبح خصيماً لله عزّ وجلّ ومنازعاً له ومخالفاً لأوامره ونواهيه، وما ألأم هذا الإنسان!

---

(١) س ٤٠ غافر، الآية: ٦٧.

(٢) س ٣٦ يس، الآية: ٧٧.

ولنعم ما قالته الشاعرة الفارسية:

(٢١) كشتیای زآسیب موجی هولناك ... رفت وقتی سوی غرقاب هلاك
(٢٢) تند بادی كرد سیرش را تباه ... روزگار اهل كشتی شد سیاه
(٢٥) بندها را تار وپود از هم گسیخت ... موج از هر جا كه راهی یافت ریخت
(٢٦) هر چه بود از مال ومردم آب برد ... زان گروه رفته طفلی ماند خرد
(٢٧) طفل مسكین چون كبوتر پر گرفت ... بحر را چون دامن مادر گرفت
(٢٨) موجش اوّل وهله چون طومار كرد ... تندباد اندیشهٔ پیكار كرد
(٢٩) بحر را گفتم دگر طوفان مكن ... این بنای شوق را ویران مكن
(٣٠) در میان مستمندان فرق نیست ... این غریق خُرد بهر غرق نیست
(٣١) صخره را گفتم مكن با او ستیز ... قطره را گفتم بدان جانب مریز
(٣٢) اَمر دادم باد را كان شیر خوار ... گیرد از دریا گذارد در كنار
(٣٣) سنگ را گفتم بزیرش نرم شو ... برف را گفتم كه آب گرم شو
(٣٤) صبح را گفتم برویش خنده كن ... نور را گفتم دلش را زنده كن
(٣٥) لاله را گفتم كه نزدیكش بروی ... ژاله را گفتم كه رخسارش بشوی
(٣٦) خار را گفتم كه خلخالش مكن ... مار را گفتم كه طفلك را مزن
(٣٧) رنج را گفتم كه صبرش اندك است ... اَشك را گفتم مكاهش كودك است
(٣٨) گرگ را گفتم تَنِ خردش مَدَر ... دزد را گفتم گلو بندش مبر
(٣٩) بخت را گفتم جهانداریش ده ... هوش را گفتم كه هشیاریش ده
(٤٠) تیرگیها را نمودم روشنی ... ترسها را جمله كردم ایمنی
(٥٢) وا رهاندیم آن غریق بی نوا ... تا رهید از مرگ شد صید هوا
(٥٣) آخر آن نور تجلّی دود شد ... آن یتیم بی گنه نمرود شد[1]

تفترض هذه الشاعرة أنّ قصّة «نمرود» هذا الخصيم المبين الذي حُفظ من

---

(١) ديوان «پروين اعتصامي»، القصيدة: ١٨٢.

الغرق حين طفولته ونعومة أظفاره قد اُلقيت بالوحي أو الإلهام إلى اُمّ موسى بن عمران عليه السلام حين ألقت ابنها في البحر بأمر من الله تعالىٰ كما ورد في القرآن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * ... وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فكأنّ الربط علىٰ قلبها كان بإيحاء قصة نمرود إليها حينما تشوّشت علىٰ ولدها فقد قالت الشاعرة:

| | |
|---|---|
| (٥) وحى آمد كاين چه فكر باطل است | رهرو ما اينك اندر منزل است |
| (٦) پردهٔ شك را بر انداز از ميان | تا ببينى سود كردى يا زيان |
| (٧) ما گرفتيم آنچه را انداختى | دست حقّ را ديدى ونشناختى |
| (٦١) ما كه دشمن را چنين ميپروريم | دوستان را از نظر چون ميبريم |
| (٦٢) آنكه با نمرود اين احسان كند | ظلم كى با موسى عمران كند[2] |

ويناسب البيتين الأخيرين بيتان رائعان فارسيان للشاعر المعروف سعدى:

| | |
|---|---|
| اى كريمى كه از خزانهٔ غيب | گبر وترسا وظيفه خور دارى |
| دوستان را كجا كنى محروم | تو كه با دشمنان نظر دارى |

**الثامن ـ السماوات والأرض:**

**﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[3].

---

(١) س ٢٨ القصص، الآية: ٧ والآية: ١٠.

(٢) ديوان «پروين اعتصامي»، القصيدة ١٨٢.

(٣) س ٤٠ غافر، الآية: ٥٧.

إشارات مختصرة:

١ ـ سعة السماوات:

قالوا[١]: إنّ منظومتنا الشمسيّة تتعلّق بمجرّتنا المشتملة على مئة مليار من الكواكب، وشمسنا تعتبر من الكواكب المتوسطة الحجم علماً بأنّ الشمس أكبر من الأرض بمليون مرّة على الأقل، وأنّ مجرّتنا واحدة ـ على الأقل ـ من مليار مجرّة، هذا في حدود ما اكتشف حتّى زمان قريب، والله أعلم بما سيكتشف مستقبلاً أو ما يبقى مجهولاً للبشرية إلى الأبد.

٢ ـ ﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[٢].

يبدو أنّ هذه الآية الشريفة تحدّثنا من قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً عن توسيع السماء المحيطة بنا، أو قل: عن توسيع العالم، واليوم أي بعد أربعة عشر قرناً يقول العلماء: إنّ فضاء العالم الذي يضم مليارات من المجرّات هو في حالة توسع وانبساط سريع[٣].

٣ ـ أعمدة السماء:

﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٤].

تنبئنا هذه الآية عن أعمدة غير مرئية رفعت السماوات عليها، وكأنّ المقصود بذلك ـ في حدود اكتشافات القرن الرابع عشر من بعد نزول الآية ـ هو التعادل بين القوّتين الجاذبة والدافعة.

---

(١) راجع پيام قرآن ٢ : ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) س ٥١ الذاريات، الآية: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) راجع پيام قرآن ٢ : ١٧٠.

(٤) س ١٣ الرعد، الآية: ٢.

والغفلة عن كلمة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أوجبت توهّم أحد الرواة ـ وهو الحسين بن خالد ـ بأنّ هذه الآية تنفي الأعمدة نفياً تامّاً، فلا يبقى ارتباط أو تشابك بين السماء والأرض، ومن هنا نرىٰ أنّه حينما سأل الرضاعليه‌السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُك﴾[1] فقال له الإمامعليه‌السلام: «هي محبوكة إلى الأرض» وشبك بين أصابعه، قال له: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: (رفع السماء بغير عمد ترونها)؟ فقالعليه‌السلام: «سبحان الله! أليس الله يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؟» قال: بلى، فقالعليه‌السلام: «ثَمّ عمد ولكن لا ترونها...»[2].

ولعل المقصود بعمود من نور في الحديث الآتي أيضاً هو تعادل القوّتين الجاذبة والدافعة، والحديث هو صحيحة ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبداللهعليه‌السلام قال: «قال أمير المؤمنينعليه‌السلام: هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مئتين وخمسين سنة»[3].

٤ ـ السقف المحفوظ :

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُون﴾[4].

جاء في كتاب پيام قرآن[5]: يحتمل أن تكون السماء هنا إشارة إلى كرة الهواء المطوّقة للأرض والبالغ حجمها مئات الكيلومترات، وهي تمنع عن نفوذ الأشعّة المهلكة من ناحية، وعن اصطدام الأحجار السماويّة بالأرض من ناحية أُخرىٰ، فإنّها تقلل سرعة تلك الأحجار من جهة، وتؤدّي إلى احتراقها باحتكاكها بالكرة الهوائية من جهة أُخرىٰ، ثُمّ ينقل عن لسان أحد العلماء

---

(١) س ٥١ الذاريات، الآية: ٧.

(٢) تفسير القمّي ٢ : ٣٢٨.

(٣) البحار ٥٨ : ٩١.

(٤) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٣٢.

(٥) پيام قرآن ٣ : ١٧١ ـ ١٧٢.

المكتشفين باسم فرانك آلن أنّ جوّاً مملوءاً بالغازات الحافظة محيط بالأرض يقرب حجمه من ثمان مئة كيلومتر، وهو كالدرع الواقي لها من بلاء عشرين مليون من الأحجار السماويّة التي تهبط بسرعة خمسين كيلومتراً في الثانية.

ثُمّ يقول: صحيحٌ أنّ بعض الشهب النازلة من السماء خفيفة يصل وزنها إلى جزء واحد من ألف جزء من الغرام، ولكن الطاقة التي تتولّد من سرعة نزولها تساوي طاقة انفجار نووي ذرّي، وقد يتّفق أن يكون بعض الشهب ثقيلاً فيخرق الغلاف الجوي ويُضرم الحرائق في الأرض، وكأنّه تنبيه للبشريّة علىٰ أنّه لولا هذا الغلاف الواقي ماذا سيحلّ بكم؟!

٥ ـ ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾[١].

نحن علىٰ العموم غير مطّلعين علىٰ الأمر الذي أوحى به الله في كلّ سماء، ولكنّنانعلم بشيء واحد وهو دقّة النظم الحاكم علىٰ السماء كدقّة النظم الحاكم علىٰ الأرض، وعلىٰ سبيل المثال ورد في پيام قرآن[٢] ما يلي:

أ ـ أرسل الإنسان سفينة فضائيّة إلى القمر وأنزلها علىٰ نقطة معيّنة منه ثُمّ أرجعها إلى الأرض، ولا شك أنّ الأرض كانت تدور حول نفسها خلال أيّام هذا السفر، وكان يتغيّر مكانها حول الشمس، وكان القمر أيضاً يدور حول نفسه ويدور أيضاً حول الأرض، فهل يمكن تضمين نزول السفينة علىٰ النقطة المقصودة في القمر، ثُمّ إرجاعها إلى النقطة المقصودة في الأرض لولا دقّة هذه الحركات جميعاً ونظمها حتّىٰ يمكن حسابها دقيقاً بالعقول الالكترونية؟! ولو كان يتخلّف شيء من هذه الحركات عن النظم في ثانية من الوقت لاختلطت المحاسبات ولعقمت التجربة.

ب ـ الفلكيّون يتنبّؤون بحوادث الخسوف والكسوف لمدّة عشرات السنين

---

(١) س ٤١ فصّلت، الآية: ١٢.
(٢) پيام قرآن ٢ : ١٧٧ ـ ١٧٨.

المستقبلية، ويتنبّؤون بمقادير ساعات الليل والنهار وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، فهل كان ذلك بالإمكان لولا النظم الدقيق في حركات هذه الكواكب؟!

ج ـ لولا تعادل قوّتي الجذب والدفع لجميع الكواكب السيّارة لتضاربت أو تناثرت، ونحن نعلم أنّ قوّة الجذب متناسبة طردياً لأجرام الموجودات وعكسياً لمجذور الفاصل بينها، إذن لابدّ من حفظ النظم الدقيق في مقادير الأجرام وفي الفواصل بينها وسرعة حركتها وبطئها، وهل يمكن ذلك كله من دون دخل علم لا متناهٍ وإدراكٍ بالغ؟!

**العبرة :**

**﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾**[١].

انظر في هذه الآيات كيف ربطت بين ملاحظة آيات الله في السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والذي كان هو دليلنا علىٰ وجود الله، وبين الاعتبار الروحي بهذه الآيات المذكّرة بالله والنافية لاحتمال خلقها خلقاً باطلاً من دون حساب أو كتاب لمن خُلقت له هذه الآيات ألا وهو الإنسان.

وقد روي عن ابن عمر أنّه قال: «قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية ١٩٠ ـ ١٩٤.

من رسول الله ﷺ فبكت وأطالت ثُمّ قالت: كلّ أمره عجب، أتـاني فـي ليـلتي فدخل في لحافي حتّىٰ ألصق جلده بجلدي ثُمّ قال لي: يا عائشة، هـل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربّي؟ فقلت: يا رسول الله، إنّي لأُحبّ قـربك وأُحبّ مرادك قد أذنت لك، فقام إلى قربةٍ من ماء في البيت فتوضّأ ولم يكثر من صبّ الماء، ثُمّ قام يصلّي فقرأ من القرآن وجعل يبكي، ثُمّ رفع يديه فـجعل يـبكي حتّىٰ رأيت دموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي، فقال له: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟! فقال: يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً؟! ثُمّ قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض** ...﴾، ثُمّ قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها». وروي «ويل لمن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّل فيها»[1].

وقال الشيخ الطبرسي ﵀ في مجمع البيان: «ورد عن الأئمّة من آل محمّد ﵈ الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة وفي الضجعة وبعد ركعتي الفجر»[2].

وقد روى الشيخ الطوسي ﵀ بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: «سمعت أبا عبدالله ﵇ يقول ـ وذكر صلاة النبيّ ﷺ ـ: كان يؤتى بطهور فيخمّر عند رأسه ويوضع سواكه تحت فراشه ثُمّ ينام ماشاء الله، فإذا استيقظ جلس ثُمّ قلّب بصره في السماء، ثُمّ تلا الآيات من آل عمران: ﴿**إِنَّ فِـي خَـلْقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار** ...﴾، ثُمّ يستنّ ويتطهّر ثُمّ يقوم إلى المسجد فيركع أربع ركعات علىٰ قدر قراءته ركوعه، وسجوده علىٰ قدر ركوعه، يركع حتّىٰ يـقال: متى يرفع رأسه؟ ويسجد حتّىٰ يقال: متى يرفع رأسه؟ ثُمّ يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله، ثُمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، ويقلّب بصره فـي

---

(١) تفسير فخر الرازي ٩: ١٣٣ ـ ١٣٤. (٢) مجمع البيان، في ذيل هذه الآيات.

السماء، ثُمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد فيصلّي أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثُمّ يعود إلى فراشه فينام ماشاء الله، ثُمّ يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران ويقلّب بصره في السماء، ثُمّ يستنّ ويتطهّر ويقوم إلى المسجد فيوتر ويصلّي الركعتين، ثُمّ يخرج إلى الصلاة»[(١)].

وروى حبّة العرني قال: «بينا أنا ونوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنينعليه السلام في بقيّة من الليل واضعاً يده علىٰ الحائط شبه الواله وهو يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض ...﴾. قال: ثُمّ جعل يقرأ هذه الآيات ويمرّ شبه الطائر عقله، فقال: أراقد يا حبّة أم رامق؟ قلت: رامق، هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى ثُمّ قال لي: يا حبّة، إنّ لله موقفاً ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شيء من أعمالنا، يا حبّة، إنّ الله أقرب إليك وإليّ من حبل الوريد، يا حبّة، إنّه لن يحجبني ولا إيّاك عن الله شيء. قال: ثُمّ قال: أراقد أنت يا نوف؟ قال: لا يا أمير المؤمنين ما أنا براقد ولقد أطلت بكائي هذه الليلة. فقال: يا نوف، إن طال بكاؤك في هذا الليل مخافة من الله عزّوجل قرّت عيناك غداً بين يدي الله عزّوجلّ، يا نوف، إنّه ليس من قطرة قطرت من عين رجل من خشية الله إلّا أطفأت بحاراً من النيران، يا نوف، إنّه ليس من رجل أعظم منزلة عند الله من رجل بكى من خشية الله وأحبّ في الله وأبغض في الله، يا نوف، من أحبّ في الله لم يستأثر علىٰ محبّته، ومن أبغض في الله لم ينل مبغضيه خيراً، عند ذلك استكملتم حقائق الإيمان. ثُمّ وعظهما وذكّرهما وقال في أواخره: فكونوا من الله علىٰ حذر فقد أنذرتكما، ثُمّ جعل يمرّ وهو يقول: ليت شعري في غفلاتي أمعرض أنت عنّي أم ناظر إليّ؟ وليت شعري في طول منامي وقلّة شكري في

---

(١) تهذيب الأحكام ٢ : ٣٣٤، الباب ١٥ من كتاب الصلاة، الحديث ٢٣٣.

نعمك عليّ ما حالي؟ قال: فوالله ما زال في هذا الحال حتّىٰ طلع الفجر»[١].

أختم حديثي عن آيات الله سبحانه وتعالىٰ بالكلمة المرويّة عن الإمام الرضاعليه السلام: «إنّي لمّا نظرت إلى جسدي فلم يُمكنّي زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه علمت أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات علمت أنّ لهذا مقدِّراً ومُنشئاً»[٢].

وهنا أترك الحديث عن آيات الله ودلائل قصده وحكمته علماً بأنّ هذا البحث لو مُدّد إلى يوم القيامة لما بلغ منتهاه:

**﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾**[٣]، **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[٤].

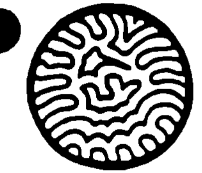
---

(١) فلاح السائل: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

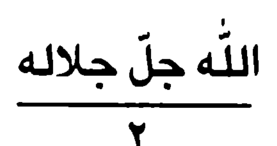
(٢) عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ١٣٢، الباب ١١ ما جاء عن الرضاعليه السلام من الأخبار في التوحيد، الحديث ٢٨.

(٣) س ١٨ الكهف، الآية: ١٠٩.

(٤) س ٣١ لقمان، الآية: ٢٧.



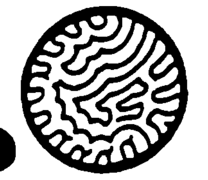




# التوحيد

- ○ التمهيد.
- ○ فطرية الإيمان بالتوحيد.
- ○ أغصان التوحيد.
- ○ أدلّة التوحيد.





# التمهيد

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾.

كرّرت هذه الآية الشريفة في القرآن مرّتين في سورة النساء مرّة في الآية (٤٨) وذيّلت بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾، ومرّة أُخرىٰ في الآية (١١٦) وذيّلت بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾.

والآيتان تعنيان أنّ الشرك أعظم ذنب يمكن أن يصدر من البشر، وهذا يعني أنّ الشرك لا يقلّ عن أصل إنكار الله تبارك وتعالىٰ، فمن يؤمن بالله ويشرك به غيره يكون علىٰ حدّ من لا يؤمن نهائياً بالله تعالىٰ.

وقد يكون السبب في ذلك أنّ افتراض قبول الله تعالىٰ للشريك يعني أنّ له حدّاً؛ لأنّ ما لا حدّ له لا يتصوّر له شريك، وإذا أصبح محدوداً لم يصبح كاملاً، فلا تثبت له صفات الجلال ولا صفات الجمال، وهذا يعني في الحقيقة عدم الإيمان بالله، فإنّ «كلّ ما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم»[1].

---

(١) البحار ٦٩ : ٢٩٣.

آنچه پيش تو غير از او ره نيست　　　غايت فهم تو است الله نيست

ولدى عدم الإيمان بوجود كامل مطلق لا سبيل لارتقاء البشرية مراقي الكمال.

وعند عدم الإيمان بوجود إله واحد لا سبيل للنظر الوحداني إلى عالم الوجود كعِقد واحد تنتظم فيه كل المجوهرات ويرتبط بعضها ببعض، وبالتالي لا سبيل إلى الرؤية الفلسفية الصحيحة للعالم، ولا إلى تشخيص موقفنا ووظيفتنا بشكلهما المعقول.

ولقد ثبّت إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام في رواية رواها الصدوق رحمه الله في كتاب التوحيد أنّ محاربته لأعدائه إنّما كانت في الحقيقة لأجل التوحيد، فقد روى رحمه الله: «أنّ أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إنّ الله واحد؟ قال: فحمل الناس عليه، قالوا: يا أعرابيّ، أما ترىٰ ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإنّ الذي يريده الأعرابي هو الذي نريده من القوم، ثُمّ قال: يا أعرابي، إنّ القول في أنّ الله واحد علىٰ أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان علىٰ الله عزّوجلّ، ووجهان يثبتان فيه.

فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد، يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز؛ لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد، أما ترىٰ أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة؟ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا يجوز عليه؛ لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالىٰ.

وأمّا الوجهان اللذان يثبُتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له في الأشياء

شبه كذلك ربّنا، وقول القائل: إنّه عزّ وجلّ أحديّ المعنى، يعني به أنّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم[١] كذلك ربّنا عزّ وجلّ»[٢].

* * *

(١) قيل في تفسيره: أي لا في الخارج كانقسام الإنسان إلى بدن وروح، ولا في عقل كانقسام الماهية إلى أجزائها الحدّية، ولا في وهم كانقسام قطعة خشب إلى النصفين في التصوّر. (راجع كتاب التوحيد : ٨٤ تحت الخط).

وأيضاً قيل: إنّ المقصود بالواحد في باب الأعداد الذي نفاه أمير المؤمنين عليه السلام هو كون الشيء واقعاً تحت مفهوم عام وجد منه مصداق واحد، وذلك مثل مفهوم الشمس القابل للانطباق علىٰ كثيرين، غير أنّه لا يوجد في عالم الحسّ منه إلّا مصداق واحد مع إمكان وجود مصاديق كثيرة له، فهذا هو المصطلح عليه بالواحد العددي. أمّا الوحدة الحقيقيّة فهي عبارة عن كون الموجود لا ثاني له، بمعنى أنّه لا يقبل الاثنينيّة ولا التكثّر ولا التكرّر، وذلك كصِرف الشيء المجرّد عن كلّ خليط، المطلق عن كلّ قيد، فلا يعقل فرض ثانٍ له؛ لأنّ الثاني بحكم نفي القيد، والخلط يكون كالأوّل فلا يتميز ولا يتشخّص حتّىٰ يكون ثانياً، فالكثرة رهن دخول شيء مغاير في حقيقة الشيء، وهذا هو أوّل معنيي الوحدة التي ثبّتها أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه.

وأمّا المعنى الثاني للوحدة المثبَّت أيضاً في كلامه عليه السلام فهو كونه أحديّ الذات، ويهدف إلى كونه بسيطاً لا جزء له في الخارج ولا في الذهن في عقل ولا وهم. (راجع الإلهيّات ١ : ٣٥٦ـ٣٥٨).

(٢) التوحيد : ٨٣ ـ ٨٤.

# فطرية الإيمان بالتوحيد

قد مضى في بحث إثبات الصانع أنّ بعض الآيات القرآنية دلّت علىٰ فطريّة الإيمان بوجود الله، واحتملنا في تفسير الفطرية احتمالين: البداهة والعلم الحضوري، وأوضح تلك الآيات في الدلالة علىٰ فطرية الإيمان بوجود الله ثلاثة:

١ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون﴾[1].

٢ ـ ﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدون﴾[2].

٣ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُون﴾[3].

وهذه الآيات الثلاث كما تدلّ علىٰ فطرية أصل الإيمان بالله كذلك تدلّ علىٰ فطرية الإيمان بالتوحيد:

أمّا الآيتان الأُوليان فلأنّهما تدلّان علىٰ فطرية الدين، ومن الواضح أنّ أساس الدين هو التوحيد.

وأمّا الآية الثالثة فلتصريحها بقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ...﴾.

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ٣٠. (٢) س ٢ البقرة، الآية: ١٣٨.

(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ١٧٢ ـ ١٧٣.

وأمّا بناءً علىٰ جعل الآيات التي تذكر التجاء البشر لدى الاضطرار إلى الله سبحانه دليلاً علىٰ فطرية الإيمان بالله فكثير منها صريحة في الالتفات إلى مسألة التوحيد والشرك أيضاً كقوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(١).

٢ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(٢).

٣ ـ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٣).

٤ ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾(٤).

٥ ـ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٥).

بل وجميع آيات التجاء البشر لدى الاضطرار إلى الله سبحانه حتّىٰ التي ليس فيها التصريح بالتوحيد ترمز إلى التوحيد؛ لوضوح: أنّ الذي يلجأ إليه البشر لدى الاضطرار ليس إلّا إلهاً واحداً، فيدخل في هذا المضمار مثل

---

(١) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) س ٣٠ الروم، الآية: ٣٣.

(٣) س ٦ الأنعام، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) س ١٦ النحل، الآية: ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) س ٦ الأنعام، الآية: ٦٣ ـ ٦٤.

قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[١].

٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢].

٣ ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[٣].

٤ ـ ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤].

* * *

(١) س ٣١ لقمان، الآية: ٣١ ـ ٣٢.
(٢) س ١٠ يونس، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.
(٣) س ٣٩ الزمر، الآية: ٤٩.
(٤) س ١٠ يونس، الآية: ١٢.

# أغصان التوحيد

يذكر للتوحيد عادة أغصان أربعة:

## الأوّل : التوحيد في الذّات

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[١].

ومعنى هذا التوحيد علىٰ الإجمال أنّه في ذاته واحد لا شبيه له ولا نظير.

## الثاني : التوحيد في الصفات

ومعناه علىٰ الإجمال أنّ صفات ذاته عين ذاته لا ثنائيّة بينها وبين ذاته ولا في ما بين نفس الصفات، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله»[٢].

---

(١) س ١١٢ التوحيد، الآية: ١ ـ ٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة الأُولىٰ.

## الثالث : التوحيد في العبادة

ومعناه علىٰ الإجمال أنّه لا تجوز عبادة أحد سواه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وقال عزّ وجّل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[2].

## الرابع : التوحيد في الأفعال

ومعناه علىٰ الإجمال أنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، وهذا لا ينافي ترتّب المسببات علىٰ الأسباب كالإحراق علىٰ النار، أو القتل علىٰ السيف، أو الزرع علىٰ البذر والمطر، أو ما إلى ذلك، كما لا ينافي اختيارية الإنسان، وكذلك لا ينافي التوسل بالمعصومين والأولياء عليهم السلام.

أمّا عدم منافاته لترتّب المسببات علىٰ الأسباب فلأنّ ذلك أيضاً بمشيئة الله ومسبّب الأسباب هو الله، وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أبى الله أن يجري الأشياء إلّا بأسباب فجعل لكلّ شيء سبباً، وجعل لكلّ سبب شرحاً، وجعل لكلّ شرح علماً، وجعل لكلّ علمٍ باباً ناطقاً عرفه من عرفه وجهله من جهله، ذاك

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٣١.

(٢) س ٩٨ البيّنة، الآية: ٥.

رسول الله ﷺ ونحن»[1].

وأمّا عدم منافاته لاختيار الإنسان فهو علىٰ أساس الفكرة التي طرحها أئمّتنا عليهم السلام من مسألة الأمر بين الأمرين.

وأمّا عدم منافاته للتوسّل بالمعصومين والأولياء عليهم السلام فلأنّ تأثيرهم لا يكون إلّا بإذن الله سبحانه وتعالىٰ، وليس لهم باستقلالهم شيء. قال الله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾**[2].

## أغصان التوحيد في الأفعال:

ويذكر للتوحيد في الأفعال أغصان كثيرة لعلّ أهمّها ما يلي:

الأوّل: التوحيد في الخلق، قال الله تعالىٰ: **﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾**[3].

الثاني: التوحيد في الربوبيّة، قال الله تعالىٰ: **﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ**

---

(١) الكافي ١: ١٨٣، باب معرفة الإمام والردّ اليه من كتاب الحجة، الحديث ٧.

ولهذا المفهوم من سببيّة الأسباب ـ ضمن أنّها جميعاً بقبضة الله تعالىٰ الذي هو مسبّب الأسباب ـ تأثير كبير في مسار تربية الإنسانية؛ حيث يمنع الإنسان من ناحية عن الترهبن أو ترك الأسباب أو ترك الاستعانة بالوسائل الماديّة في تحصيل الأغراض والحاجات، ومن ناحية أُخرىٰ من اللهث وراء الأسباب أكثر من القدر المعقول، أو الاضطراب من جرّاء عدم توفّر الأسباب علىٰ الرغم من السعي المتوسّط غير المُضني وراءها، أو النقص في التوكّل علىٰ الله، أو فقد النفس المطمئنّة بالله سبحانه وتعالىٰ.

(٢) س ٥ المائدة، الآية: ١١٠.　　　(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ٥٤.

كُلِّ شَيْءٍ﴾[١]. وقال عزّ وجلّ ـ عن لسان يوسف ﷺ ـ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢].

وعبدة الأصنام يكون شركهم بالله تعالىٰ عادةً في الربوبية كما دلّت عليه هذه الآية، وفي العبادة كما دلّ عليه قوله تعالىٰ ـ عن لسان عبدة الأصنام ـ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٣].

ولم يكن شرك عبدة الأصنام في الخلق مثلاً ولهذا قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٤]، ولا في التوحيد الذاتي لقوله تعالىٰ ـ عن لسان يوسف ﷺ ـ: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٥]، فتراه استدلّ علىٰ التوحيد في الربوبيّة بالتوحيد الذاتي، ولولا أنّ التوحيد الذاتي كان مسلّماً لدى صاحبي سجنه لكان هذا الاستدلال مصادرة علىٰ المطلوب.

الثالث: التوحيد في المالكيّة والحاكمية التكوينيّة، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٦].

الرابع: التوحيد في التشريع، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٧].

الخامس: التوحيد في الأُلوهية والطاعة، قال الله تعالىٰ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[٨].

---

(١) س ٦ الأنعام، الآية: ١٦٤. (٢) س ١٢ يوسف، الآية: ٣٩.

(٣) س ٣٩ الزمر، الآية: ٣، راجع لهذا البحث كتاب معارف قرآن: ٥٣.

(٤) س ٣٩ الزمر، الآية: ٣٨، راجع لهذا البحث المصدر السابق.

(٥) س ١٢ يوسف، الآية: ٣٩. (٦) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦.

(٧) س ٦ الأنعام، الآية: ٥٧، و س ١٢ يوسف، الآية: ٤٠ و ٦٧.

(٨) س ٧ الأعراف، الآية: ٣.

والأولى عندي جعل هذا غصناً خامساً لأصل التوحيد، فهو يشبه التوحيد في العبادة مثلاً الذي جعل غصناً برأسه، ولا يناسب جعله غصناً للتوحيد الأفعالي، فليس حقّ الطاعة فعلاً من أفعاله سبحانه وتعالىٰ.

وكما قلنا في التوحيد الأفعالي ـ بمعنى لا مؤثر في الوجود إلّا الله ـ: إنّ هذا لا ينافي التوسل بالمعصومين؛ لأنّ تأثيرهم لا يكون إلاّ بإذن الله لا باستقلالهم، كذلك نقول هنا: إنّ التوحيد في حقّ الطاعة لا ينافي وجوب طاعة المعصومين؛ لأنّ طاعتهم ليست لهم باستقلالهم بل بإذن الله سبحانه وتعالىٰ وبإيجابه علينا طاعتهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّه﴾(١).

والنقص الذي كان في توحيد إبليس(٢) هو في إيمانه بالأُلوهية والطاعة؛ حيث اعترض علىٰ الله تعالىٰ في حكمه عليه بالسجود لآدمعليه السلام وقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٣)، وقال أيضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْه﴾(٤)، وهذا يعني أنّه لم يعترف بحقّ الطاعة لله تعالىٰ بحجّة أنّه يحكم بغير الحقّ فيأمر الفاضل أن يسجد للمفضول، وهذا هو الذي سبّب سقوط إبليس من مقامه الشامخ وانتهاء أمره إلى مستوى أن قال الله تعالىٰ في خطابه إيّاه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّين﴾(٥)، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِين﴾(٦)، فقد انتهى إبليس إلى أسفل السافلين بسبب عدم خضوعه للتوحيد في الأُلوهيّة والطاعة بالرغم من تماميّة توحيده في الخلق وفي الربوبيّة وفي العبادة.

---

(١) س ٤ النساء، الآية: ٦٤.

(٢) راجع بهذا الصدد كتاب معارف قرآن ١ : ٥٥ ـ ٥٧.

(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ١٢.

(٤) س ٣٨ ص، الآية: ٧٦.

(٥) س ٣٨ ص، الآية: ٧٨.

(٦) س ٣٨ ص، الآية: ٨٥.

أمّا توحيده في الخلق فلقوله تعالىٰ عن لسانه: ﴿**خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[١]، وأمّا توحيده في الربوبيّة فلقوله تعالىٰ عن لسانه: ﴿**رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ**﴾[٢]، وأمّا توحيده في العبادة فلقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف إبليس: «قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا يدرىٰ أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة»[٣].

والرذيلة الخُلُقيّة لدى إبليس التي جرّته إلى مكابرة الله تعالىٰ في اُلوهيته وطاعته كانت عبارة عن الكبر، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس؛ إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهيد ـ وكان قد عبد الله ستّة آلاف سنة لا يدرىٰ أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة ـ عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم علىٰ الله بمثل معصيته؟! كلّا، ما كان الله سبحانه ليُدْخل الجنّة بشراً بإمر أخرج به منها ملكاً، إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هَوادة في إباحة حمىً حرّمه علىٰ العالمين، فاحذروا عبادَ الله عدوَّ الله أن يُعديكم بدائه، وأن يستفزّكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورَجله، فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكانٍ قريب فقال: ﴿**رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين**﴾[٤] قذفاً بغيبٍ بعيد، ورجماً بظنٍّ غير مصيب...»[٥].

هذا تمام كلامنا في الإشارة إلى مراتب التوحيد أو أغصانه التي تتضمّنها

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ١٢.

(٢) س ١٥ الحجر، الآية: ٣٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

(٤) س ١٥ الحجر، الآية: ٣٩.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

جملة: «لا إله إلّا الله» التي هي الشهادة الأُولى من الشهادتين اللتين يدخل بهما الإنسان في الإسلام.

وهنا قال سماحة الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي حفظه الله: ومن بعد هذه مراتب أُخرىٰ للتوحيد فوق المقدار الذي يدخل الشخص به في الإسلام، بإمكان أحد أن ينالها بالسير التكاملي في العلم والعمل من قبيل: التوحيد في الاستعانة، والتوكل والخوف، والرجاء، والحبّ بمعنى أن يكون حبّه لغير الله في الله ومن ناحية انتسابه إلى محبوبه الأصلي وهو الله، وكذلك التوحيد في الوجود الاستقلالي بمعنى دركه لانحصار الوجود الاستقلالي في الله تعالىٰ بالوجدان والحضور لا بالبرهان العقلي والاستدلال الفلسفي، وهنا يستشهد الشيخ مصباح بكلام إمامنا الحسين عليه السلام: «أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتّىٰ عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ، وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبّائِكَ حَتّىٰ لَمْ يُحِبُّوا سِواك»[1].

* * *

(١) راجع معارف قرآن ١ : ٦١، وفقرة الدعاء واردة في أواخر دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام.

# أدلة التوحيد

ندخل فيما يلي في البحث الاستدلالي علىٰ التوحيد:

## الأدلة علىٰ التوحيد الذاتي

نحن نتعرّض هنا لثلاثة أدلّة: دليل فلسفي، ودليل علمي، ودليل نقلي:

**الدليل الفلسفي:**

مضى في ما سبق الدليل الخامس من أدلّة وجود الله سبحانه وتعالىٰ ـ وهو برهان الصدّيقين ـ وحاصله: أنّنا لا نتصوّر شيئاً بعد افتراض كون الماهيّات أعداماً وحدوداً للوجودات إلّا الوجود المستقل، والوجود التبعي، والعدم، ولا يتصوّر وجود تبعي إلّا تبعاً للوجود الذاتي؛ لأنّ الوجود التبعي عين الربط، والوجود المستقل هو عين الوجود بذاته لا يدخله العدم ويكون واجب الوجود، ومضى أنّ الوجود المستقل والذاتي يطرد لا محالة كلّ حدّ من الحدود؛ لأنّ الحدود إنّما تكون بلحاظ ما يقابل الوجود من العدم.

وهذا كما ترىٰ ينتهي بالضرورة إلى طرد الشريك واستحالة تعدّد واجب الوجود؛ إذ لو تعدّد لشكّل كلّ واحد منهما حدّاً للآخر؛ لأنّ أحدهما يجب أن ينتهي منذ أن يبدأ الآخر، نعم الوجود التبعي ـ وهم المخلوقات ـ لا يشكّل حدّاً لوجود الخالق؛ لأنّ وجود الخالق وجود ذاتي وعيني ومستقل، وهو يختلف سنخاً عن الوجود التبعي، فانتفاء الوجود التبعي المخلوق لا يحقّق امتداداً

لوجود الخالق؛ إذ لو كان يحقق نفي الوجود التبعي امتداداً لوجود الخالق لكان هذا الامتداد وجوداً تبعيّاً، وهذا خلفٌ، فكذلك ثبوت الوجود التبعي لا يحقّق حدّاً لوجود الخالق؛ وعليه فالتوحيد الذاتي ـ بمعنى نفي تعدّد واجب الوجود ـ يكون من لوازم وجوب الوجود وذاتيّته واستقلاله.

ثُمّ إنّ البعض يقول: «إنّ التوحيد الذاتي يفسّر بمعنيين، الأوّل: أنّه واحد لا مثل له، والثاني: أنّه أحد لا جزء له، ويعبّر عن الأوّل بالتوحيد الواحدي وعن الثاني بالتوحيد الأحدي»[١].

فإن مشينا علىٰ هذا الاصطلاح فما ذكرناه من البرهان يتكفّل بإثبات التوحيد بكلا المعنيين: أمّا الأوّل فقد أوضحناه، وأمّا الثاني فلأنّ الوجود المستقل الذي لا حدّ له ولا ماهيّة بل هو صرف الوجود لا يعقل له جزء، وإلّا لتمّ برهان الإطلاق علىٰ كل جزء منه فلم يبق مجال للجزء الآخر، وهو خلف.

### الدليل العلمي:

قال عزّ من قائل:

١ ـ ﴿ما تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[٢].

٢ ـ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣].

٣ ـ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

---

(١) راجع الالهيّات ١ : ٣٧٣.

(٢) س ٦٧ الملك، الآية: ٣ ـ ٤.

(٣) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

**بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**[١].

٤ ـ **﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾**[٢].

روى هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبداللهعليه السلام، فكان من قول أبي عبداللهعليه السلام له: «لا يخلو قولك: إنّهما اثنان من أن يكونا قديمين قويّين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويّاً والآخر ضعيفاً، فإن كانا قويّين فلِمَ لا يدفع كلّ واحد منهما صاحبه ويتفرّد بالتدبير؟ وإن زعمت أنّ أحدهما قويّ والآخر ضعيف ثبت أنّه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلت: إنّهما اثنان، لم يخل من أن يكونا متّفقين من كلّ جهة أو مفترقين من كلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر علىٰ أنّ المدبّر واحد»[٣].

وورد عن هشام بن الحكم أيضاً بسند صحيح، قال: «قلت لأبي عبداللهعليه السلام: ما الدليل علىٰ أنّ الله واحد؟ قال: اتّصال التدبير وتمام الصنع كما قال عزّ وجلّ: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾** »[٤].

وقد ورد عن إمامنا أمير المؤمنينعليه السلام في وصيّة له لابنه الحسنعليه السلام: «واعلم يا بنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه لا يضادّه في ملكه أحد»[٥].

---

(١) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ٩١. (٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٤٢ ـ ٤٣.

(٣) التوحيد : ٢٤٣ ـ ٢٤٤، الباب ٣٦، الحديث ١.

(٤) التوحيد : ٢٥٠، الباب ٣٦، الحديث ٢.

(٥) نهج البلاغة، الرسالة: ٣١.

ونذكر فيما يلي عدّة تقارير للدليل العلمي علىٰ التوحيد الذاتي:

**التقرير الأوّل** : إنّ مراجعة كتابٍ ما بالدقّة تكشف لنا عن أنّ مؤلّفه واحد أو متعدّد، فوحدة الأُسلوب والطريقة والتناغم الكامل بين مطالب الكتاب وإعمال الفهم الواحد والذوق الواحد والمنهج الواحد دليل علىٰ وحدة المؤلّف؛ لأنّ الأذواق مختلفة والسلائق متباينة والمباني والأفهام متعدّدة، فكذلك التنسيق والترابط والتناغم الوثيق بين أجزاء عالم الوجود ـ من الأرض والسماء والشمس والقمر والنبات والأنهار والمخلوقات والمجرّات وغير ذلك مما جعل كلّ عالم الوجود وحدة متكاملة متناسقة ـ دليل علىٰ وحدة الله تبارك وتعالىٰ، وليس الترابط والتنسيق في أجزاء منظومتنا الشمسيّة فحسب، ولا في مفردات مجرّتنا فحسب، بل في ما بين المجرّات أيضاً، فكلّ هذه الأُمور مجموعة متوحّدة يحكمها نظام الجذب والدفع اللذين جعلا كلّ شيء في محلّه لا يندكّ بعضها ببعض ولا يتناثر بعضها عن بعض.

والنظام الحاكم علىٰ المنظومة الشمسيّة هو بعينه النظام الحاكم علىٰ كلّ ذرّة، فجزَيئاتها تدور حول نواتها بنفس الجذب والدفع اللذين يجعلان كوكبنا يدور حول الشمس:

دل هر ذرّه را كه بشكافى آفتابيش در ميان بينى

والتماثل والتناسق الحاكمان علىٰ العالم جعل العلماء قادرين علىٰ الوصول إلى قوانين عامّة عالميّة باختبار ضئيل مختصر، يجرىٰ علىٰ جزء يسير في قطعة صغيرة من العالم، كما كشف نيوتن قانون الجاذبيّة للعالم أجمع بسقوط تفّاحة من شجرة علىٰ الأرض.

ولو زاد سمك الهواء أو نقص لاختلّ النظام، ولو قربت الشمس أو بعدت عن

الأرض لهلكنا، وقد مضى منّا بحث في أدلّة وجود الله في شرح الحكمة المسيطرة علىٰ العالم ما ينفع كثيراً هنا.

قد تقول: لعلّ هذا الترابط والتناسق والنظم الحكيم نتيجة الكمال المطلق لكلّ واحد من الآلهة المتعدّدة ممّا جعلهم يسلكون جميعاً مسلكاً حكيماً واحداً في خلق العالم وإدارته.

ولكنّا نقول: إنّ الكمال المطلق يعني نفي الحدّ عن الوجود علىٰ الإطلاق، وهذا يؤدّي بنا إلى الرجوع إلى ما مضى من البرهان الفلسفي علىٰ وحدانية الله، ومفروضنا في الوقت الحاضر التنازل عن ذلك، وهو مساوق للتنازل عن الكمال المطلق.

وقد تقول: إنّ هؤلاء الآلهة المتعدّدين وغير الكاملين توافقوا بتفاهم سابق في ما بينهم علىٰ طريقة معيّنة في الخلق والتدبير سنخ توافق عدد أعضاء هيئة معيّنة علىٰ طريقة إيجاد شركة معيّنة وإدارتها.

ولكنك ترىٰ دائماً شيئاً من الفطور والخلل ولو يسيراً في المؤسّسات المدارة من قبل هيئة لا تجده في ما يرأسها شخص واحد، بالرغم من أنّ نسبة تلك الشركة أو المؤسّسة إلى العالم أضأل من نسبة القطرة إلى البحر.

أمّا بلحاظ هذا العالم الواسع العظيم ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

التقرير الثاني: نحن إذا غضضنا النظر عن البرهان الفلسفي، أي عن برهان الصدّيقين، في ما انتهى إليه: من أنّ الوجود المستقل بما أنّه كامل مطلق فلا يقبل

---

(١) س ٦٧ الملك، الآية: ٣ ـ ٤.

التعدّد، بأن افترضنا تعقل تعدّد الوجود المستقل، ولكن لم نغضّ النظر عن أنّ ما عدا الوجود المستقل وهو المخلوق وجود ربطيّ، لا محالة كانت نتيجة ذلك: هي أنّ فرض إسناد هذا العالم إلى إلهين يعني كونه وجوداً ربطياً لهذا ولذاك في وقت واحد، وهذا يعني تصرّف أحدهما في حيطة السلطان الذاتي للآخر، وليس كتصرّف شريكين في مال الشركة المستقل في الوجود عنهما كي يتعقّل توافق سابق لهما علىٰ ذلك، بل يكون التصادم هنا واقعاً لا محالة، ولو فرض أنّ هذا العالم الذي شرحنا في التقرير الأوّل وحدته وتماسكه وترابطه كان نصفه مثلاً وجوداً ربطيّاً لهذا، والنصف الآخر وجوداً ربطيّاً لذاك، لأدّى ذلك إلى الانصداع الذاتي بين النصفين؛ لما قلنا من أنّه ليس العالم وجوداً مستقلاً يفترض توافق الإلهين علىٰ صنعهما أو إدارتهما كتوافق شخصين علىٰ بناء دار أو التصرف في الدار، بل هو عين الربط بهما: ﴿إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

وعلىٰ هذا الأساس صحّ أن يقال: إن كانا قويين تدافعا وفسد العالم، وإن كان أحدهما قويّاً والآخر ضعيفاً استفرد القويّ بالاُلوهيّة، وإن كانا ضعيفين عاجزين لم يكن أحد منهما إلهاً، ولا يبقى هنا مجال لفرض كون الحكمة والحنكة المطلقة أو الكمال المطلق هو الذي أوجب عدم الانصداع والفساد؛ لأنّ المسألة لم تكن مسألة جهل الشركاء.

التقرير الثالث : إنّ أحد الإلهين قد أكثر من إرسال الرسل وإنزال الكتب

---

(١) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ٩١. (٢) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٢٢.

ونسبة جميع آيات الآفاق والأنفس إلى نفسه، فما بال الآخر ـ الذي هو شريكه في الخلق والتدبير ـ ساكت عن ذلك سكوت من يقتنع بفعل صاحبه أو يـهمل خلقه؟ كما قال إمامنا أمير المؤمنين ﷺ: «واعلم يا بنيّ، أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه[١]، ولعرفت أفعاله وصفاته»[٢].

ولا يخفى أنّ هدفنا من الدليل العلمي كان أيضاً إثبات التوحيد الذاتي، وإن اختلف عن الدليل الفلسفي الذي أوردناه في أنّ الأوّل كان منصباً ابتداء علىٰ التوحيد الذاتي، ولكن هذا الدليل العلمي أثبت التوحيد الذاتي عن طريق التوحيد في الخلق أو التدبير.

التقرير الرابع : إنّ الدليل العلمي علىٰ التوحيد بالتقارير الثلاثة التي ذكرناها إنّما يثبت التوحيد بلحاظ العالم الذي نحن فيه، ولا ينفي افتراض إله آخر لعالم آخر يفرض مستقلاً عن هذا العالم تماماً، بخلاف الدليل الفلسفي الذي يثبت التوحيد حتّىٰ في مقابل مثل هذا الاحتمال.

إلّا أنّه قد يقرّر ما أسميناه بالدليل العلمي بتقرير رابع يقترب أكثر إلى البيان الفلسفي، فيثبت أيضاً التوحيد حتّىٰ في مقابل مثل هذا الاحتمال، وذلك كأن يؤخذ أوّلاً من الفلسفة استحالة تركّب واجب الوجود من عدد من الأجزاء؛ للزوم حاجة كلّ جزء إلى الآخر، وهو مستحيل في واجب الوجود أو في الوجود المستقل، أو قل: للزوم حاجة الكلّ إلى أجزائه مثلاً، ثُمّ يقال: إنّ الإلهين إمّا أن يتماثلا من كلّ الجهات فلا يميّز أحدهما عن الآخر فلا يتمّ التعدّد، أو

---

(١) قوله: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» يحتمل أن يكون إشارة إلى التقرير الأوّل، وهو أنّ وحدة الأثر وتماسك أجزائه وترابطها دليل علىٰ وحدة المؤثّر.

(٢) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

يتماثلا في بعض الجهات ويتباينا في بعض فيلزم التركّب وهو محال حسب الفرض، أو يتباينا كلّياً فيتناقضان في الأثر فيفسد بذلك العالم وبذلك قد يفسّر قوله تعالىٰ: **﴿لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾**، وقوله تعالىٰ: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا﴾**. وبناءً علىٰ هذا التقرير أيضاً لا يبقى موضوع لطرح إشكال: أنّ الحكمة والكمال منعا عن الفساد والانصداع، أو إشكال: أنّ التوافق السابق منع عن ذلك كما في مشتركين متعددين علىٰ مؤسّسة واحدة.

### الدليل النقلي:

إنّ إثبات وجود الله تعالىٰ بالدليل النقلي غير معقول؛ لأنّ النقل إن كان عن الله مباشرةً فأصل وجوده تعالىٰ غير معترف به بعدُ، وإن كان عن رسول الله أو خلفاء الرسول فما قيمة الرسول وخلفائه قبل إثبات المُرسل؟!

أمّا إذا ثبت وجود الله تبارك وتعالىٰ فإثبات التوحيد عن طريق النقل أمر ممكن؛ وذلك لأنّ إثبات وجود الله كافٍ في تسلسل البحث إلى الرسول وخلفاء الرسول، وإلى صدق الله ورسوله وإلى النقل عنهم جميعاً.

وعلىٰ هذا الأساس نقول: لا إشكال في تطابق القرآن والسنّة المتواترة عن الرسولﷺ وخلفائه علىٰ التوحيد، وبه يثبت التوحيد.

## الدليل علىٰ التوحيد في الصفات

المقصود بالصفات هو صفات الذات، كالعلم والقدرة والحياة وما إلى ذلك، وليست صفات الفعل كالخلق والرزق.

فصفات الذات عين الذات ولا تغاير بينها وبين الذات ولا فيما بين أنفسها.

وهذا يثبت بنفس الدليل الفلسفي الذي أثبت التوحيد، فإن شئت فتكلّم بلغة دليل الواحديّة، أي: أنّه واحد لا مثيل له، وإن شئت فتكلّم بلغة دليل الأحديّة، أي: أنّه أحد بسيط لا جزء له.

فتقول بلغة الواحديّة: إنّ صفات الذات لو تغايرت مع الذات أو تغاير بعضها مع بعض لتعدّد الوجود المستقل، وقد مضى إثبات أنّ الوجود المستقل لا يعقل تعدّده.

وتقول بلغة الأحديّة: إنّ تصوير صفات الذات مع حفظ تغاير بينها وبين الذات أو حفظ تغاير في ما بينها يؤدّي إلى التركيب، وقد مضى توضيح استحالته في الوجوب المستقل، أو قل: في واجب الوجود.

وما ألطف التعبير الماضي عن إمامنا أمير المؤمنينعليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله»[١].

## الدليل علىٰ التوحيد في العبادة

العبادة والتي هي كمال الخضوع لا ينبغي أن تكون للإنسان الحرّ إلّا بأحد ملاكات ثلاثة:

١ ـ الاحتياج الحقيقي إلى المعبود.

٢ ـ والأشرف من ذلك أن تكون العبادة بملاك المالكيّة الحقيقيّة للمعبود.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأُولىٰ.

٣ ـ والأشرف منهما أن تكون بملاك الكمال المطلق للمعبود.

وكلّ هذه الملاكات الثلاثة منحصرة في الله سبحانه وتعالىٰ، فإنّ المخلوقين هم المحتاجون، والغنيّ الحقيقي المطلق هو الخالق، وهل يرحم المخلوق إلّا الخالق؟ وكذلك الملكيّة الحقيقيّة بمعنى الواجديّة الحقيقيّة لله سبحانه المالك لجميع ما خلق، وكذلك من هو أهل للعبادة لأنّه الكمال المطلق إنّما هو واجب الوجود سبحانه وتعالىٰ.

والنصوص المحرّمة في الكتاب والسنّة لعبادة غير الله لعلّها فوق حدّ الإحصاء، منها قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[(١)] فترى الآية المباركة قد جعلت الشرك اسما لتعدد المعبود.

بل لم ينقل في القرآن عن مشركي مكّة إلّا الشرك في العبادة، قال الله تعالىٰ عن لسانهم: **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**[(٢)]، فأمّا أصل اختصاص الخلق بالله تعالىٰ فقد كان معترفاً به من قِبَلهم كما قال الله تعالىٰ: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾**[(٣)]، وكذلك قال الله تعالىٰ: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُون﴾**[(٤)]، فالظاهر أنّ المقصود بالشرك في هذه الآية إمّا هو الشرك في العبادة أو الشرك في الربوبيّة لا الشرك في الخلق؛ لأنّه لو لم يكن عدم الشرك في الخلق مسلّماً عندهم فما معنى الاحتجاج عليهم بقوله: **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ**

---

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٣١.

(٢) س ٣٩ الزمر، الآية: ٣.

(٣) س ٣٩ الزمر، الآية: ٣٨.

(٤) س ٧ الأعراف، الآية: ١٩٠ ـ ١٩٢.

يُخْلَقُون﴾؟

أمّا سجود الملآئكة لآدم عليه السلام فبما أنّه كان بأمر الله كان عبادة لله تعالىٰ كما ورد عن الصادق عليه السلام في حديث: «أنّ زنديقاً قال له: أفيصلح السجود لغير الله؟ قال: لا، قال: فكيف أمر الله الملآئكة بالسجود لآدم؟ فقال: إنّ من سجد بأمر الله فقد سجد لله، فكان سجوده لله إذا كان عن أمر الله»(١).

وقد يقال: إنّ السجود لغير الله وإن كان محرّماً في شريعتنا لكن ليس كلّ سجود عبادة، والسجود المحرّم لغير الله غير القابل للاستثناء إنّما هو سجود العبادة، وهي نهاية الخضوع للمعبود باعتبار مالكيته للعابد، ولم يكن سجود الملآئكة لآدم ولا سجود إخوة يوسف وأبويه له بهذا الاعتبار(٢).

## الدليل علىٰ التوحيد في الطاعة

ونعطف علىٰ التوحيد في العبادة التوحيد في الطاعة، فإنّ كلامنا فيه مشابه لكلامنا في توحيد العبادة، فإنّ حكم العقل بمولويته سبحانه وتعالىٰ وطاعته لا يكون إلّا لأحد سببين: إمّا لكونه هو المنعم الحقيقي الذي منه نعمة الوجود أوّلاً ثُمّ النعم المتفرّعة علىٰ الوجود التي إن تعدّوها لا تحصوها فيجب شكره بطاعته؛ وإمّا لكونه مالكاً حقيقيّاً لنا وللعالم بخلقه إيّانا وخلقه للعالم علىٰ الخصوص بناءً علىٰ ما مضى في برهان الصدّيقين علىٰ وجود الله: من أنّ ما سواه ليس إلّا ربطاً وإشعاعاً وتجلّياً، وأنّ الوجود المستقل لا يوجد إلّا له سبحانه وتعالىٰ، فهو

---

(١) وسائل الشيعة ٦ : ٣٨٧، الباب ٢٧ من أبواب السجود، الحديث ٤.

(٢) البحار ١١ : ١٤٠.

الموجد والواجد لا غيره، وتجب علىٰ المملوك إطاعة المالك.

وكلا هذين السببين لوجوب الطاعة مخصوص بالله عزّ وجلّ:

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

## الدليل علىٰ التوحيد في الأفعال

التوحيد في الأفعال بمعنى أنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، وعمدة النقض الذي يورد علىٰ ذلك عبارة عن أفعال الإنسان بناءً علىٰ كونه فاعلاً مختاراً، ومن هنا قد يتورّط من يتورّط في الجبر بتخيّل أنّ هذا هو الذي يؤدّي إلى التنزيه من الشرك غفلة عن أنّ الجبر يؤدّي إلى توصيف الله تعالىٰ بالظلم؛ لأنّ العقاب علىٰ ما ليس بالاختيار ظلم وتعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

والجمع بين اختيار الإنسان والتوحيد في الأفعال يذكر بأحد وجهين:

**الوجه الأوّل**: هو الوجه العامّ ـ أي القريب من ذهن العموم ـ وهو أنّه علىٰ الرغم من اختيارية الإنسان في الأفعال تكون الوسائل التي بها يحقق العبد الفعل من الأعضاء والجوارح والوسائط الماديّة التي قد يحتاجها لتحقيق ذاك الفعل والحياة والقدرة والشعور وما إلى ذلك، كلّها من الله تعالىٰ وبفيض دائم منه، ولو انقطعت إحدى هذه الفيوضات آناًما لما أمكن للعبد إيجاد ذاك الفعل، إذن فالتأثير الحقيقي كان من الله سبحانه وتعالىٰ بالرغم من اختيار العبد.

---

(١) س ٣١ لقمان، الآية: ٢٠.

(٢) س ٧ الأعراف، الآية: ٥٤.

والوجه الثاني : هو الوجه الفلسفيّ الخاص، وهو أنّه بعد أن كان وجود العبد مجرّد وجود ربطيّ؛ إذ لا وجود له بغضّ النظر عن هذا الربط، فجميع أفعاله لا يعقل أن يفترض لها وجود استقلالي، وإلّا لكان فعل الإنسان أعلىٰ مرتبة في الوجود من نفس الإنسان، وإذن كلّ أفعاله توجد بوجود ربطي، وتكون مرتبطة بالوجود المستقل وإشعاعاً من إشعاعات الوجود المستقل، وهذا معنى أمرٌ بين الأمرين.

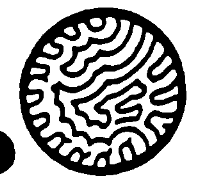





# صفات الله سبحانه وتعالى

وبعد إثبات التوحيد قد تكلّم علماؤنا الأبرار في صفات الله تعالىٰ، ولكنّا هنا لا نتكلّم إلّا عن نزرٍ يسير من صفاته عزّوجّل، وببيان مختصر قصير علىٰ أساس ما بُني عليه هذا الكتاب من الاختصار.

- علم الله سبحانه وتعالى
- قدرته عزّوجلّ واستغناؤه.
- صدق الله عزّوجلّ.
- عدل الله سبحانه وتعالى.

# علم الله ﷻ

نشير هنا إلى علم الله سبحانه وتعالىٰ ضمن مختصر من الكلام بعد افـتتاح الحديث بالآيات المباركات التاليات:

١ ـ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(١).

٢ ـ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

٣ ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣).

٤ ـ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٤).

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ٢٩.

(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ٥٩.

(٣) س ١٠ يونس، الآية: ٦١.

(٤) س ٥٧ الحديد، الآية: ٤.

٥ ـ ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١].

٦ ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

٧ ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٣].

وفيما يلي نذكر بعض وجوه الاستدلال علىٰ علمه المطلق سبحانه وتعالىٰ:

١ ـ إنّ إطلاق علمه يكون من قبيل التوحيد الذي قلنا فيه: إنّه يمكن الاستدلال عليه بالدليل النقلي، وليس من قبيل أصل وجود الله الذي يتوقّف عليه كلّ دليل نقلي، فبعد إثبات وجود الله وما يأتي من صدقه ينفتح باب تسلسل الحديث في الأدلة النقليّة القطعيّة لإثبات جميع العقائد الأُخرى، والنقل القطعي كتاباً وسنّة ثابت علىٰ علم الله المطلق بشكل لا غبار عليه.

٢ ـ إنّ برهان الصدّيقين يثبت علم الله المطلق؛ لأنّه أثبت أنّ ما عدا الوجود المستقل كلّه وجود ربطيّ لا استقلال له في ذاته، فكلّه حاضر لدى الوجود المستقل بالعلم الحضوري دون الحصولي، والحجاب بين العالم وبعض الأُمور إن كان يتصوّر فإنّما يتصوّر في الأُمور المنفصلة عنه والتي يتوقف العلم بها علىٰ انطباع الصورة عنها في الذهن، فإذا انطبعت حصل العلم الحصولي وإلّا حصل الجهل، وأمّا ما يكون حاضراً لدى الله سبحانه وتعالىٰ فلا معنى لفرض جهله به.

٣ ـ إنّ برهان النظم والحكمة الذي كان فيما مضى من أهمّ أدلّتنا علىٰ وجود

---

(١) س ٦٧ الملك، الآية: ١٣ ـ ١٤.
(٢) س ٣١ لقمان، الآية: ٣٤.
(٣) س ٥٠ ق، الآية: ١٦.

الله تعالىٰ يثبت علم الله بوضوح بنفس طريقة الأدلّة العلميّة لا الفلسفيّة؛ فإنّ كتاباً مختصراً لمؤلّف اعتيادي يعكس عادة خصوصيّات المؤلّف ومزاياه: من فصاحة وبلاغة أو ضعف في القدرة علىٰ البيان أو دقّة في الفهم أو بلادة فيه وما إلى ذلك، فكيف لا تدل الدقّة المتناهية في كتابي التكوين ـ وهما: كتاب الآفاق، أعني الأرض والسماوات بما فيها من الآيات الماديّة، وكتاب الأنفس الذي يكون المحسوس لنا من أجزائه هو النفس البشريّة المشتملة علىٰ غرائب الأُمور وعجائبها ـ وكتاب التدوين ـ وهو القرآن المشتمل علىٰ إعجازات لا متناهية في عدّة جهات، ومنها الإخبارات الغيبيّة ـ علىٰ العلم المطلق لمؤلّف هذه الكتب الثلاثة ألا وهو الله سبحانه وتعالىٰ؟!

٤ ـ لو صنع أحدٌ سيّارة أو طائرة أو أيّة أداة صغيرة من هذا القبيل يكون عالماً بمزايا وخصوصيّات مصنوعه هذا علىٰ الرغم من أنّه ليس خالقاً له بالمعنى الحقيقي للكلمة، وانّما عمله مجرّد تجميع لأجزاء هذا المصنوع، فكيف لا يدل خلق العالم كلّه علىٰ علمه سبحانه وتعالىٰ بما فيه؟! ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وبإمكانك أن تجعل الوجه الرابع جزءاً من الوجه الثالث فيتلخّص دليلنا علىٰ علمه عزّ وجلّ ضمن الأدلّة الثلاثة: النقلي والفلسفي والعقلي.

### علم الله تعالىٰ بالغيوب الخمسة:

نختم الحديث عن علم الله سبحانه بكلام عن الآية السادسة من الآيات التي مضت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

روي في تفسير البرهان في ذيل هذه الآية المباركة عن الصادق عليه السلام: «هذه

الخمسة أشياء لم يطّلع عليها ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل، وهي من صفات الله عزّ وجلّ»[١].

وروي في پيام قرآن[٢] عن نور الثقلين عن الإمام الصادق عليه السلام: «ألا أُخبركم بخمسةٍ لم يطّلع عليها أحد من خلقه؟ قلت: بلى. قال عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

ومن الطريف ما رواه ابن أبي الحديد من أنّ إنساناً قال لموسى بن جعفر عليه السلام: «إنّي رأيت الليلة في منامي أنّي سألتك: كم بقي من عمري؟ فرفعت يدك اليمنى وفتحت أصابعها في وجهي مشيراً إليّ، فلم أعلم خمس سنين أم خمسة أشهر أم خمسة أيّام؟ فقال: ولا واحدة منهنّ، بل ذاك إشارة إلى الغيوب الخمسة التي استأثر الله تعالىٰ بها في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...﴾»[٣].

ومن الطريف أيضاً ما روي في تفسير كنز الدقائق وخرّجه المخرّج من كتاب أنوار التنزيل: «إنّ ملك الموت مرّ علىٰ سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا؟ فقال: ملك الموت، فقال: كأنّه يريدني فاؤمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند، ففعل، فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجّباً منه إذ أُمرتُ أن أقبض روحه بالهند وهو عندك»[٤].

وإن كنّا نحن والمقدار المستفاد لنا من ظاهر الآية المباركة لم يكن مجال للاعتراض عليها بأنّ علم اليوم يكشف عن ذكورة الجنين وأُنوثته وهو في الرحم؛ وذلك عن طريق النظر اليه بالوسائل الحديثة. والوجه في عدم ورود هذا

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٢٨٠.
(٢) پيام قرآن ٤: ٨٢.
(٣) شرح ابن أبي الحديد ٨: ٢١٧.
(٤) كنز الدقائق ١٠: ٢٧٤.

الاعتراض على الآية واضح؛ فإنّ كشف حقيقة الجنين من ناحية الذكورة والأنوثة بالنظر إليه بالوسائل الحديثة ليس إلّا من قبيل النظر إليه بعد ولادته، ولا يدّعي أحد أنّ الاطّلاع على الذكورة والأنوثة بالحاسّة الباصرة مخصوص بالله تعالى، وإنّما المخصوص به هو الاطّلاع عليه رغم أنّه مستور في الرحم فلعل المقصود بالآية المباركة هو هذا المقدار من الأمر.

إلّا أنّ المستشعر من بعض الروايات السابقة أنّ الاطّلاع على حقيقة الجنين في الرحم كالاطّلاع على وقت القيامة لا يمكن أن يتحقّق لأحد وليس أمراً يمكن كشفه بالحس، فحاله حال الساعة التي لا يطّلع عليها أحد ولو كان نبيّاً مرسلاً، كما دلّت عليه الآية المباركة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾[١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، فإذا كان الأمر هكذا فيرد الاستفسار عن أنّه كيف يقال: إنّ العلم بحقيقة ما في الأرحام مخصوص بالله تعالى مع أنّ العلم الحديث قد كشف النقاب عن حقيقة ما في الأرحام من ذكر أو أُنثى بالحسّ؟!

والجواب: أنّه بناءً على هذا الاحتمال يجب أن تحمل الآية على معنى معرفة حقيقة ما في الرحم ليس من ناحية الذكورة والأنوثة فحسب، بل ومن ناحية صفاته الجميلة أو الرذيلة وسعادته وشقائه وما إلى ذلك، وهذا ما لا يمكن كشفه إلّا بالعلم بالغيب، كما ورد ذلك عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام، حيث ذكر في تفسير الآية المباركة: «فيعلم الله سبحانه ما في الأرحام: من ذكر أو أنثى، وقبيح

---

(١) س ٧٩ النازعات، الآية: ٤٢ ـ ٤٤. (٢) س ٧ الأعراف، الآية: ١٨٧.

أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومن يكون في النار حطباً، أو في الجنان للنبييّن مرافقاً»[١].

وعلىٰ أيّة حال فقد تبيّن من كلّ ما ذكرناه أنّه تعالىٰ: ﴿**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٢]، ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٣].

وسلام الله علىٰ إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال: «يعلم عجيج الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف النينان في البحار الغامرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات»[٤].

* * *

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

(٢) س ٣٤ سبأ، الآية: ٣.

(٣) س ١٠ يونس، الآية: ٦١.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

# قدرته ﷻ واستغناؤه

تثبت القدرة المطلقة له عزّ وجلّ بنفس الأدلّة الثلاثة الماضية:

**فأوّلاً ـ الدليل النقلي القطعي:**

وأقتصر على ذكر عدد من الآيات التي اشتملت في مضمونها على الدليل العلمي للقدرة، قال الله تعالى:

١ ـ **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾**[1].

٢ ـ **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾**[2].

٣ ـ **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**[3].

**ثانياً ـ الدليل الفلسفي:**

يمكن أن نستفيد هنا من برهان الصدّيقين الذي استندنا إليه في إثبات الله تعالى وفي إثبات التوحيد، فإنّ الوجود المستقلّ لا حدّ له؛ لأنّ الحدّ يأتي من الماهية وهي أمر عدمي، فإذا لم يكن له حدّ كان كمالاً مطلقاً، والكمال

---

(١) س ٦٥ الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٩٩.
(٣) س ٤٦ الأحقاف، الآية: ٣٣.

المطلق لا ضعف فيه ولا ينقصه شيء دخيل في القدرة، وبالتالي لا تنقصه القدرة ولايحتاج إلى شيء.

### ثالثاً ـ الدليل العلمي :

وهو نفس الدليل العلمي الذي أثبتنا به وجود الله وأثبتنا به علمه وحكمته؛ إذ نقول: كيف يمكن هذا الخلق العظيم مع أوسع آيات القصد والتدبير، ومع أرقى ما يتصوّر من الإتقان والإحكام من دون قدرة واسعة لا يحدّها شيء؟! وقد أشار إلى ذلك قوله تعالىٰ: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** فالله هو الذي خلق السماوات السبع والأرض بقشورها أو الأرضين السبع ودبّر الأمر في كلّ سماء وأرض كما أشار إلى ذلك في هذه الآية بقوله: **﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾**، وبقوله في آية أُخرىٰ: **﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾**[١]، وبقوله في آية ثالثة: **﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾**[٢]، فلو قطع التدبير لحظة واحدة عن كلّ هذا لهلك العالم بأجمعه، وكلّ ما نراه أو نرىٰ إشعاعاً منه من الكواكب والنجوم إنّما هي في السماء الدنيا؛ لقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾**[٣]، وقوله تعالىٰ: **﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾**[٤]، وقوله تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾**[٥].

وهذه النجوم التي في السماء حسب التعبير المرويّ عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: لها مدائن مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كلّ مدينة إلى عمود مربوط من

---

(١) س ٣٢ السجدة، الآية: ٥.
(٢) س ٤١ فصّلت، الآية: ١٢.
(٣) س ٣٧ الصافّات، الآية: ٦.
(٤) س ٤١ فصّلت، الآية: ١٢.
(٥) س ٦٧ الملك، الآية: ٥.

نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مئتين وخمسين سنة[١]، ولعلّ المقصود بالعمود الرابط قوّتا الجاذبة والدافعة.

أقول: كلّ هذا ـ ونسبته إلى جميع آيات النظم والإحكام أقلّ من نسبة القطرة إلى البحر ـ أليس دليلاً علىٰ قدرة الله سبحانه التي لا يحدّها حدّ؟

وينفعنا في المقام ما مضى في بحث إثبات الصانع من حديث لنا حول دلائل القصد والحكمة فراجع.

وحاصل الكلام: أنّ الدليل العلمي علىٰ علم الله سبحانه وعلىٰ قدرته هو عين الدليل العلمي علىٰ وجوده سبحانه، وهو عبارة عن دلائل القصد والحكمة المنبثّة في العالم أجمعه، ولا نريد أن ندخل في شرح ذلك؛ لأنّه مضى منّا في بحث إثبات الصانع قدر من البيان حول دلائل القصد والحكمة، فهنا نحيلك علىٰ ذاك البحث المشروح نسبيّاً، علىٰ الرغم من أنّ ما مضى لو قيس بواقع دلائل القصد والحكمة في العالم لكانت النسبة أضأل من نسبة القطرة إلى البحر، ونحيلك أيضاً علىٰ البحث الرائع الممتع لأُستاذنا الشهيد؛ في أواخر كتاب فلسفتنا تحت عنوان: «المادّة والوجدان» والذي ورد في أواخره قوله:

«وأخيراً فلنقف لحظة عند علم النفس لنطلّ علىٰ ميدان جديد من ميادين الإبداع الإلهي، ولنلاحظ من قضايا النفس بصورة خاصّة قضيّة الغرائز التي تنير للحيوانات طريقها وتسدّدها في خطواتها؛ فإنّها من آيات الوجدان البيّنات علىٰ أنّ تزويد الحيوان بتلك الغرائز صنع مدبّر حكيم وليس صدفة عابرة، وإلّا فمن علّم النحل بناء الخلايا المسدّسة الأشكال، وعلّم كلب البحر بناء السدود علىٰ الأنهار، وعلّم النمل المدهشات في إقامة مساكنه، بل من علّم ثعبان البحر

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ١٥ نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم.

أن لا يضع بيضه إلّا في بقعة من قاع البحر تقرب نسبة الملح فيها ٣٥٪ وتبعد عن سطح البحر بما لا يقلّ عن ١٢٠٠ قدمٍ، ففي هذه البقعة يحرص الثعبان علىٰ رمي بيضه حيث لا ينضج إلّا مع توافر هذين الشرطين؟

ومن الطريف ما يحكىٰ من أنّ عالماً صنع جهازاً خاصّاً، وزوّده بالحرارة المناسبة وببخار الماء وسائر الشروط التي تتوفّر في عملية طبيعيّة لتوليد كتاكيت من البيض، ووضع فيه بيضاً ليحصل منه علىٰ دجاج، فلم يحصل علىٰ النتيجة المطلوبة، فعرف من ذلك أنّ دراسته لشرائط التوليد الطبيعي ليست كاملة، فأجرى تجارب أُخرىٰ علىٰ الدجاجة حال احتضانها البيض، وبعد دقّة فائقة في الملاحظة والفحص اكتشف أنّ الدجاجة تقوم في ساعات معيّنة بتبديل وضع البيضة وتقليبها من جانب إلى جانب، فأجرى التجربة في جهازه الخاص مرّة أُخرىٰ مع إجراء تلك العمليّة التي تعلّمها من الدجاجة فنجحت نجاحاً باهراً، فقل لي بوجدانك: من علّم الدجاجة هذا السرّ الذي خفي علىٰ ذلك العالم الكبير، أو من ألهمها هذه العمليّة الحكيمة التي لا يتم التوليد إلّا بها؟»[1].

### إشكالان وجوابهما:

**الأوّل**: القدرة متقوّمة بالاختيار وقرائن النظم والتدبير والعظمة تنسجم مع الجبر أيضاً، فهل من دليل علىٰ الاختيار؟ وأقصد بذلك اختيار الله سبحانه وتعالىٰ، أي إنّ البحث هنا بحث صغروي ولا علاقة له بالبحث الكبروي عن الجبر والاختيار، فلنفترض أنّنا قد انتهينا في بحث الجبر والاختيار من معقولية الاختيار وإبطال شبهات ضرورة الجبر، بل حتّىٰ من البحث الصغروي لاختيار

---

(١) فلسفتنا: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

الإنسان بحجة: أنّ اختياره معلوم حضوريّ لنفوسنا أو محسوس لنا بالوجدان، فبعد كلّ هذا يبقى سؤال صغروي عمّا هو الدليل علىٰ أنّ الله سبحانه وتعالىٰ فاعل بالاختيار؟

وبالإمكان أن يقال في المقام: إنّ الجبر نقص وهذا خلاف كمال الوجود المستقل الذي أثبتناه ببرهان الصدّيقين.

إلّا أنّ هذا يعتبر رجوعاً إلى برهان الصدّيقين، ونحن نبحث عن برهان مستقلّ عن ذاك البرهان.

**والجواب** : أنّه مضى منّا في إثبات حدوث العالم عدد من البراهين علىٰ حدوثه، وكان منها ما يرجع إلى استنباط العلم الحديث الذي اكتشف محدوديّة الطاقة الحراريّة للعالم، وأنّه متّجه إلى البرود باستمرار، وأنّه لو كان قديماً لكانت الطاقة الحراريّة والحركة الدائبة زائلتين منذ زمن طويل.

فإذا ثبت الحدوث ثبت الاختيار لله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنّه لو كان نشوء العالم منه كنشوء المعلول القهري من علّته لكان العالم قديماً بقدم علّته ولم يكن حادثاً.

**الثاني** : لو كانت قدرته سبحانه وتعالىٰ مطلقة لزم من ذلك قدرته علىٰ مثل الجمع بين النقيضين وإدخال العالم من دون تصغيره في البيضة من دون تكبيرها، وما إلى ذلك من المستحيلات.

**والجواب علىٰ ذلك** : هو أنّ عدم شمول قدرته سبحانه وتعالىٰ للمستحيلات الذاتيّة لا يعني نقصاً في قدرته، بل يعني أنّ المستحيل ليست له أرضيّة قبول القدرة، وعدم امتداد القدرة إلى ما ليست له قابليّة ذلك لا يعني تحديداً في طرف القدرة.

وقد ورد مثال إدخال العالم في البيضة من دون تكبير البيضة أو تصغير

العالم في بعض الروايات من قبيل:

١ ـ ما عن ابن أُذينة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إنّ الله تبارك وتعالىٰ لا ينسب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون»[١]، وكأنّ هذه الرواية إشارة إلى ما قلنا من أنّ تعلق القدرة بهذا المثال يعني تعلّقها بالمحال الذاتي، وهذا لا يكون لا لنقص في القدرة بل لعدم قابلية المحل.

٢ ـ ما عن أبان بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة ولا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟ فقال له: ويلك إنّ الله لا يوصف بالعجز، ومن أقدر ممّن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة»[٢]، وكأنّها أيضاً إشارة إلى نفس المعنى الذي ذكرناه، مضافاً إلى تنبيه وجدان السائل باعترافه الضمني بالقدرة غير المتناهية لله تعالىٰ في سؤاله؛ حيث فرض قدرته علىٰ تصغير الأرض وتكبير البيضة، وركّز السؤال علىٰ إدخال الأرض في البيضة من دون تصغير وتكبير.

٣ ـ ما عن البزنطي قال: «جاء رجل إلى الرضا عليه السلام فقال: هل يقدر ربّك أن يجعل السماوات والأرض وما بينهما في بيضة؟ قال: نعم وفي أصغر من البيضة وقد جعلها في عينك وهي أقل من البيضة؛ لأنّك إذا فتحتها عاينت السماء والأرض وما بينهما ولو شاء لأعماك عنها»[٣].

وهذه الرواية يمكن أن تحمل علىٰ محمل تكلّم الإمام عليه السلام علىٰ مستوى فهم المخاطب السائل، وإلّا فمسألة الإبصار لا علاقة لها بدخول الوسيع في الضيّق،

---

(١) البحار ٤ : ١٤٣، الباب ٤ من أبواب الصفات من كتاب التوحيد، الحديث ١٠.

(٢) المصدر السابق، الحديث ١١.

(٣) المصدر السابق، الحديث ١٢.

وإنّما لها علاقة بإثبات تجرّد النفس البشريّة عن المادّة.

وتوضيح ذلك: أنّه لو فرض أنّ الإبصار عبارة عن وقوع شعاع خاصّ من العين علىٰ المرئي فهذا لا يعني دخول الوسيع في الضيّق، إلّا أنّ هذه الفرضيّة قد ثبت بطلانها علميّاً؛ حيث أثبت العلم أنّ الإبصار يتم بانعكاس الأشعّة الضوئيّة من المرئيّات علىٰ العين وليس العكس؛ ولذا قد تتم رؤية الشيء بعد فنائه فنحن لا نرىٰ نجماً من نجوم السماء إلّا حين تصل الموجات الضوئيّة الصادرة عنه إلى الأرض بعد عدّة سنين من انطلاقها من مصدرها، فتقع علىٰ شبكيّة العين حتّىٰ لو فرض زوال النجم من محلّه.

ولو فرض أنّ الإبصار يتمّ بدخول مادّة عن المرئي في العدسة أو في المخّ متحجّمة بحجم المادّة المرئيّة الواسعة خارجاً فهذا يعني دخول الوسيع في الضيّق، إلّا أنّه من المستحيلات الذاتيّة ولا يمكن أن يكون، فينحصر الأمر في أنّ عملية الإبصار ـ بالمعنى الذي يكون نوعاً من الإدراك لا بمعنى مجرّد وقوع شعاع علىٰ الباصرة ـ ليست إلّا أمراً مجرّداً عن المادّة، وبالتالي لا تقع إلّا علىٰ مركز مجرّد وهو النفس، أمّا إشعاع المادّة علىٰ الباصرة فإن هو إلّا مقدّمة علميّة للإدراك، فينحصر تصحيح هذه الرواية بحملها علىٰ التكلّم مع السائل بقدر فهمه[1]، فلعلّه لم يكن يستطيع أن يدرك أنّ عدم شمول القدرة للمستحيل لا يعني نقصاً في القدرة، فلو كان يسمع من الإمام عليه السلام ذلك لكان يشنّع علىٰ الموحّدين بأنّهم لا يستطيعون إثبات القدرة الكاملة لله، فأجابه بقدر إدراكه.

وقد ورد هذا المضمون أيضاً في رواية أُخرىٰ طريفة وهي: «أنّ عبدالله الديصاني أتى هشام بن الحكم فقال له: ألك ربّ؟ فقال: بلى. قال: قادر؟ قال:

---

(١) راجع فلسفتنا: ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

نعم قادر قاهر. قال: يقدر أن يدخل الدنيا كلّها في البيضة لا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟ فقال هشام: النظرة. فقال له: قد أنظرتك حولاً. ثُمّ خرج عنه، فركب هشام إلى أبي عبدالله عليه‌السلام فاستأذن عليه، فأذن له فقال: يابن رسول الله، أتاني عبدالله الديصاني بمسألة ليس المعوّل فيها إلّا علىٰ الله وعليك. فقال له أبو عبدالله عليه‌السلام: عمّاذا سألك؟ فقال: قال لي: كيت وكيت. فقال أبو عبدالله عليه‌السلام: يا هشام، كم حواسّك؟ قال: خمس. فقال: أيّها أصغر؟ فقال: الناظر. قال: وكم قدر الناظر؟ قال: مثل العدسة أو أقل منها. فقال: يا هشام، فانظر أمامك وفوقك وأخبرني بما ترىٰ. فقال: أرى سماءً وأرضاً ودوراً وقصوراً وتراباً وجبالاً وأنهاراً. فقال له أبو عبدالله عليه‌السلام: إنّ الذيقدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقلّ منها قادر أن يدخل الدنيا كلّها البيضة لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة. فانكبّ هشام عليه وقبّل يده ورأسه ورجليه وقال: حسبي يابن رسول الله. فانصرف إلى منزله وغدا عليه الديصاني، فقال له: يا هشام، إنّي جئتك مسلّماً ولم أجئك متقاضياً للجواب. فقال له هشام: إن كنت جئت متقاضياً فهاك الجواب. فخرج عنه الديصاني فأُخبر أنّ هشاماً دخل علىٰ أبي عبدالله عليه‌السلام فعلّمه الجواب، فمضى عبدالله الديصاني حتّى أتى باب أبي عبدالله عليه‌السلام فاستأذن عليه فأذن له فلمّا قعد قال له: يا جعفر بن محمّد، دلّني علىٰ معبودي؟ فقال له أبو عبدالله عليه‌السلام: ما اسمك؟ فخرج عنه ولم يخبره باسمه. فقال له أصحابه: كيف لم تخبره باسمك؟ قال: لو كنت قلت له: عبدالله كان يقول: من هذا الذي أنت له عبد؟ فقالوا له: عد إليه فقل له يدلّك علىٰ معبودك ولا يسألك عن اسمك. فرجع إليه فقال له: يا جعفر، دلّني علىٰ معبودي ولا تسألني عن اسمي. فقال له أبو عبدالله عليه‌السلام: اجلس. وإذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال أبو عبدالله عليه‌السلام: ناولني ياغلام البيضة، فناوله إيّاها فقال له أبو عبدالله عليه‌السلام: يا ديصاني، هذا حصن مكنون له جلد غليظ،

وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضّة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضّة الذائبة، ولا الفضّة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، هي علىٰ حالها لم يخرج منها مصلح فيخبر عن إصلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا تدري للذكر خلقت أم للأُنثى، يتفلّق عن مثل ألوان الطواويس أترىٰ لها مدبّراً؟ قال: فأطرق مليّاً ثُمّ قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّك إمام وحجّة من الله علىٰ خلقه، وأنا تائب ممّا كنت فيه»[١].

* * *

(١) البحار ٤ : ١٤٠ ـ ١٤١، الباب ٤ من أبواب الصفات من كتاب التوحيد، الحديث ٧.

# صدق الله ﷻ

﴿اللّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً﴾[١].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً﴾[٢].

الصدق حينما ينسب إلى الخبر يعني مطابقته للواقع، وحينما ينسب إلى الوعد يعني وفاءه بالوعد، والظاهر أنّ المقصود بالصدق في الآيتين ما يعمّ المعنيين، بل إنّ خلف الوعد في الله تعالىٰ يستلزم الكذب بالمعنى الأوّل لا محالة؛ لأنّ خلف الوعد إمّا أن ينشأ من البداء بمعناه الحقيقي أو العجز عن الوفاء، والبداء ينشأ من ظهور ما كان مجهولاً لديه قبل ذلك، وقد مضى أنّ الله تعالىٰ منزّه عن الجهل والعجز، وإمّا أن ينشأ من تعمّد المخالفة من حين الوعد، وهذا راجع إلى الكذب.

وعلىٰ أيّة حال فالبحث عن الصدق شقّ من البحث عن العدل أفردناه بالذكر لأهمّيته الخاصّة.

ولولا الصدق لبطل الاعتماد علىٰ جميع الأدلّة النقليّة كتاباً وسنّة؛ لأنّنا نحتمل الكذب فيها جميعاً؛ ولبطل الوعد بمجيء يوم القيامة وبالجنّة والنار؛ ولبطلت النبوّة والإمامة بمعناهما المتضمّنين للهداية؛ لاحتمال أنّهما أُرسلا للتضليل، ولا يمكن إثبات نفس الصدق بالدليل النقلي؛ لأنّه دور واضح.

---

(١) س ٤ النساء، الآية: ٨٧.

(٢) س ٤ النساء، الآية: ١٢٢.

إلّا أنّ العقل مستقلّ بالحكم بصدق الله عزّ وجلّ بأحد بيانين:

**البيان الأوّل** : أنّ الكذب نقص عظيم لا يصدر إلّا من الشخص الخسيس والمنحطّ، فأنت لا ترىٰ في البشر من هو كاذب إلّا في السفلة والساقطين، فنسبة الكذب إلى الله تعني نسبة النقص والسقوط والخسّة والانحطاط، وما مضى من برهان الصدّيقين علىٰ كونه كمالاً مطلقاً لأنّه الوجود المستقل بذاته برهان علىٰ أنّه أعلىٰ وأجلّ من الكذب، تعالىٰ الله علوّاً كبيراً.

**والبيان الثاني** : أنّ الكذب لا يصدر من العاقل إلّا بأحد سببين: إمّا الجهل، وإمّا الحاجة التي يريد علاجها عن طريق الكذب، وقد مضى في الأبحاث السابقة البرهان علىٰ علمه وعلىٰ قدرته.

❊ ❊ ❊

# عدل الله ﷻ

قد جعل العدل لدى الشيعة أصلاً من أُصول العقائد، مع أنّه صفة من صفات الفعل كباقي صفات الفعل؛ ولعلّ السبب في إفراده بالذكر في مقابل أُصول التوحيد والنبوّة والمعاد أمران:

الأوّل: أمر واقعي، وهو أنّ العدل أمر لو أُنكر لانهارت مبادئ وأُصول كثيرة، ولانهارت أيضاً تربية البشرية، فمن المحتمل أنّ الله تعالىٰ يعاقب المطيعين ويثيب العاصين، وهذا معناه انهيار أُصول الدين وفروعه تماماً، ولا يبقى معنى لبعث الأنبياء وإنزال الأحكام ولا للتصديق بيوم الجزاء.

الثاني: أمر تاريخي، وهو أنّ قسماً من السنّة أصرّوا علىٰ نفي هذا الوصف عن الله تعالىٰ، إمّا علىٰ أساس إنكار الحسن والقبح العقليين أو علىٰ الأقل إنكار دركهما لنا، وإمّا علىٰ أساس الإيمان بالجبر وعدم الإيمان بالاختيار ممّا لا يُبقي مجالاً لدعوى كون مجازاة فاعلي الشرّ عدلاً، وإمّا على أساس أنّ مالكيّة الله سبحانه وتعالىٰ لعبيده تعطيه حقّ أن يفعل بهم ما يشاء من دون أن يبقى معنى للظلم في ما إذا عاقبهم بلا ذنب.

وهذا كلّه أوجب تأكيد العدليّة علىٰ عدل الله سبحانه وتعالىٰ، وعدّ الشيعة العدل أصلاً من أُصول العقائد، فوجود الحسن والقبح العقليين وجدانيّ عندهم، وكذلك الاختيار، بل لا نظن بمنكري الحسن والقبح العقليين أو منكري الاختيار أن يمشوا في تصرفاتهم العمليّة علىٰ مبانيهم العقلية في الحسن والقبح أو الجبر والاختيار، فلا نظنّهم مثلاً أن يسكتوا عن لوم من يضرب يتيمهم من

دون أن يكون قد صدر منه ما يعدّ ذنباً، أو يتركوا مديح من يساعد ضعفاءهم تلبيةً لوجدان الخير والرأفة.

وأمّا مالكيّة الله سبحانه وتعالىٰ لعبيده فممّا لا شك فيها؛ ولكنها لا تنفي قبح ظلمهم بمثل التعذيب من دون ذنب، فإنّ هذه المالكيّة تعني الجدة ولا تعني حقّ التعذيب والإيذاء، فلو افترضنا أنّ الأب كان هوالخالق الحقيقي للولد ولم يكن مجرّد مقدّمة إعدادية لخلقه، وقلنا: إنّ هذا يستوجب ملكه إيّاه أو جدته له، فهذا لا يبرّر للوجدان أن يحكم بجواز ضربه وإيذائه من قبل الأب بدون صدور ذنب منه، لا لشيء إلّا لأنّ أباه خالقه أو مالكه.

وعلىٰ أيّة حال فدليلنا علىٰ عدل الله سبحانه وتعالىٰ هو نفس الدليلين اللذين أسلفناهما لإثبات صفة الصدق لكلام الله سبحانه، بل الصدق شعبة من شعب العدل وإثباته فرع من فروع إثبات العدل. فالدليل علىٰ العدل:

أوّلاً: أنّ الظلم نقص عظيم وخساسة ليس فوقها خساسة، ولا يكون ممن ثبت ببرهان الصدّيقين أنّه هو الوجود المستقل الكامل؛ لأنّ النقص لا يكون إلّا بشوب الوجود بالحدود الماهويّة، وذلك لا يكون إلّا في ما ليس وجوده ثابتاً بذاته.

ثانياً: أنّ الظلم لا يصدر من عاقل إلّا بسبب الجهل بقبحه أو بسبب الإحساس بنقص يحتاج إلى تداركه بالظلم، وقد مضى إثبات علمه وقدرته واستغنائه وتنزّهه عن الجهل والحاجة.

فهذان الدليلان الوجدانيان يثبتان وجدانيّة عدل الله سبحانه وتعالىٰ.

ومن الطريف أنّ بعض آيات العدل في القرآن الكريم تشير إلى دلالة الوجدان علىٰ ذلك كقوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[١].

٢ ـ ﴿أمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُون﴾[٢].

## شبهة أُخرىٰ وردّها

هناك شبهة حول مسألة العدل غير الشبهات الثلاث الماضية، تختلف عنها في أنّ تلك الشبهات كان منشؤها أخطاء فنّية في الفكر من القول بالجبر، أو إنكار الحسن والقبح العقليين أو تخيل استلزام المالكيّة لجواز أن يفعل بالمملوك ما يشاء، وأمّا هذه الشبهة فتنشأ من مجرد البساطة في الفكر والجهل بحقائق الأُمور، ولهذه الشبهة تقريبان:

الأوّل : أن يقال: إنّ اختلاف الطاقات والقابليّات يعتبر ظلماً، فلماذا نرىٰ شخصاً ذكيّاً أو قويّاً أو حادّ البصر أو السمع أو نشطاً، والآخر بليداً أو ضعيفاً أو ضعيف البصر أو السمع أو كسلاً؟ وما هو ذنب الناقص الذي لم يُعط ذاك الكمال في حين قد أُعطي صاحبه ذلك؟ ومن هذا النمط أيضاً الناقص في الأعضاء ذاتاً كمن ولد وهو أعمى أو به عرج أو تشويه في الخلقة أو ما إلى ذلك.

الثاني : أن يقال: إنّ مصائب الدنيا ومحنها ظلم للعباد، كالفقر والمرض وما إلى ذلك من المحن والابتلاءات.

---

(١) س ٣٨ ص، الآية: ٢٨.　　(٢) س ٤٥ الجاثية، الآية: ٢١.

والفرق بين الوجهين: أنّ الأوّل ينظر إلى المشاكل الذاتيّة كالبلادة أو المعتوهية أو النقص في الخلقة، والثاني ينظر إلى المشاكل العرضيّة كالفقر أو المرض أو الزلازل أو الطوفان أو الطاعون أو القحط أو ما إلى ذلك.

وقد يجاب عن الأوّل فلسفيّاً: بأنّ الذاتي لا يعلّل، وأنّ الله تعالىٰ لم يسلب من الناقص شيئاً كي يكون ذلك ظلماً، وإنّما كان بذاته ناقصاً، والله خلقه، وهذا معنى ما قد يقال: إنّ الله لم يجعل المشمش مشمشاً بل أوجده.

إلّا أنّ هذا الجواب إن تمّ لم يشمل الوجه الثاني.

أمّا الجواب الشامل لكلا الوجهين فحاصله: جهل البشر بالمصالح والمفاسد، فربّما تكون المصلحة في العمى، ولو كان الأعمى بصيراً لانهمك في معاصي العين مثلاً، وربّما تكون المصلحة في الفقر كما إذا كان هذا الإنسان ليطغى أن رآه استغنى.

وقد دلّت علىٰ ذلك روايات عديدة من قبيل ما ورد في الكافي عن أبي عبيدة الحذّاء بسند صحيح عن أبي جعفرؑ قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عزّوجلّ: إنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلّا بالغنى والسعة والصحّة في البدن فأبلوهم بالغنى والسعة وصحّة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم.

وإنّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلّا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين.

وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي، فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيتهجّد لي الليالي فيتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة

والليلتين نظراً منّي له وإبقاءً عليه، فينام حتّىٰ يصبح فيقوم وهو ماقت لنفسه زارئٌ عليها، ولو اُخلّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه حتّىٰ يظنّ أنّه قد فاق العابدين وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك وهو يظنّ أنّه يتقرّب إليّ، فلا يتّكل العاملون علىٰ أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنّهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من: كرامتي والنعيم في جنّاتي ورفيع درجاتي العلى في جواري، ولكن فبرحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا؛ فإنّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومَنّي يبلّغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإنّي أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت»(١).

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام قال الله عزّ وجلّ: «عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلّا جعلته خيراً له، فليرض بقضائي وليصبر علىٰ بلائي وليشكر نعمائي، أكتبه يا محمّد من الصدّيقين عندي»(٢).

وفي حديث ثالث عن الصادق عليه السلام بسند صحيح إنّ فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى بن عمران عليه السلام: «يا موسى بن عمران، ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من عبدي المؤمن، فإنّي إنّما أبتليه لما هو خير له، وأُعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر علىٰ

---

(١) الكافي ٢ : ٦٠ ـ ٦١، باب الرضا بالقضاء من كتاب الايمان والكفر، الحديث ٤.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٦.

بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي، أكتبه في الصدّيقين عندي إذا عمل برضائي وأطاع أمري»[١].

وفي حديث رابع عن ابن أبي يعفور بسند صحيح عن الصادق عليه السلام قال: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عزّ وجلّ له قضاءً إلّا كان خيراً له، وإن قرّض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»[٢].

والآيات القرآنيّة التي تشير إلى جهل الناس بالمصالح والمفاسد عديدة من قبيل:

١ ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

٢ ـ قال عزّ وجلّ في سياق إرث الآباء والأولاد: ﴿آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾[٤].

٣ ـ ورد في قصّة موسى عليه السلام مع عبد من عباد الله ـ الذي قال عزّ وجلّ بشأنه: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[٥] ـ: أنّ موسى عليه السلام ناقشه في المسائل الثلاث المعروفة والمذكورة في القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[٦]، وقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾[٧]، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[٨]، ثُمّ أجابه ذاك العبد ببيان مصالح تلك الأعمال.

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٧.
(٢) المصدر السابق: ٦٢، الحديث ٨.
(٣) س ٢ البقرة، الآية: ٢١٦.
(٤) س ٤ النساء، الآية: ١١.
(٥) س ١٨ الكهف، الآية: ٦٥.
(٦) س ١٨ الكهف، الآية: ٧١.
(٧) س ١٨ الكهف، الآية: ٧٤.
(٨) س ١٨ الكهف، الآية: ٧٧.

وحاصل الكلام أنّ في البلايا والمحن مصالح وملاكات لا نعلمها ويعلمها الله تعالىٰ، وقد ذكر بعض تلك المصالح في الآيات والروايات منها:

١ ـ الامتحان:

قال الله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

وقد ورد عن محمّد بن قيس بسند صحيح قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ ملكين هبطا من السماء فالتقيا في الهواء، فقال أحدهما لصاحبه: في ما هبطت؟ قال: بعثني الله عزّ وجلّ إلى بحر إيل أحشر سمكة إلى جبّار من الجبابرة اشتهى عليه سمكة في ذلك البحر، فأمرني أن أحشر إلى الصيّاد سمك البحر حتّىٰ يأخذها له ليبلغ الله عزّ وجلّ غاية مناه في كفره[2]، ففي ما بعثت أنت؟ قال: بعثني الله عزّ وجلّ في أعجب من الذي بعثك فيه، بعثني إلى عبده المؤمن الصائم القائم المعروف دعاؤه وصوته في السماء لأُكفئ قدره التي طبخها لإفطاره ليبلغ الله في المؤمن الغاية في اختبار إيمانه»[3].

وهذا محتمل روايات شدّة البلاء بشدّة الإيمان، فكلّما قوي إيمان الشخص وخرج من الامتحان الأدنى استحقّ الامتحان الأعلىٰ؛ لتصعد درجات إيمانه، من قبيل ما ورد بسند صحيح عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثُمّ الذين يلونهم ثُمّ الأمثل فالأمثل»[4]، فحال الإنسان

---

(١) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٢ ـ ٣.
(٢) كأنّه إشارة إلى الاستدراج.
(٣) البحار ٦٧ : ٢٢٩، باب شدّة ابتلاء المؤمن وعلّته، الحديث ٤٠.
(٤) الكافي ٢ : ٢٥٢، باب شدّة ابتلاء المؤمن، الحديث ١.

في صعوده مدارج الإيمان حال الطالب في المدرسة، كلّما يصعد من مستوى من دروسه العلميّة والفكريّة إلى مستوى أرقى يصل في امتحاناته أيضاً إلى ما هو أشدّ وأصعب.

٢ ـ التنبيه والتأديب:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وقال عزّ من قائل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، وليس ذلك خاصّاً بالمجرمين أو الفسقة بل يتصوّر حتّىٰ بشأن الأولياء والأنبياء في مستوى حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين كما اتّفق في القصّة المعروفة ليونس عليه السلام، وكما ورد في قصّة يعقوب عليه السلام: من أنّ ما أصابه من البلاء كان نتيجة غفلة له عن التصدّق علىٰ فقير مؤمن صائم هتف علىٰ بابه مراراً وهم يسمعونه وجهلوا بحاله ولم يصدّقوه، فلمّا يئس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله عزّ وجلّ، وبات طاوياً وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله تعالىٰ، وبات يعقوب عليه السلام وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضلة من الطعام، فكانت نتيجة ذلك أنّه نزل عليهم البلاء المعروف، وأوحى فيما أوحى الله إليه في صبيحة تلك الليلة: «لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلّة استجررت بها غضبي واستوجبت بها أدبي ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلىٰ ولدك... أوَ ما علمت يا يعقوب أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟ وذلك حسن

---

(١) س ٣٢ السجدة، الآية: ٢١.

(٢) س ٣٠ الروم، الآية: ٤١.

النظر منّي لأوليائي واستدراج منّي لأعدائي»[١].

### ٣ـ كفّارة الذنوب :

ورد عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «ما من الشيعة عبد يقارف أمراً نهيناه عنه فيموت حتّىٰ يبتلى ببليّة تمحّص بها ذنوبه، إمّا في مال وإمّا في ولد وإمّا في نفسه حتّىٰ يلقى الله عزّ وجلّ وما له ذنب، وإنّه ليبقى عليه الشيء من ذنوبه فيشدّد به عليه عند موته»[٢].

وقصّة السمكة التي مضى ذكرها آنفاً وردت بشكل آخر مشتمل علىٰ مسألة كفّارة الذنب ولعلّهما قصّتان، فعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ولقد سمعت محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّه كان فيما مضى قبلكم رجلان، أحدهما مطيع لله مؤمن والآخر كافر به مجاهر بعداوة أوليائه وموالاة أعدائه، وكلّ واحد منهما مَلِك عظيم في قطر من الأرض، فمرض الكافر، فاشتهى سمكة في غير أوانها؛ لأنّ ذلك الصنف من السمك كان في ذلك الوقت في اللجج بحيث لا يقدر عليه، فآيسته الأطبّاء من نفسه، وقالوا: استخلف في ملكك من يقوم به، فلست بأخلد من أصحاب القبور، فإنّ شفاءك في هذه السمكة التي اشتهيتها ولا سبيل إليها. فبعث الله مَلَكاً وأمره أن يزعج تلك السمكة إلى حيث يسهل أخذها، فأُخذت له تلك السمكة فأكلها وبرئ من مرضه وبقي في ملكه سنين بعدها.

ثُمّ إنّ ذلك الملِك المؤمن مرض في وقتٍ كان جنس ذلك السمك بعينه لا يفارق الشطوط التي يسهل أخذه منها مثل علّة الكافر، فاشتهى تلك السمكة

---

(١) البحار ١٢ : ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) البحار ٦٧ : ٢٣٠، باب شدّة ابتلاء المؤمن وعلّته، الحديث ٤٣.

ووصفها له الأطبّاء، وقالوا: طب نفساً فهذا أوانه تؤخذ لك فتأكل منها وتبرأ. فبعث الله ذلك المَلَك فأمره أن يزعج جنس تلك السمكة عن الشطوط إلى اللجج لئلّا يقدر عليه، فلم توجد حتّىٰ مات المؤمن من شهوته وبعدم دوائه.

فعجب من ذلك ملائكة السماء وأهل ذلك البلد في الأرض حتّىٰ كادوا يفتنون؛ لأنّ الله تعالىٰ سهّل علىٰ الكافر ما لا سبيل له إليه وعسّر علىٰ المؤمن ما كان السبيل إليه سهلاً، فأوحى الله إلى ملائكة السماء وإلى نبيّ ذلك الزمان في الأرض: أنّي أنا الله الكريم المتفضّل القادر، لا يضرّني ما أُعطي ولا ينقصني ما أمنع ولا أظلم أحداً مثقال ذرّةٍ، فأمّا الكافر فإنّما سهّلت له أخذ السمكة في غير أوانها ليكون جزاءً علىٰ حسنة كان عملها، إذ كان حقّاً ألّا أُبطل لأحد حسنة حتّىٰ يرد القيامة ولا حسنة في صحيفته ويدخل النار بكفره، ومنعت العابد تلك السمكة بعينها لخطيئة كانت منه، فأردت تمحيصها عنه بمنع تلك الشهوة وإعدام ذلك الدواء، وليأتيني ولا ذنب عليه فيدخل الجنّة»[١].

٤ ـ رفع الدرجات:

ورد عن أبي يحيى الحنّاط عن عبدالله بن أبي يعفور «قال: شكوت إلى أبي عبدالله عليه السلام ما ألقى من الأوجاع ـ وكان مسقاماً[٢] ـ فقال لي: يا عبدالله، لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب لتمنّى أنّه قُرّض بالمقاريض»[٣]، وعن فضيل بن يسار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ في الجنّة منزلة لا يبلغها عبد إلّا

---

(١) أُنظر البحار ٦٧: ٢٣٣ ـ ٢٣٤، باب شدّة ابتلاء المؤمن وعلّته، الحديث ٤٨.

(٢) كأنّ هذا كلام أبي يحيى الحنّاط يعني أنّ عبدالله بن أبي يعفور كان مسقاماً.

(٣) الكافي ٢: ٢٥٥، باب شدّة ابتلاء المؤمن من كتاب الإيمان والكفر، الحديث ١٥.

بالابتلاء في جسده»[١].

وثلاثة من هذه الملاكات الأربعة: الامتحان، وكفّارة الذنب، ورفع الدرجات تناسب المؤمن أكثر ممّا تناسب الفاسق، وواحد منها وهو التنبيه، إن كان بمعنى التذكير فحسب ناسب المؤمن أيضاً، كما ورد في صحيحة محمّد بن مسلم قال: «سمعت أبا عبداللهعليه‌السلام يقول: المؤمن لا يمضي عليه أربعون ليلة إلّا عرض له أمر يحزنه يذكَّر به»[٢].

وإن كان بمعنى العذاب ناسب الفاسق والفاجر، وعليه فأكثر الوجوه الماضية حتّىٰ الآن تناسب المؤمن؛ ولهذا ترىٰ بعض الروايات تؤكّد علىٰ ضرورة ابتلاء المؤمن ببعض البلاء والمحن، من قبيل: ما عن ذريح المحاربي عن أبي عبداللهعليه‌السلام قال: «كان عليّ بن الحسينعليه‌السلام يقول: إنّي لأكره للرجل أن يعافى في الدنيا فلا يصيبه شيء من المصائب»[٣]، وما عن أبي داود المسترق قال: «قال أبو عبداللهعليه‌السلام: دُعي النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله إلى طعام، فلمّا دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت فتقع البيضة علىٰ وتد في حائط فثبتت عليه ولم تسقط ولم تنكسر، فتعجّب النبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله منها، فقال له الرجل: أعجبت من هذه البيضة فوالذي بعثك بالحقّ ما رزئت شيئاً قطّ. قال: فنهض رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله ولم يأكل من طعامه شيئاً وقال: من لم يُرزأ فما لله فيه من حاجة»[٤]، وماعن عبدالرحمن وأبي بصير عن أبي عبداللهعليه‌السلام قال: «قال رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله: لا حاجة لله في من ليس له في ماله وبدنه نصيب»[٥].

---

(١) المصدر السابق، الحديث ١٤.

(٢) المصدر السابق : ٢٥٤، الحديث ١١.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٦، الحديث ١٩.

(٤) المصدر السابق : ٢٥٦، الحديث ٢٠.

(٥) المصدر السابق، الحديث ٢١.

٥ ـ المجازاة وإنزال العذاب :

وهذا ما يناسب الفسقة والفجرة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2]، وقال عزّ من قائل: ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

وفي الحديث عن إبراهيم بن أبي زياد عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ الله تعالىٰ إذا غضب علىٰ أُمّة ثُمّ لم ينزل بها العذاب أغلى أسعارها وقصّر أعمارها، ولم تربح تجارها ولم تغزر أنهارها ولم تزك ثمارها، وسلّط عليها شرارها وحبس عليها أمطارها»[4].

وعن العبّاس بن عليّ الشامي قال: «سمعت الرضا عليه السلام يقول: كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أُحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[5].

وعن محمّد بن القاسم بن الفضيل بن يسار عن أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ١٦ ـ ١٧. (٢) س ١٦ النحل، الآية: ١١٢.

(٣) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٤٠.

(٤) البحار ٧٣: ٣٥٣، باب الذنوب وآثارها، الحديث ٥٧.

(٥) المصدر السابق: ٣٥٤، الحديث ٥٨.

قال: «من يموت بالذنوب أكثرممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار»(١).

وعن أبي حمزة عن أبي جعفرعليه السلام قال: «وجدنا في كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طُفّف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركاتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا علىٰ الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم»(٢).

**تنبيهات :**

**التنبيه الأوّل :** إنّ في المصائب التي تعتبر جزاءً للأعمال وعقوبة عليها يحتمل الارتباط التكويني بينها وبين الأعمال، بأن يكون مثلاً موت الفجأة أثراً وضعيّاً لظهور الزنا، والقحط أثراً وضعيّاً لتطفيف المكيال والميزان وهكذا، وكذلك الخيرات والبركات التي ربطت بأعمال الخير يحتمل ارتباطها بها تكويناً، بأن تكون أثراً وضعيّاً لها، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا**

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٥٩.

(٢) الكافي ٢ : ٣٧٤، باب في عقوبات المعاصي العاجلة من كتاب الإيمان والكفر، الحديث ٢.

يَكْسِبُون﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُون﴾[٢]، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٣].

وكذلك ما تورث الذنوب من سلب التوفيقات الخيريّة لا يبعد أن تكون باقتضاءات تكوينيّة وآثار وضعيّة، وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل ليذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإنّ عمل الشرّ أسرع في صاحبه من السكّين في اللحم»[٤]، وعن ابن نباتة قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما جفّت الدموع إلّا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب»[٥].

التنبيه الثاني: إنّ روايات كون صلاح المؤمن أحياناً في البلاء والمصيبة ـ لكفّارة ذنب أو لإعلاء درجة أو لتنبيه أو لتذكير أو نحو ذلك ـ لا يعني نفي الدعاء باعتبار أنّ الله حينما بلى المؤمن بهذا البلاء كان له فيه الخير فلا معنى لدعاء المؤمن لكشف ذلك الكرب، فإنّ الجواب: أنّ الدعاء بنفسه يساعد علىٰ نفس فائدة البلاء من غفران الذنب أو رفع الدرجات أو القرب إلى الله، فإنّ الدعاء نوع من العبادة ونحن مأمورون به.

وكذلك لا يعني نفي العلاج بالأسباب الطبيعيّة، فإنّنا مأمورون بمتابعة الأسباب الطبيعيّة مع حفظ حالة التوكّل علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ والثقة به.

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ٩٦.

(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٦٦.

(٣) س ١٣ الرعد، الآية: ١١.

(٤) البحار ٧٣: ٣٥٨، باب الذنوب وآثارها، الحديث ٧٤.

(٥) المصدر السابق: ٣٥٤، الحديث ٦٠.

التنبيه الثالث : إنّ تعدد أسباب البلاء قد أوجب الستر، فلو كان سبب البلاء منحصراً في مثل المجازاة أو التأديب أو الكفّارة لكان ابتلاء المؤمن به كاشفاً عن خطئه أو معصيته، ولكن بما أنّه توجد إلى جنب هذه الأسباب أسباب أُخرىٰ، من قبيل الامتحان أو رفع الدرجات أو نحو ذلك، فقد أوجب هذا ستراً علىٰ العبد المؤمن، وهذا من الألطاف الخفيّة للربّ عزّ وجلّ بعباده.

التنبيه الرابع : قد يكون سبب نزول البلاء هم الأشرار ولكن البلاء النازل يشمل الأخيار؛ إمّا لمداهنتهم مع الأشرار وترك النهي عن المنكر ونحو ذلك؛ وإمّا لأنّ البليّة بطبيعتها التكوينيّة حينما تنزل تعمّ، ولكن الله تعالىٰ يعوّض المؤمن غير المداهن، وقد ورد عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «أوحى الله إلى شعيب النبيّ: أنّي معذّب من قومك مئة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستّين ألفاً من خيارهم، فقال عليه السلام: يا ربّ، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[(١)].

وورد عن الجعفري قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ما لي رأيتك عند عبدالرحمن بن يعقوب؟! فقال: إنّه خالي. فقال: إنّه يقول في الله قولاً عظيماً يصف الله ولا يوصف، فإمّا جلست معه وتركتنا وإمّا جلست معنا وتركته. فقلت: هو يقول ما شاء، أيّ شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً؟ أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلمّا لحقت خيل فرعون موسى تخلّف عنه ليعظ أباه فيلحقه بموسى، فمضى أبوه وهو يراغمه حتّى بلغا طرفاً من البحر فغرقا جميعاً، فأتى موسى عليه السلام الخبر فقال: هو في رحمة الله، ولكن النقمة

---

(١) البحار ١٢ : ٣٨٦، باب قصص شعيب، الحديث ١٢.

إذا نزلت لم يكن لها عمّن قارب المُذنب دفاع»[١].

التنبيه الخامس: كان كلامنا إلى هنا في البلايا والمحن الإلهيّة، أمّا ظلم البشر للبشر الموجب لإيذائه فهو خارج عن هذا البحث، لا بمعنى عدم تطرّق تلك الوجوه إليه ـ فقد يكون تسلّط الظالم أيضاً امتحاناً أو كفّارة أو مجازاة أو ما إلى ذلك ـ بل بمعنى عدم الحاجة إلى تلك الأجوبة فيها، فإنّ الحكمة الربّانيّة شاءت أن يكون البشر متمتّعاً بالإرادة والقدرة والشهوات؛ إذ لا يتمّ بدونها إمكان صعود مدارج الكمال ولا نزول سلّم الدركات، ولازم ذلك أنّه قد يظلم بعض بعضاً، ويكفي في رفع إشكال ظلم الله تعويضه عزّ وجلّ المظلوم غير المقصّر.

وبالنسبة لخصوص الظلم الاقتصادي فقد يشير بعض الآيات إلى أنّ الله تعالىٰ أكمل النعم الاقتصاديّة الكامنة في الطبيعة للناس وكنزها فيها، فيرجع حرمان البعض إلى ظلم البشر نفسه سواء كان بمعنى ظلم فئة لفئة، أو بمعنى ظلم نفس المُعدمين لأنفسهم بعدم القيام بوظيفة الاستخراج، قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٢].

٢ ـ ﴿قُلْ ءَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ

---

(١) الكافي ٢: ٣٧٤ ـ ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، الحديث ٢.

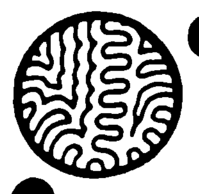
(٢) س ١٤ إبراهيم، الآية: ٣٢ ـ ٣٤.

**رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِين﴾**[١].

وبهذا المقدار المختصر نكتفي في البحث عن بعض صفات الله عزّ وجلّ للذات أو للفعل، ونحوّل من أراد الاستيفاء إلى المطوّلات.

---

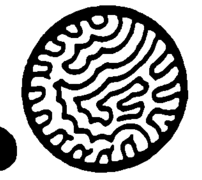
(١) س ٤١ فصّلت، الآية: ٩ ـ ١٠.

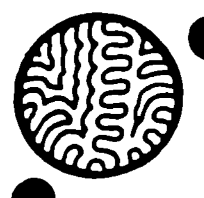



الفصل الثاني

# النبوّة

- النبوّة العامّة.
- النبوّة الخاصّة.

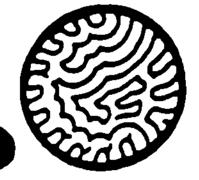






النبوّة
١

# النبوّة العامّة

○ البحث الأوّل : ضرورة بعث الأنبياء.
○ البحث الثاني : أدلّة النبوّة.
○ البحث الثالث : الوحي.
○ البحث الرابع : عصمة الأنبياء.

نذكر تحت عنوان النبوّة العامّة عدّة أبحاث:

# البحث الأوّل: ضرورة بعث الأنبياء

قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[1].

﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّـمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾[2].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾[4].

---

(١) س ٤ النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ١٥٥ ـ ١٥٧.
(٣) س ٥ المائدة، الآية: ١٩.
(٤) س ٢٠ طه، الآية، ١٣٤.

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[١].

إنّ الله سبحانه وتعالىٰ قد دبّر أُمور الجمادات والنباتات بأحسن تدبير من: سير الشمس وحركة القمر وجري الأنهار وإرسآء الجبال وغير ذلك ممّا مضى جزء يسير منه في أحد أدلّتنا علىٰ وجود الله سبحانه وتعالىٰ. وهذه أُمور لا إرادة لها ولا شعور ولا إدراك بحسب ما نفهمه نحن في نشأتنا من الإرادة والإدراك، وإن كان الأمر بحسب عالم العرفان بشكل آخر فإنّه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدَه﴾[٢]، ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾[٣]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾[٤]، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّه﴾[٥]، فبغضّ النظر عن هذا الفهم العرفاني وبالنظر إلى ما هو المعروف لنا في نشأة الإنسانيّة من فهم وإرادة نقول: إنّ الجماد والنبات مدبّرٌ أمرهما بأحسن وجه جبراً وقهراً عليهما، ويلحق بذلك أبداننا وأعضاؤنا، فهي كالنباتات لا إرادة لها ولا شعور فيما نفهم ما لم يظهر الله لنا نشأتها التي يصدق بشأنها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْء﴾[٦]، فقد دُبّرت أُمورها من دون إرادتها بأحسن تدبير وحتّىٰ بلحاظ الكماليات، من قبيل: أنّه جعل فوق العين حاجباً يمنع من نزول العرق إليها، وأوجد في ناصية الإنسان خطوطاً ليسهل انحراف العرق يميناً ويساراً، وجعل الشعر علىٰ أشفار العين صيانة لها من الدخان والغبار، وقعّر الأخمص من القدمين لتسهيل الوقوف والمشي، وقد قال أُستاذنا الشهيد ﷺ: «كلّ شيء في هذا الكون الواسع (يعني

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ١٥.
(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٤٤.
(٣) س ١٣ الرعد، الآية: ١٣.
(٤) س ٥٩ الحشر، الآية: ٢١.
(٥) س ٢ البقرة، الآية: ٧٤.
(٦) س ٤١ فصّلت، الآية: ٢١.

الجماد والنبات والجسد الإنساني والحيواني) يحمل معه قانونه الربّاني الصارم الذي يوجّهه ويرتفع به مدى ما يتاح له من ارتفاع وتطوّر، فالبذرة يتحكّم فيها قانونها الذي يحوّلها ضمن شروط معيّنة إلى شجرة، والنطفة يتحكّم فيها قانونها الذي يطوّرها إلى إنسان، وكلّ شيء: من الشمس إلى البروتون، ومن الكواكب السيّارة في مدار الشمس إلى الالكترونات السيّارة في مدار البروتون، يسير وفق خطّة، ويتطوّر وفق إمكاناته الخاصّة»[١].

وهناك ما يكون أعلىٰ درجة في سلّم الوجود من الجمادات والنباتات وهي الحيوانات؛ فإنّها تملك شيئاً من الإرادة ونحواً من الشعور، ولا تتدبّر كلّ أُمورها بالجبر كما في الجمادات والنباتات، فسلّط الله عليها لتمشية أُمورها الغرائز، فهي في الحيوانات بمنزلة الجبر في الجمادات والنباتات، فالحيوان بغريزته يحسّ بالجوع فيأكل أو بالعطش فيشرب الماء، أو بالحاجة الجنسيّة فيديم عن هذا الطريق بقاء جنسه وما إلى ذلك، وهذا المقدار من تدبير أُمور الحيوانات يكفي لبلوغها الكمال المترقّب لها.

وهناك ما يكون أعلىٰ درجة في سلّم الوجود من الحيوانات، فيمتلك الإرادة الكاملة والإدراك الكامل، وهو الإنسان والجنّ والملك، وهذا الثالث لا يمتلك الشهوات وإنّما يمتلك العقل، فلا يبلغ في الكمال ما يمكن للإنسان أن يبلغه؛ لأنّ بلوغه إيّاه يتوقّف علىٰ ضغطه بإرادته علىٰ شهواته وتضحيته لرغباته وميولاته النفسيّة، في حين أنّ الملك يفقد ذلك. والإثنان الأوّلان ـ وهما الإنسُ والجنّ ـ لا شكّ في أنّ أشرفهما هو الإنس، وبامتلاكه للإرادة من ناحية، وللعقل من ناحية أُخرىٰ، وللشهوات من ناحية ثالثة، وللقدرة والسلطنة والاختيار أصبح قادراً علىٰ رقيّ مدارج الكمال التي لا يرقىٰ إليها الجماد والنبات، بل ولا

---

(١) الفتاوى الواضحة : ٦٣.

الملك عن طريق التضحيات وتحصيل الملكات الفاضلة من الإيثار والوفاء والصدق، وما إلى ذلك وعلىٰ رأسها طاعة المولى سبحانه وتعالىٰ.

إلّا أنّ بلوغه مرتبة الكمال في الدنيا من ناحية، والجزاء الأوفىٰ في الآخرة من ناحية أُخرىٰ لا يكون عن طريق الجبر؛ لأنّه خلف مقام الإرادة التي بها يتمّ الكمال، فمن التزم بالصدق والأمانة وإطاعة مولاه أو ما إلى ذلك من صفات الكمال بالجبر والاضطرار لم يكن محموداً ولم يكن بالغاً مرتبة الكمال، وإنّما يبلغ الكمال بفعل الحسن باختياره، وبالإيثار والوفاء والصدق وما إلى ذلك بمحض إرادته، وكذلك لا يكون عن طريق الغريزة؛ لأنّها بمنزلة الجبر وقريبة منه فتمنع عن الوصول إلى الكمال أو بلوغ الجزاء الأوفىٰ.

وعليه فيدور الأمر بالنسبة للإنسان ـ ويلحق به الجنّ ـ بين: أن يهمله الله تعالىٰ ولا يهتم بتكميله، وحاشاه سبحانه وتعالىٰ عن إهماله لأشرف مخلوقيه، أو يدبّر أمره عن طريق الجبر أو الغريزة، وهما ينافيان الهدف الذي لأجله ركّبت الإرادة والشهوات والعقل في الإنسان، وهو فتح باب رقيّه لمدارج الكمال ونيله لاستحقاق الجزاء الأوفىٰ، أو يرسل الرسل إليه؛ لأنّ عقل البشر وحده عاجز عن ارتقاء تلك الدرجات؛ لعدم دركه لكثير من الأُمور من ناحية، ولمغلوبيّة العقل للشهوات في ما يدرك إلّا بمعونة الشرع وبالوعد والوعيد والإرشاد من ناحية أُخرىٰ، ولو أنّ الله تعالىٰ أهمل الناس بعدم إرسال الرسل إليهم فسيضلّون عن سلوك طريق الكمال، وفي الوقت نفسه لا يكون لله عليهم الحجّة، ولم يكن من الصحيح أن يفرّق الله بين سعيدهم وشقيّهم في يوم القيامة بالثواب والعقاب؛ لعدم إتمام الحجّة عليهم، بل كانت لهم الحجّة علىٰ الله كما أشارت إلى هذا الأمر الآيات التي استهللنا البحث بها كقوله تعالىٰ: **﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾**.

ومع هذا الهدف الأصلي لإرسال الرسل يوجد هدفان آخران:

أحدهما: إقامة العدل في العالم، وهذا هدف في ذاته من ناحية، ومقدمة لرقيّ مدارج الكمال من ناحية أُخرىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1]، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾[3].

وإقامة العدل في العالم لا يمكن إلّا بالتوفيق بين المصالح الفرديّة والمصالح الاجتماعيّة، فإنّ الإنسان بطبيعته ميّال عادة إلى مصالحه الفرديّة وهي ـ في إطار المادّيات الدنيويّة وبقدر فهم الإنسان الاعتيادي ـ في تعارض شديد مع المصالح الاجتماعيّة، وهذا التوفيق هو الذي يحقّقه الأنبياء عن طريق فتح باب الالتذاذ بالقيم الخلقيّة من ناحية، وتوضيح مصالح عالم الآخرة للناس من ناحية أُخرىٰ.

ثانيهما: إسعاد الحياة الدنيا المادّية ورفاهيّتها؛ إذ ليس الدين ينشد إسعاد الحياة الآخرة فحسب، ولا ترقية الإنسان مراقي الكمال فحسب، بل يهدف إلى تحقيق الرفاهيّة المادّية في الحياة الدنيا أيضاً، قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4].

٢ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾[5].

٣ ـ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾[6].

---

(١) س ٥٧ الحديد، الآية: ٢٥.
(٢) س ٣٨ ص، الآية: ٢٦.
(٣) س ٤ النساء، الآية: ١٠٥.
(٤) س ٧ الأعراف، الآية: ٩٦.
(٥) س ٥ المائدة، الآية: ٦٦.
(٦) س ١١ هود، الآية: ٥٢.

٤ ـ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾[1].

والخلاصة : أنّ الناس لو اتّبعوا الرسول لأصبحوا سادة الدنيا والآخرة، وإلّا فلا يكون الأمر أفضل ممّا ترىٰ اليوم من نشوب الحروب وألوان الظلم والجور والاستهتار بالقيم الإنسانيّة والخلقيّة، وتفشّي ألوان البؤس والشقاء والحرمان، والسبب كلّه يعود إلى ما أشرنا إليه من ضعف عقل البشريّة من ناحية، وغلبة الشهوات والأهواء عليه من ناحية أُخرىٰ. فالسيادة والملوكيّة الحقيقيتان في الدنيا والآخرة مرتبطتان باتّباع رسالة السماء.

ويعجبني هنا ذكر هذه الرواية الطريفة: «لمّا أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكّة اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا، فإن كان الذي يحمله علىٰ ذلك العدم جمعنا له مالاً حتّى يكون أغنى رجل في قريش ونملّكه علينا. فأخبر أبوطالب رسول الله ﷺ بذلك، فقال: لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته، ولكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم ويكونون ملوكاً في الجنّة. فقال لهم أبوطالب ذلك فقالوا: نعم وعشر كلمات. فقال لهم رسول الله ﷺ: تشهدون أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله. فقالوا: ندع ثلاث مئة وستّين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً؟! فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾»[2].

* * *

---

(١) س ٧١ نوح، الآية: ١٠ ـ ١٢.

(٢) راجع تفسير علي بن إبراهيم ٢ : ٢٢٨ ـ ٢٢٩، والآيات في سورة ٣٨ ص، الآية: ٤ ـ ٥.

# البحث الثاني : أدلّة النبوّة

قد ذكرت تحت هذا العنوان عدّة أدلّة:

## الدليل الأوّل : إخبار نبيّ سابق

كما ورد في القرآن الكريم بشأن رسول الله ﷺ:

١ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(١).

٢ ـ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

٣ ـ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣).

وهذا الوجه صحيح، ولكنّه ليس هو الوجه الأصلي؛ لاحتياجه إلى دليل سابق علىٰ نبوّة النبيّ السابق.

## الدليل الثاني : مضمون الدعوة

لا إشكال في أنّ مضمون الدعوة يلقي ضوءاً واضحاً علىٰ صدق الرسالة

(١) س ٦١ الصفّ، الآية: ٦.
(٢) س ٢ البقرة، الآية: ١٤٦.
(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ١٥٧.

وكذبها، فبقدر ما يكون المضمون مشتملاً علىٰ مفاهيم ونُظُم وأخلاقيّات رفيعة وعالية ونظيفة، يكون ذلك شاهداً علىٰ كونها سماويّة وإلّهية، ولو كانت مشتملة علىٰ الخرافات أو الأخلاقيّات الخسيسة أو النُظُم الساقطة عقلاً تبرهن بـذلك علىٰ كذب مدّعي الرسالة.

ولا استغراب من بلوغ رقيّ المضمون حدّاً لا يحتمل صدوره من سلطان من سلاطين الأرض، بل الواقع هو ذلك. فما ظنّك بدين مشتمل علىٰ نماذج كثيرة من مفاهيم وأحكام وأخلاقيّات لا يمكن أن يتصوّر أرقىٰ منها، من قبيل: الاهتمام الجدّي بالالتزام بأرقىٰ مستويات الخلق الرفيع حتّى مع أعدى عدوّه، فهل هناك عدوّ لله وللإسلام أكبر وأشدّ عداءً من المشرك؟ في حين أنّ الإسلام يؤكّد علىٰ ضرورة إيجار المشرك الذي استجارك ثمّ إبلاغه مأمنه عملاً بـعهد الإيجار معه، في حين أنّه بمجرّد وصوله إلى مأمنه قد يحارب الإسلام بالسيف، وأيّ سلطان من سلاطين الأرض يحتمل ـ بحسب نُظُم الطبيعة ـ وصوله إلى هذا المستوى من رحابة الصدر في التمسّك بالأخلاق الرفيعة؟! قال الله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾**[1]، ويؤكّد علىٰ ضرورة الوفاء بالعهد مع أعدى عدوّه، بالرغم من أنّ الإسلام كان وقتئذٍ يعيش ذروة قدرته ولم يكن يحتاج إلى مداهنة العدوّ، قال الله تعالىٰ: **﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾**[2]، وقال أيضاً: **﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّـهَ**

---

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٦.
(٢) س ٩ التوبة، الآية: ٤.

**يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾**[1].

ومن قبيل أمر الأولاد بخفض جناح الذلّ للوالدين، ولو كانا من أعدى أعداء الله، أي كانا من المشركين، قال الله تعالىٰ: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾**[2]، **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[3]، **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[4]، **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾**[5].

والدليل علىٰ أنّ هذه الآيات تشمل الوالدين المشركين هو ما ورد في بعضها من النهي عن قبول قولهما في الأمر بالشرك، فهذا يعني أنّ الله يعلّم الأولاد علىٰ التذلّل والتخشّع للوالدين ولو كانا من أشدّ أعداء الله وهم المشركون، لا لشيء إلّا للحقّ الأخلاقيّ الثابت لهما علىٰ الولد؛ لكونهما من المقدّمات الإعداديّة لوجوده؛ ولتحمّل الأُمّ عناء الحمل والوضع والرضاع، علىٰ الرغم من أنّهما قد يكونان قد فعلا ما فعلا، وتحمّلت الأُمّ ما تحمّلت لإرضاء رغبات نفسيّة لا أكثر

---

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٧.

(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) س ٣١ لقمان، الآية: ١٤ ـ ١٥.

(٤) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٨.

(٥) س ٤٦ الأحقاف، الآية: ١٥.

من ذلك، وأيّ سلطان أرضيّ يمكنك أن تتصوّره آمراً لرعيته بخفض جناح الذلّ لأعدى أعدائه وألدّهم؟

وأيّ دين غير سماوي يستطيع أن يربّي أحداً بمستوى المواساة بترك شرب الماء عن عطش، حال بينهم وبين السماء كالدخان، بالرغم من أنّ شربه لم يكن يكلّفه تأخير الماء عن إمام زمانه كي يعدّ ذلك إيثاراً، بل كان مجرّد المواساة البحت وكأنّه افترضه واجباً علىٰ نفسه إلى حدّ قال:

والله ما هذا فعال ديـن    ولا فعال صادق اليقين

أفليس هذا المستوى من الخلق الإسلامي الرفيع فوق ما يتصوّر في التربية الطبيعيّة الأرضيّة؟

فإذا كانت الرسالة مليئة بنماذج من هذه الخلقيّات الرفيعة، وكـذلك بـنُظم وقوانين حكيمة متقنة، أفلا يورث ذلك القطع بسماويّة الدين وصحّة الرسـالة وصدق الرسول؟

## الدليل الثالث : تجميع قرائن مختلفة

إنّ القرائن المختلفة من ظروف الرسول وبيئته وحالاته، وما إلى ذلك قـد يورث بعضها أو مجموعها القطع بصحّة الرسالة وصدق الرسـول، فـمثلاً كـون الرسول صادقاً وأميناً لدى الناس مدّة حياته الطويلة قبل البعثة، وكذلك خروجه من بيئة جاهلة ضالّة منهمكة في الخرافات والحروب والرذائل، وعدم تتلمذه لدىٰ أيّ عالم من العلماء وعدم قراءته وكتابته وإتيانه علىٰ الرغم من كلّ ذلك بأرقى برنامج كامل شامل للحياة السعيدة، وكذلك كون القريبين منه والمؤمنين

به من المتّسمين بالصلاح وسلامة النفس، وما إلى ذلك من القرائن يوجب بمجموعه بل ببعضه اليقين بالصدق.

وقد نقل عن قيصر ملك الروم استناده إلى هذا الدليل في تصديق النبيّ ﷺ، فإنّه عندما كتب إليه الرسول محمّد ﷺ رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق دينه الذي أتى به، أخذ ـ بعد استلامه الرسالة ـ يتأمّل في عبارات الرسول وكيفية الكتابة حتّى وقع في نفسه احتمال صدق الدعوى، فأمر جماعة من حاشيته بالتجوّل في الشام والبحث عمّن يعرف الرسول عن قرب وله اطّلاع علىٰ أخلاقه ونفسيّاته، فانتهى البحث إلى العثور علىٰ أبي سفيان وعدّة كانوا معه في تجارة إلى الشام، فأُحضروا إلى مجلس قيصر فطرح عليهم الأسئلة التالية:

قيصر: كيف نسبه فيكم؟

أبو سفيان: محض أوسطنا نسباً.(يعني أعلانا نسباً).

قيصر: أخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبّه به؟

أبو سفيان: لا، لم يكن في آبائه من يدّعي ما يقول.

قيصر: هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إيّاه فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه؟

أبو سفيان: لا.

قيصر: أخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟

أبو سفيان: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأمّا ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد.

قيصر: أخبرني عمّن تبعه، أيحبّه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟

أبو سفيان: ما تبعه رجل ففارقه.

قيصر: أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه؟

أبو سفيان: سجال، يدال علينا وندال عليه.

قيصر: أخبرني هل يغدر؟

أبو سفيان: ـ لم أجد شيئاً ممّا سألني عنه أغمزه فيه غيرها فقلت ـ: لا ونحن منه في هدنة، ولا نأمن غدره (وأضاف أبو سفيان بأنّ قيصر ما التفت إلى الجملة الأخيرة منه).

ثمّ إنّ قيصر أبان وجه السؤال عن الأُمور السابقة، وأنّه كيف استنتج من الأجوبة التي سمعها من أبي سفيان أنّه نبيّ صادق بقوله:

سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنّه محض من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبيّ إذا أخذه لا يأخذه إلّا من أوسط قومه نسباً.

وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبّه به، فزعمت أن لا.

وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إيّاه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه، فزعمت أن لا.

وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنّهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كلّ زمان.

وسألتك عمّن يتبعه أيحبّه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه.

وسألتك هل يغدر، فزعمت أن لا، فلئن صدقتني عنه ليغلبنّي علىٰ ما تحت قدميّ هاتين، ولوددت أنّي عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك.

قال أبو سفيان: فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يديّ بالأُخرى وأقول: إي عباد الله! لقد أمِر أمرُ ابن أبي كبشة، أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام[1].

---

(١) الإلهيات ٢ : ١١٢ ـ ١١٤ نقلاً عن تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٠ ـ ٢٩١.

## الدليل الرابع : الإعجاز بمعنى خرق قوانين الطبيعة

وقد استدلّ العلماء رحمهم الله بذلك علىٰ النبوّة بحجّة أنّ إجراء المعجز علىٰ يد المتنبّئ الكاذب تغرير من قبل الله تعالىٰ لعباده بالجهل والضلال، وتعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

إلّا أنّ أُستاذنا الشهيد‌ لم يقبل هذا النمط من الاستدلال وقال: إنّه لولا وجود دلالة سابقة للإعجاز علىٰ حقّانيّة الرسول لما كان في إجرائه علىٰ يدي مدّعي الرسالة كذباً إغراء بالباطل، فدلالة الإعجاز علىٰ حقّانيّة الرسول ثابتة قبل هذا النوع من الاستدلال وبقطع النظر عنه[١].

أقول: يمكن أن يدّعي أحَدٌ كدفاع عن المشهور بأنّ الإعجاز له دلالة لدى عامّة الناس البسطاء علىٰ صدق مدّعي الرسالة يقيناً، وعندئذٍ فمن حق خاصّة الناس الذين لا ينغرّون بالحجج الوهميّة أن يستدلّوا علىٰ كشف الإعجاز عن الحقّانيّة، بأنّه لو كان يجرىٰ علىٰ يد كاذبٍ لكان في ذلك إغراء لعامّة الناس، وهذا غير جائز علىٰ الله سبحانه.

وأمّا أصل دلالة الإعجاز علىٰ حقّانيّة الرسول سابقاً وقبل الالتفات إلى نكتة التغرير فكلام متين، فإنّ من يأتي إلينا رسولاً من قبل شخص، ويستشهد لصدقه بإراءة ما هو من مختصّات المرسل وقد جعله عند الرسول علامة علىٰ أنّه جاء من قبله ـ كخاتم المرسل أو كرسالة تؤيّده أو نحو ذلك ـ نجزم بصدقه؛ إذ لولا أنّه قد جاء من قبله حقّاً فمن أين له هذا الشيء الذي هو من مختصّات المرسل؟! وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنّ خرق قوانين الطبيعة أمر مختصّ

---

(١) راجع كتابنا مباحث الأُصول، الجزء الأوّل من القسم الثاني : ٥٠٨.

بخالق الطبيعة ومقنّن تلك القوانين أو المعطىٰ من قبله ذلك، فلولا صدق هـذا الرسول ومجيئه من قبل الله فمن أين له بما هو من مختصّاته؟

**الطرق المتصوّرة للإعجاز:**

ثمّ إنّ الذي أشرنا إليه من أنّ الإعجاز يكون خرقاً لقوانين الطبيعة، والذي لا يوجد بحدّ ذاته إلّا لدى خالق الطبيعة ونُظُمها يتصوّر بعدّة طرق مذكورة من قبل علمائنا العظام، وكلّها أُمور معقولة:

**الأوّل**: أن يكون خرق تلك القوانين من قبل الله مباشرة بسبب طلب الرسول منه ذلك، وهو باعتباره خالقاً للطبيعة وواضعاً لقوانينها يستطيع خرقها.

**الثاني**: أن يكون الرسول قد علّمه الله تعالىٰ عوامل طبيعيّة أُخرىٰ تكون بدلاً من العوامل الظاهريّة التي يعلمها الناس، فبإعمالها يـحقّق الرسـول الغـرض. والخرق لقوانين الطبيعة هنا إنّما يكمن في الوصول إلى تلك العوامل الأُخرى من دون تحقيق الوسائل الطبيعيّة لكشفها، من قبيل وسائل الكشوف الحـديثة اليوم التي كشفت بها كثير من العوامل الطبيعيّة التي لم تكن منكشفة في قـديم الزمان.

**الثالث**: تصرّف النبيّ نفسه بولاية تكوينيّة وقوّة الروح المعطيتين له من قبل الله، وهنا يكمن خرق قوانين الطبيعة في الوصول إلى تلك الولاية أو قوّة الروح عن غير وسائل طبيعيّة لذاك الوصول، فلئن كان أصحاب الرياضات يصلون إلى بعض مستويات قوّة الروح بوسائل طبيعيّة رياضيّة، فالرسول الذي لم يقم بتلك الرياضات ولم يتعلّم من أحد تلك الأساليب تراه يفعل ما هو أقوى وأكبر ممّا يفعله أُولئك؛ فيبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله.

وكذلك السحرة يوهمون أعين الناس ويـجعلونهم يـتخيّلون مـا يـفعلونه بوسائل طبيعيّة، وهي أساليب السحر التي تعلّموها بالطرق الطبيعيّة، في حين أنّ

الرسول لا يسلك تلك الطرق والوسائل، ولكنّه يحقّق واقع ما يريد وليس مجرّد تخييل، ومن الطبيعي عندئذٍ أن يكون السحرة أوّل من يؤمن؛ لأنّ الوسائل الطبيعيّة للسحر واضحة لديهم: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[١]، وقال أيضاً عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[٢].

وقد اتّضح ممّا أشرنا إليه أنّ المعجز لا يشتبه بعمل السحرة ولا بعمل المرتاضين ولا بعمل علماء الطبيعة الذين يعملون ببركة علومهم واكتشافاتهم ما لو كان يُعمل قبل تلك الاكتشافات لكان يُبهر العقول، كإنارة العالم بالكهرباء، أو شفاء المرضى بعلاجاتهم الجبّارة، أو إرسال الأقمار الصناعيّة إلى السماء، أو إنزال عدد من البشر أو الموادّ علىٰ كرات أُخرىٰ، أو ما إلى ذلك. فالإعجاز وحده هو الذي يكون خرقاً لقوانين الطبيعة، أمّا السحر فهو عمل تخييلي لا واقعي قائم علىٰ أُسس طبيعيّة يتعلّمها الساحر في دروس مخصوصة واكتشافات مدروسة، وكذلك الأعمال الرياضيّة لها طرقها الطبيعيّة يصل إليها المرتاضون بعد معاناة طويلة من الرياضات التي يتحمّلونها كي يبلغوا قوّة روحيّة مخصوصة، كما أنّ العلوم والاكتشافات الحديثة أيضاً ليست إلّا أُموراً طبيعيّة وصل إليها الإنسان بعد جهد جهيد ومعاناة طويلة.

---

(١) س ٢٠ طه، الآية: ٦٦ ـ ٧٠.
(٢) س ٧ الأعراف، الآية: ١١٦ ـ ١٢٢.

# البحث الثالث : الوحي

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيم﴾[١].

والظاهر أنّ قوله: ﴿مِن وَرَاء حِجَاب﴾ إشارة إلى الصوت الذي يخلقه الله في موجود يسمعه النبيّ، ولا يرىٰ صاحب الصوت الأصلي وهو الله سبحانه، وذلك كالصوت الذي خلقه الله في الشجرة أو في نار في الشجرة لموسىٰ، قال عزّ من قائل: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِين﴾[٢]، وقال أيضاً سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾[٣]، وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ إشارة إلى إرسال الملك لإيصال الوحي إلى النبيّ كما قال الله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِك﴾[٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾[٥].

والوحي تارة يستعمل في مقابل هذين القسمين، أعني سماع الصوت ونزول الملك، وأُخرىٰ يشمل هذين القسمين، ففي الآية التي بدأنا بها الحديث

---

(١) س ٤٢ الشورىٰ، الآية: ٥١.

(٢) س ٢٨ القصص، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) س ٢٧ النمل، الآية: ٨ ـ ٩.

(٤) س ٢٦ الشعراء، الآية: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٥) س ١١ هود، الآية: ٦٩.

استعمل في مقابل هذين القسمين، في حين أنّه طُبّق الوحي في القرآن في قصّة موسىٰ عليه السلام علىٰ الصوت الذي سمعه موسى عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[١].

وكذلك يطلق الوحي علىٰ ما كان يأتي به جبرئيل عليه السلام علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أحد التفسيرين المذكورين لقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٢].

وعلىٰ أيّة حال فالوحي بالنسبة للأنبياء قد يستعمل بمعنى عامّ يشمل الوحي عن طريق الملك، أو عن طريق خلق الصوت في جسم أو مكان، بل وعن طريق الرؤيا أيضاً، كما في قصّة رؤيا إبراهيم عليه السلام لذبح ولده، وقصّة رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله لدخول المسلمين المسجد الحرام آمنين، وقد يستعمل بمعنى خاصّ في مقابل هذه الأقسام، وهو وحيٌ مباشر لله إليه، ونحن يستحيل علينا طبعاً أن ندرك حقيقته، كما يستحيل علىٰ من ولد أعمى من بطن أُمّه أن يدرك حقيقة الرؤية بالعين أو حقيقة اللون أو حقيقة النور، ولكنّ المقدار الذي نحدسه هو أن يكون سنخ إدراك حُضوري، وتوضيح المقصود: أنّه قد مضى منّا في بحث التوحيد أنّ الإيمان بالله تعالىٰ أمر فطري، وقد مضىٰ تفسير الفطريّة بأمرين، أحدهما: البداهة ودركه بالوجدان كما في البديهيّات الفطريّة، والثاني: العلم الحضوري بالله تعالىٰ، وقلنا: إنّ المتيقّن من ذلك هو المعنى الأوّل، أمّا المعنى الثاني ـ وهو العلم الحضوري ـ فلا دليل قطعي لدينا عليه وإن كان ثبوته لبعض

---

(١) س ٢٠ طه، الآية: ٩ ـ ١٤.　　(٢) س ٥٣ النجم، الآية: ٨ ـ ١٠.

أولياء الله أمراً ممكناً. والوجه في عدم الدليل عليه: أنّ المخلوق ـ علىٰ ما نقّح في محله ـ وجود ربطيّ بالخالق، وليس وجوداً مستقلّاً في مقابل الخالق مع فرض علاقة الخلق أو العلّيّة والمعلوليّة بينه وبين الخالق؛ فإنّ هذا خلف الخلق بل هو عين تلك العلاقة وذاك الربط، وهذا إنّما يقتضي إحاطة الخالق بالمخلوق، وكون المخلوق معلوماً حضوريّاً للخالق، كما أنّ مخلوقات ذهننا معلومة بالعلم الحضوري لنا وليس العكس، أي ليس من الضروري كون الخالق معلوماً حضوريّاً للمخلوق؛ لأنّ الخالق هو المحيط بالمخلوق وليس المخلوق محيطاً بالخالق.

ومن الممكن افتراض أنّ الأنبياء ـ لشدّة قربهم إلى الله ـ لهم العلم الحضوري بالله تعالىٰ ولو في بعض الأحيان، وهذا أحد التفسيرين لقوله تعالىٰ: **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾**[١]، فلعلّ الوحي المباشر يكون في حالة العلم الحضوري بالله تعالىٰ.

ويشهد لذلك الثقل الذي كان يحسّ به النبيّ صلى الله عليه وآله في وقت الوحي المباشر علىٰ ما ورد في بعض الأحاديث، فعن زرارة قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك، الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي؟ قال: فقال: ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له»[٢].

ولئن كان موسىٰ عليه السلام لم يتحمّل تجلّي الله للجبل وليس له فخرّ صعقا، فيكفي فخراً لرسولنا الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه كان يتحمّل تجلّي الله له مباشرةً في بعض حالات

---

(١) س ٥٣ النجم، الآية: ١١ ـ ١٥.

(٢) البحار ١٨ : ٢٥٦، الباب ٢ من أبواب أحوال الرسول صلى الله عليه وآله من البعثة إلى نزول المدينة، الحديث ٦.

الوحي، إلّا أنّه كان يحسّ بالثقل.

وقد تقول: إنّ تجلّي الله تعالىٰ للإنسان بمعنى علم الإنسان به علماً حضوريّاً مستحيل؛ لما مضى من أنّ الخالق هو المحيط بالمخلوق، ولا يعقل أن يكون المخلوق ـ الذي هو عين الربط ـ محيطاً بالخالق، والعلم الحضوري إنّما يكون بإحاطة العالم بذات المعلوم.

ولكن الواقع أنّناإنّما أشرنا إلى نكتة: أنّ الإحاطة هي للخالق بما ليست حقيقته إلّا عين الربط به دون العكس لتوضيح أنّ هذا الالتصاق بين العبد وربّه لا يبرهن علىٰ العلم الحضوري بالله أو بالتوحيد، ولكنّا لا نجعل هذا برهاناً علىٰ عدم إمكان العلم الحضوري بالله؛ فإنّ العلم الحضوري به لا ينحصر افتراضه بافتراض الإحاطة الكاملة للعبد بربّه، بل يمكن افتراض الإحاطة النسبيّة بقدر ارتباط الربّ بهذا العبد عن طريق كون هذا العبد عين الربط به وفانياً فيه، ويحتمل اختلاف درجات العلم الحضوري، فلعلّ الرسولﷺ كان عالماً بالله بالعلم الحضوري ببعض الدرجات في تمام أحواله، وكان يشتدّ علمه الحضوري بالله في حالة الوحي المباشر؛ ولهذا كان يحسّ بالثقل.

أمّا حينما كان ينزل عليه الوحي بواسطة جبرئيلعليه السلام فلم يكن عليه ثقل من هذا القبيل، بل كان ينزل عليه الوحي عندئذٍ بكمال الأدب من قبل جبرئيل، فعن عمرو بن جميع عن الصادقعليه السلام قال: «كان جبرئيل إذا أتى النبيّﷺ قعد بين يديه قِعدة العبد وكان لا يدخل حتّى يستأذنه»[1].

وا عجباً يستأذن الأمينُ ببابه ويدخل الخـؤون!

* * *

(١) المصدر السابق، الحديث ٥.

# البحث الرابع : عصمة الأنبياء

## ١ ـ ما معنى العصمة؟

عصمة الأنبياء عن الذنب لا تعطي معنى الانجبار علىٰ ترك الذنب، بل ذلك ينفي العصمة؛ إذ مع الجبر لا معنى للتكليف ولا فخر في ترك الذنب ولا قيمة له.

وكذلك لا تعني العصمة مجرّد العدالة؛ فإنّ العدالة إن هي إلّا ملكة الاعتصام عن الذنب في حالات الإغراءات الاعتياديّة، أمّا إذا اشتدّت الإغراءات أو ضعفت النفس بسبب طارئ ـ فوق ما يتصوّر عادة ـ فقد تزل قدم من كان عادلاً ويهوى إلى مكان سحيق، نعم لو تاب بعد ذلك وكانت الملكة موجودة أو رجعت، رجعت العدالة.

فالعصمة تعني: قوّة الرادع الإلهي إلى حدّ يقف أمام كلّ إغراءات العالم لو اجتمعت، فلا تضعُف النفس أمام جميع تلك الإغراءات فضلاً عن أن تضعف بسبب آخر.

وخير تعبير عن العصمة ما ورد عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها علىٰ أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإنّ دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعليّ ونعيم يفنىٰ ولذّة لا تبقىٰ؟ نعُوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»[١].

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٤.

### ٢ ـ هل ينال العصمة غير المعصومين عليهم السلام؟

إنّ أصل مرتبة العصمة لا تختصّ بالمعصومين عليهم السلام بالمعنى المصطلح، فمثلاً لو جمعت جميع إغراءات العالم لم تكن بأقوى من إغراء الامتلاك للمشرعة بعد العطش ـ الذي حال بين أصحاب الحسين عليه السلام وبين السماء كالدخان ـ إلى شرب الماء، ومع ذلك لم يقف هذا الإغراء أمام العبّاس عليه السلام لا في مقابل الامتناع عن شرب حرام ولا مكروه، بل في مقابل شرب حلال طيّب طاهر لم يكن يضرّ بالحسين وأهل بيته عليهم السلام؛ إذ لم يكن يؤخّره شيئاً عن إيصال الماء إليهم، وإنّما ذلك لمجرّد المواساة، ومع هذا أحسّ أنّ دينه ويقينه يمنعه عن هذا الشرب فقال:

والله ما هذا فعال دين　　　　ولا فعال صادق اليقين

ولك أن تقايس بين اعتصام العبّاس عليه السلام ـ الذي لم يكن معصوماً بالمعنى المصطلح ـ عن شرب الماء حينما ملك المشرعة في يوم عاشوراء واعتصام يوسف عليه السلام عن العمل القبيح حينما راودته التي هو في بيتها؛ كي ترىٰ أيّهما كان أشدّ؟ هل ترك شرب الماء والعطش حال بينهم وبين السماء كالدخان، أو ترك الزنا لدىٰ طغيان شهوة الجنس بقوّة الشباب مع توفّر كلّ وسائل المعصية واختفاء كلّ الموانع الظاهريّة واجتماع كلّ المغريات الشهويّة؟! والله إنّ الأوّل لأشدّ، إلّا أنّ لله في أرضه أولياء كالعبّاس عليه السلام لا يُعرفون إلّا بصدفة تتّفق كما اتّفقت للعبّاس عليه السلام، وإلّا فهم مجهولون في الأرض معروفون في السماء، ولقد عجبتْ من صبر الحسين عليه السلام وأصحابه ملائكة السماوات.

والحاصل: أنّ أصل مرتبة العصمة يمكن تحصيلها لشخص غير معصوم بالمعنى المصطلح، وإنّما الذي يختصّ به المعصومون بالمعنى المصطلح تزوّدهم بهذا المستوى من النورانيّة والشفّافيّة العاصمة عن المعصية من قبل الله، ومن

أوّل الأمر وإلى آخر لحظة، في حين أنّ عصمة الآخرين اكتسابيّة ونتيجة التربية، ومتى ما ترك متطلّبات التربية تزول عنه تلك الشفّافيّة، ونورانيّة النفس الموجبة لعصمته عن المعاصي.

### ٣ـ أسباب العصمة :

قلنا: إنّ العصمة قد تكون اكتسابيّة وهي مرتبة من التقوىٰ يستحيل معها أن تزلّ قدم العبد بتكاثر المغريات بالرغم من بقاء العبد علىٰ كونه فاعلاً مختاراً، ولكنّها متىٰ ما زالت، تزول معها العصمة، وقد تكون إلهيّة ملازمة لوجود المعصوم عليه السلام.

وهنا يأتي هذا السؤال: ما هي أسباب العصمة التي لو حصلنا عليها لأصبحنا معصومين ولو بعصمة اكتسابيّة؟

والجواب ـ بقدر ما ندركه بعقولنا الناقصة ـ هو أنّ أسبابها أربعة:

**الأوّل** : إدراك عظمة الربّ سبحانه وتعالىٰ، فبقدر ما يكتمل هذا الإدراك تكتمل العصمة، وكيف يمكن لمن انمحىٰ في عظمة الله وجلاله وجماله أن تخطر بباله معصيته فضلاً عن أن يعصيه؟! فإنّ الكون وما فيه يعتبر في مقابل عظمة الله لا شيء.

**الثاني** : إدراك خسّة المعصية وحقيقتها الدنيئة وواقعيتها القذرة، «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[١]، وقد نقل عن بعض عوام الشيعة الذي كان يتكلّم بفطرته أنّه قيل له: كيف تقولون: إنّ أئمّتنا لم يكن يخطر ببالهم

---

(١) خطبة المتّقين من نهج البلاغة.

المعصية؟ فلنقبل منكم أنّهم لم يكونوا يعصون، ولكن ما هذه المبالغة بالقول بعدم خطور المعصية في أذهانهم؟ فأجاب الشيعي بالبداهة وبمحض الفطرة: هل خطر ببالك يوماً ما أكل قاذورة الإنسان؟ فامتعض السائل من هذا الكلام وقال: كيف يخطر ببالي ذلك؟! فأجابه الشيعي أنّ المعصية عند أئمّتنا أخسّ وأقذر من هذا الشيء، فكيف تخطر ببالهم؟! إنّه جواب متين والتفاتة طريفة إلى دلالة الفطرة والوجدان علىٰ برهان العصمة.

الثالث: انكشاف الحجاب عن عين البصيرة ـ وليست الباصرة ـ كي يرى الإنسان شدّة العذاب وعظمة الثواب في يوم القيامة، كما وصف إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام بذلك المتّقين في قوله في خطبة همام: «فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون... أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتّلونها ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أُصول آذانهم...»[١]، وكيف يتصوّر صدور المعصية أو خطورها بالبال ممّن يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً!»[٢].

الرابع: اكتمال حبّ الله تعالىٰ في قلب العبد المؤمن، فإنّه مع اكتمال حبّه لا يعقل صدور المعصية منه، وكيف لا وأنت ترىٰ أنّ العشق المجازي بين الشباب والشابّات قد يصل إلى مستوى يستحيل صدور مخالفة المعشوق من العاشق،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) البحار ٦٩ : ٢٠٩، الباب ٣٣ من أبواب الايمان والكفر.

وحبّ الأب أو الأُمّ للطفل قد يصل إلى مستوى لا يتصوّر مخالفته لما يهواه الطفل إلّا لمصلحة نفس الطفل، فكيف بحبّ الله تعالىٰ الجامع لصفات الجمال والجلال؟!

والمرويّ عن إمامنا زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «إلٰهي، مَنْ ذا الَّذِي ذَاقَ حَلاوَةَ محبَّتكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلاً؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي أنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَىٰ عَنْكَ حِوَلاً؟»[1]، وعن الصادق عليه السلام أنّه قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا محال في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع[2]

## ٤ ـ من براهين العصمة:

البرهان الأوّل: قلنا: إنّ اكتناه عظمة الربّ بالمقدار الممكن للإنسان المخلوق يكون مانعاً قطعيّاً عن المعصية، وكذلك اكتناه حقيقة المعصية وقذارتها ونجاستها ودناءتها، وكلا هذين الأمرين موجودان لدى كلّ نبيّ يوحىٰ إليه؛ لأنّ مقام الوحي هو أعلىٰ مقام من مقامات الاقتراب إلى الربّ والاطّلاع على عظمته؛ ولذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «يا عليّ، ما عرف الله حقّ معرفته غيري وغيرك»[3]. وأيضاً الوحي أعلىٰ مقام من مقامات كشف الحقيقة لا يناله عقل

---

(١) الصحيفة السجّاديّة: مناجاة المحبّين.

(٢) البحار ٧٠: ١٥، الباب ٤٣ من أبواب الايمان والكفر، الحديث ٣.

(٣) البحار ٣٩: ٨٤، وعليّ عليه السلام وإن لم يكن يوحىٰ إليه، ولكنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله بشأنه: «إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ إلّا أنّك لست بنبيّ ولكنّك لوزير، وإنّك لعلىٰ خير». راجع نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، فضل الوحي.

العقلاء مهما كانوا عباقرة، فالذي حظي بهذا المقام فقد حظي بأعلىٰ ما يمكن أن يتصوّر بشأن الإنسان من درك عظمة الربّ وجماله وجلاله، ومن درك حقيقة الطاعة وحقيقة المعصية، وخاصّة إذا كان الوحي بالتجلّي المباشر.

وأيضاً إنّ من يتّصل بالله تعالىٰ بأقرب وسائل الاتّصال ـ ألا وهو الوحي ـ يتمكّن حبّ الله تعالىٰ في قلبه بأعلىٰ مستوى معقول، وقد قلنا: إنّ من يكتمل في حبّ الله يستحيل صدور المعصية منه.

وكذلك نقول: إنّ المتّصل بمنبع الوحي يكون اطّلاعه علىٰ الغيب ـ أعني عالم الآخرة ـ بأقوى مستوى ممكن للبشريّة من الاطّلاع، فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون، فكيف يمكن لهكذا أُناس أن يعصوا؟

البرهان الثاني: إنّ الغرض المتوخّى من بعثة الأنبياء لهو هداية البشريّة ونشر نور الله تعالىٰ في أرضه، وممارسة خلافة الله في أرضه بأكمل ما يكون، وهذا أمر يختلف عن مستوى الهداية التي تصدر من القادة الروحانيين الاعتياديين كالفقهاء العظام والعلماء الأعلام؛ فإنّهم لا يمارسون إلّا إعانة الخلق علىٰ الاستفادة من المنهل الإلهي العذب الذي فتح الله بابه للناس عن طريق الأنبياء، في حين أنّ أصل فتح باب تلك المناهل للناس إنّما هو بيد الأنبياء، وأصل الهداية إلى الله وإلى دينه وإلى رضوانه إنّما هو بهم، وليس العلماء إلّا أُولئك الثلّة الذين اغترفوا غرفة من بحر معرفة الأنبياء ليسقوا العطاشىٰ بماء المعرفة بقدر إمكاناتهم؛ ولهذا شرطت العدالة في مراجع التقليد. أمّا الأنبياء فلا تكفي العدالة بشأنهم؛ لأنّ مفاتيح الهداية الأصليّة بيدهم، ولولا أن يستطيعوا جلب ثقة الأُمّة بأعلىٰ مستوى الثقة لما تحقّق الهدف من إرسالهم، ولا يمكن جلب الثقة بهذا

المستوى إلّا بالعصمة، فيكون عدم منحهم العصمة من قبل الله تعالىٰ نقضاً للغرض، ونقض الغرض من قبل الله تعالىٰ مستحيل.

وأيضاً لا يمكن للأنبياء أن يكونوا قدوة عمليّين للبشر بشكل كامل إلّا بالعصمة، كما أنّه لا يمكن للفقهاء أن يكونوا قدوة عمليّين بالمستوى المترقّب منهم إلّا بالعدالة.

البرهان الثالث : التمسّك بقوله تعالىٰ: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[1]، فانّه لا شكّ في أنّ النبوّة مصداق بارز من مصاديق عهد الله تعالىٰ، ولا شك في أنّ المعصية ظلم، ولا إشكال في أنّ مناسبة الحكم والموضوع وجلالة مقام النبوّة تعطيان للكلام ظهوراً في كون المقصود بعنوان الظالم التلبّس بمبدأ الظلم ولو آناً مّا، فظهور الكلام في المقارنة بين الحكم والوصف العنواني أو كون المشتق حقيقة في المتلبّس بالفعل بحثان بعيدان عن مورد هذه الآية المباركة بالخصوص.

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ١٢٤.

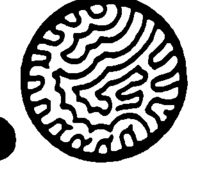





# النبوّة الخاصّة

المهم عندنا إثبات نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ، وقد مضىٰ أنّ وسائل إثبات نبوّة أيّ نبيّ أحد أُمور أربعة: الإعجاز وإخبار نبيّ سابق، وتجميع القرائن المختلفة ومضمون الدعوة، وكلّ هذه الوسائل متحقّقة بشأن نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ كالتالي:

- إعجاز نبيّنا محمّد ﷺ.
- إخبار أنبياء سابقين عن نبوّة رسول الله ﷺ.
- تجميع قرائن مختلفة علىٰ نبوّة نبيّنا ﷺ.
- مضمون دعوة نبيّنا ﷺ.

# إعجاز نبيّنا محمّدﷺ

الإعجاز أعمّ الأدلة وأشملها لفهم الناس. ولرسول اللهﷺ معاجز كثيرة، والخالد منها والباقي حتّى زماننا هذا وإلى يوم القيامة هو القرآن:

## إعجاز القرآن

إنّ إعجاز القرآن من عدّة جهات: البلاغة والفصاحة، والكشف عن قسم من أسرار الطبيعة، والإخبار عن بعض الأُمور الغيبية وغير ذلك، ووجوه إعجاز القرآن غير البلاغة والفصاحة أو قسم من هذه الوجوه أهمّ وأعظم من مسألة البلاغة والفصاحة، إلّا أنّ مسألة البلاغة والفصاحة كانت هي القابلة للإدراك لعرب الحجاز وقتئذٍ، ونحن نذكر هنا ثلاثة من وجوه إعجاز القرآن:

### بلاغة القرآن وفصاحته

الواضح من وجوه إعجاز القرآن لدىٰ عامّة الناس السذّج في زمن الرسولﷺ هي الفصاحة والبلاغة؛ لأنّ العرب الحجازيين كانوا قد نبغوا فيهما،

فجاء إعجاز القرآن من سنخ ما كانوا فنّانين فيه.

وهذا الوجه من الإعجاز ربّما لا يدركه من لا يعرف اللغة العربيّة، بل ربّما لا يدركه قسم من العارفين للّغة العربيّة وغير الملتفتين والمتذوّقين لنكات الفصاحة والبلاغة، ولكن هؤلاء بإمكانهم أن يعتقدوا بإعجاز القرآن البلاغي عن طريق ما ورد فيه من تحدّي أبلغ البلغاء بالإتيان بمثل سورة من القرآن، وما ثبت في التاريخ من أنّهم عجزوا عن ذلك، ولو لم يكونوا قد عجزوا عن ذلك لفعلوه، ولو كانوا قد فعلوه لأسقطوا رسول الله ﷺ عن الاعتبار لدىٰ عامّة الناس، وكان ذلك أسهل عليهم من إسقاطه بخوض الحروب ضدّه، في حين أنّه لم يكن شيء من هذا القبيل.

قال الله تعالىٰ:

١ ـ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1].

٢ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

٣ ـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[3].

٤ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4].

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) س ١١ هود، الآية: ١٣.

(٣) س ٢ البقرة، الآية: ٢٢ ـ ٢٤.

(٤) س ١٠ يونس، الآية: ٣٨.

٥ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[١].

وقد ورد في التاريخ:

١ ـ روي عن هشام بن الحكم: «أنّ ابن أبي العوجاء وأبا شاكر الديصاني و عبدالملك البصري وابن المقفّع اجتمعوا لدى بيت الله الحرام، وكانوا يستهزئون بالحجّاج ويطعنون علىٰ القرآن، فقال ابن أبي العوجاء: فليعارض كلّ واحد منّا ربع القرآن، ولنجتمع هنا في العام القابل في هذا المكان، وبه نبطل الإسلام ونبوّة محمّد، فافترقوا ثمّ اجتمعوا في مثل ذلك اليوم من العام الماضي لدىٰ بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: إنّني منذ أن فارقتكم فكّرت في معارضة الآية: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾[٢] فعجزت عن ذلك، وقال عبد الملك: إنّني منذ أن فارقتكم فكّرت في معارضة الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[٣] فعجزت عن ذلك، وقال أبو شاكر: إنّني منذ أن فارقتكم فكّرت في معارضة الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤] فعجزت عن ذلك، وقال ابن المقفّع: يا قوم، إنّ هذا القرآن ليس من سنخ كلام البشر فإنّني منذ أن فارقتكم فكّرت في معارضة الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٥] فعجزت عن ذلك.

---

(١) س ٥٢ الطور، الآية: ٣٣ ـ ٣٤.
(٢) س ١٢ يوسف، الآية: ٨٠.
(٣) س ٢٢ الحجّ، الآية: ٧٣.
(٤) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٥) س ١١ هود، الآية: ٤٤.

قال هشام: وفي هذه الأثناء مرّ عليهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وقرأ: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[1]»[2].

٢ ـ ويروىٰ «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أُنزل عليه **﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾**[3] قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلمّا فطن النبيّ صلى الله عليه وآله لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية. فانطلق الوليد حتّى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله! لقد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس، ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو وما يعلىٰ عليه. ثمّ انصرف إلى منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأنّ قريش كلّهم. وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال: ما لي أراك حزيناً يابن أخي؟ قال: هذه قريش يعيبونك علىٰ كبر سنّك ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمّد، فقام مع أبي جهل حتّى أتىٰ مجلس قومه فقال: تزعمون أنّ محمّداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قَطّ؟! فقالوا: اللّهم لا. قال: أتزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللّهم لا. قال: أتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قَطّ؟! قالوا: اللّهم لا. قال: أتزعمون أنّه كذّاب، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللّهم لا، وكان يسمّى الصادق الأمين قبل النبوّة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه ثمّ نظر وعبس فقال: ما هو إلّا ساحر ما رأيتموه

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ٨٨.

(٢) پيام قرآن ٨: ٩٠ ـ ٩٢.

(٣) س ٤٠ غافر، الآية: ١ ـ ٣.

يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر»[١].

٣ ـ قال عليّ بن إبراهيم: قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للأوس علىٰ الخزرج.

فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكّة في عمرة رجب يسألون الحلف علىٰ الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناك نطلب الحلف عليهم. فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم ولنا شغل لا نتفرّغ لشيء. قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبّاننا وفرّق جماعتنا. فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطّلب من أوسطنا شرفاً وأعظمنا بيتاً. وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم، النضير وقريظة وقينقاع: أنّ هذا أوان نبيّ يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنّكم به يا معشر العرب. فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وإنّهم لا يخرجون من شعبهم إلّا في الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلّمه فإنّه ساحر يسحرك بكلامه. وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي أن أطوف بالبيت؟ قال: ضع في أُذنيك القطن. فدخل أسعد المسجد وقد حشا أُذنيه بالقطن فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فنظر

---

(١) أُنظر مجمع البيان، ضمن تفسير سورة المدّثر.

إليه نظرة فجازه، فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي! أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتّى أرجع إلى قومي فأُخبرهم؟! ثمّ أخذ القطن من أُذنيه ورمىٰ به، وقال لرسول الله ﷺ: أنعم صباحاً. فرفع رسول الله ﷺ رأسه إليه وقال: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحيّة أهل الجنّة: السّلام عليكم، فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب، إلىٰ مَ تدعو يا محمّد؟ قال: إلى شهادة أن لاٰ إله إلاّ الله وأنّي رسول الله وأدعوكم إلى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[(١)].

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لاٰ إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصّلها الله بك، ولا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمّم الله لنا أمرنا فيك، والله يا رسول الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، ويبشّروننا بمخرجك ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف علىٰ قومنا، وقد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له.

---

(١) س ٦ الأنعام، الآية: ١٥١ ـ ١٥٢.

ثمّ أقبل ذكوان فقال له أسعد: هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشّرنا بـه وتخبرنا بصفته فهلمّ فأسلم، فأسلم ذكوان ثمّ قالا: يا رسول الله، إبعث معنا رجلاً يعلّمنا القرآن ويدعو الناس إلى أمرك. فبعث معهم رسول الله ﷺ مـصعب بـن عمير...[1].

وهذه القصّة الأخيرة كما يحتمل فيها أنّ بلاغة القرآن أثّرت في أسعد فآمن بالإسلام، كذلك يحتمل فيها أنّ المضامين الحقّة والوجدانيّة لتلك الآيات والتي تعارض أسوأ العادات للمجتمع وقتئذٍ أثّرت فيه، أو كان المـؤثّر فـيه مـجموع الأمرين.

٤ ـ ونظير هذه القصّة في تطرّق الاحتمالين إليه قصّة النجاشي في حـبشة والعلماء المسيح حينما هاجر كثير من المسلمين إلى حبشة من جور أهل مكّة ولجؤوا إلى النجاشي، فأرسلت قريش نفرين إلى النجاشي لمطالبته بإرجاعهم إلى مكّة، وهما عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ومعهما هدايا للنجاشي، فغضب النجاشي وقال: لم أكن لأُسلّم جمعاً لجؤوا إليّ إلى أعدائهم إلّا أن أُحقّق عن وضعهم وتثبت لي خيانتهم. فجمع النجاشي العلماء المسـيح فـجاؤوا مـع كتُبهم، وأرسل أيضاً إلى المسلمين ومعهم جعفر بن أبي طالب عليه السلام وسألهم عن الأمر، فشرح جعفر عليه السلام له قصّة الإسلام، فقال له النجاشي: هل معك شيء مـن القرآن؟ قال: نعم. قال: إقرأ. فتلا جعفر عليه السلام قوله تعالىٰ: ﴿كٓهيٰعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْـمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[2] إلى آخر قصّة مريم وولادة المسيح عليه السلام وتـنزيههما عـن الرجس والإشراك بالله، فبكى النجاشي وبكـى العـلماء المسـيح إلى أن بـلّت

---

(١) البحار ١٩ : ٨ ـ ١٠.

(٢) س ١٩ مريم، الآية: ١ ـ ٢.

محاسنهم وكتبهم، ورفض النجاشي تسليم المسلمين إلى قريش[١].

٥ ـ والخلاصة أنّه لم يستطع أحد أن يعارض القرآن إلّا بمثل ما قاله مسيلمة الكذّاب: «الفيل ما الفيل؟ وما أدراك ما الفيل؟ له ذنب وبيل، وخرطوم طويل»[٢]، وقوله أيضاً: «لقد أنعم الله علىٰ الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، بين صفاق وحشى»[٣]، وينقل عنه أيضاً قوله: «والمبذّرات بذراً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً إهالةً وسمناً»[٤].

واُشير هنا إلى نكتة طريفة وردت علىٰ لسان الشيخ السبحاني ـ حفظه الله ـ[٥] حول سرّ الفرق في التعبير بين قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾[٧] حيث قدّمت الإشارة إلى رزق الأبوين علىٰ الإشارة إلى رزق الأولاد في الأُولى، وعكس الأمر في الثانية، فيا ترىٰ هل هذا مجرّد تفنّن في التعبير أو توجد تحته نكتة بلاغيّة؟ يقول ـ حفظه الله ـ: الصحيح هو الثاني؛ لأنّ الآية الأُولى خطاب للعوائل الفقيرة بقرينة قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ وكان يجرّهم فقرهم إلى قتل أولادهم، فناسب الأمر ضمان الله تعالىٰ لهم رزقهم أوّلاً ثمّ رزق أولادهم، والآية الثانية خطاب للعوائل الميسورة بقرينة قوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي إنّ الذي يجرّهم إلى قتل أولادهم ليس هو فقرهم بالفعل وإنّما هو خشية

---

(١) پيام قرآن ٨: ٩٩ ـ ١٠٢ نقلاً عن سيرة ابن هشام ١: ٣٥٦.

(٢) الإلهيّات ٢: ٣٣٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) راجع پيام قرآن ٨: ١٠٥.

(٥) الإلهيّات ٢: ٢٦٩ ـ ٣٠٠.

(٦) س ٦ الأنعام، الآية: ١٥١.

(٧) س ١٧ الإسراء، الآية: ٣١.

الفقر نتيجة إطعام الأولاد، فناسب الأمر ضمان الله تعالىٰ لهم رزق الأولاد أوّلاً ثمّ رزقهم.

## الكشف عن بعض أسرار الطبيعة

كشف القرآن الستار عن عدد من أسرار الطبيعة التي لم تكن قابلة للـدرك وقتئذٍ لأعظم ما يفترض من المجتمعات العريقة في العلوم والمعارف، فضلاً عن مجتمع منهمك آنئذٍ في الجهل المطبق كالمجتمع الحجازي، ولم يكتشف العلماء بعد ذلك تلك الأسرار إلّا بعد قرون من بيانها علىٰ لسان الوحـي فـي القـرآن الكريم. وهذا كما ترىٰ أعظم بكثير من مسألة الفصاحة والبلاغة. ولا يخفى أنّ القرآن ليس كتاباً في علوم الطبيعة حتّى يتوقّع منه ذكر كلّ التفاصيل، وإنّما هو كتاب هداية للبشريّة ضُمّن بقدر اللزوم الإشارة إلى بعض أسرار الطبيعة فمنها:

**١ ـ قوّة الجذب والدفع :**

وهما القوّتان اللتان قامت بهما السماوات والأرض، ولو رجح الجذب علىٰ الدفع لاندكّت الكواكب بعضها ببعض وتصدّعت، ولو رجح الدفع علىٰ الجذب لخرج كلّ كوكب عن مداره وهرب وانفرط العقد وتلاشت بعضها عـن بـعض، ولكنّها جميعاً مرتبط بعضها ببعض، يدور كلّ في فلكه بسبب تـعادل القـوّتين **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**[1]، شبيها

---

(١) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٣٣.

بإناء يدار حول اليد التي تمسكه بخيط متّصل بينهما.

وقد اكتشف العلماء ذلك بعد قرون من نزول القرآن وبمستوى الحسّ الذي لا ينكر، والقرآن سبقهم بقرون في قوله عزّ وجلّ: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾(١)، وهذه الآية تدلّ بوضوح علىٰ وجود عَمدٍ غير مرئي بين السماء والأرض، وهذا ينطبق علىٰ الجاذبة والدافعة أو تعادلهما.

وقد ورد عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضاﷺ قال: «قلت له: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾(٢)، فقال: هي محبوكة إلى الأرض. وشبك بين أصابعه، فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: رفع السماء بغير عمدٍ ترونها؟ فقال: سبحان الله! أليس الله يقول: ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾؟ قلت: بلىٰ، فقال: ثَمّ عمد ولكن لا ترونها...»(٣).

وعن الصادقﷺ قال: «قال أمير المؤمنينﷺ: هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور»(٤).

### ٢ ـ حركة الأرض :

وقد اكتشفها العالم الإيطالي المعروف غاليلو، فعارضته الكنيسة ولاحقته حتّى حكمت عليه بالإعدام بعد سجن طويل؛ ولأجل ذلك كان العلماء يكتمون

---

(١) س ١٣ الرعد، الآية: ٢.

(٢) س ٥١ الذاريات، الآية: ٧، والحُبُك : الطُرُق.

(٣) تفسير البرهان ٢ : ٢٧٨.

(٤) سفينة البحار ٨ : ١٩٥، وقد مضى هذا البحث ضمن برهان النظم لإثبات وجود الله سبحانه وتعالىٰ.

اكتشافاتهم خوفاً من الكنيسة، ولكن القرآن الكريم قد كشف اللثام عن هذه الحقيقة قبل قرون من وصول غاليلو إلى ذلك بقوله عزّ وجلّ: **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون﴾**[1].

وقد يتوهم البعض أنّ هذه الآية راجعة إلى يوم القيامة بقرينة الآية السابقة لها، وهي قوله: **﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّور...﴾**[2]، ولكن الواقع أنّه لو كان لابدّ من ربط الآية بما قبلها فهي مربوطة بما قبل آية القيامة، وهي قوله: **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾**[3]؛ لأنّ في الآية قرائن قطعيّة تدل علىٰ أنّها راجعة إلى الدنيا لا إلى يوم القيامة:

فأوّلاً: قوله تعالىٰ: **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَة﴾**، فإنّ حسبان جمود الجبال إنّما هو في دار الدنيا، أمّا في يوم القيامة فسير الجبال أو تلاشيها واضح كما قال الله تعالىٰ: **﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾**[4]، وقال: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً﴾**[5]، وقال: **﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوش﴾**[6].

وثانياً: قوله تعالىٰ: **﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾**، فإنّ هذا يناسب الدنيا، ولا يناسب يوم القيامة الذي هو يوم هدم العالم وخرابه.

وثالثاً: قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُون﴾**، فإنّه لو كان راجعاً إلى يوم القيامة كان المفروض أن يقول: إنّه خبير بما فعلتم.

---

(١) س ٢٧ النمل، الآية: ٨٨.
(٢) س ٢٧ النمل، الآية: ٨٧.
(٣) س ٢٧ النمل، الآية: ٨٦.
(٤) س ٨١ التكوير، الآية: ٣.
(٥) س ٢٠ طه، الآية: ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٦) س ١٠١ القارعة، الآية: ٥.

ومن الواضح أنّ سير الجبال يلازم سير الأرض؛ لوضوح أنّ الجبال لا تسير في دائرة الأرض، فإن كانت تسير فإنّما تسير ضمن سير الأرض، أمّا أنّه نسب السير إلى الجبال لا إلى الأرض مباشرة فبنكتة أنّ الجبال هي الجانب البارز في النظر من الاستقرار والسكون والثقل، فهي أوتاد الأرض.

**٣ ـ بعض حركات الشمس :**

أُشير في القرآن الكريم إلى بعض حركات الشمس التي لم تكن مكشوفة للعلم وقتئذٍ:

قال الله تعالىٰ: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[١].

وهذا المقطع القرآني المبارك بصدد الإشارة إلى الآيات العظيمة الدالّة علىٰ وجود الله سبحانه، وعظمته ووحدانيّته وحكمته وعلمه وقدرته، ونحن الآن لسنا بهذا الصدد؛ لأنّ هذا ما بحثناه في فصول وجود الله وتوحيده وصفاته، وإنّما نحن بصدد الإشارة إلى أنّ بعض الآيات التي ذكرت في هذا المقطع القرآني كان غير معروف أو محسوس، وإنّما كشف العلم عنه بعد قرون متمادية.

وقد كانت تحمل هذه الآيات المباركات قديماً علىٰ الحركة الظاهريّة للشمس والقمر التي ترىٰ بالعين من قبيل قوله تعالىٰ: ﴿**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾[٢].

وفي الوقت الذي كان الناس يعتقدون أنّ الدوران وتبدّل الأبراج ناتج من حركة الأفلاك أو حركة هذه الأبراج السماوية، وأنّ الأرض ساكنة في محلّها،

---

(١) س ٣٦ يس، الآية: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) س ١٠ يونس، الآية: ٥.

كانت هذه الآيات تحمل علىٰ ذلك، وحينما كشف العلم بعد قرون أنّه ناتج من حركة الأرض التي كان قد أشار إليها القرآن في وقت نزوله بقوله: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] أُوّلت الآيات علىٰ أنّها جريٌ وفق الإحساس الظاهري كما هو متعارف لدينا اليوم من أنّنا ـ برغم علمنا بأنّ حدوث الليل والنهار يكون نتيجةً لحركة الأرض حول نفسها دون حركة الشمس ـ نعبّر بـ«طلعت الشمس» و «غربت الشمس» في حين أنّ الشمس لا تطلع ولا تغرب، وإنّما الأرض هي التي تدور، فيتراءىٰ لنا أنّ الشمس تطلع وتغرب. فحينما كان علم الهيئة المسيطر علىٰ عقول الناس ما يسمّىٰ بالهيئة البطلميوسيّة كان الاعتقاد السائد أنّ الشمس ملصقة بالسماء الرابعة ومعلّقة بها، وتلك السماء وباقي السماوات ـ التي كانت تفترض من قبيل قشور البصل المطبق بعضها علىٰ بعض ـ تدور حول الأرض، فدوران الشمس حول الأرض ـ الذي يتمّ به الشروق والغروب ـ ليس في الحقيقة سبحاً للشمس بل الشمس ثابتة في محلّها من الفلك، والأفلاك أو السماوات هي التي تدور حول الأرض، وحينما انكشف أخيراً بالعلم أنّ الأرض هي التي تدور حول الشمس ظلّت الشمس أيضاً راكدة، إلى أن انكشف بعد ذلك أيضاً بوقت متأخّر أنّ للشمس عدّة حركات: حركتين ظاهريّتين وحركتين واقعيّتين:

أمّا الظاهريّتان: فإحداهما ما يتمّ به الشروق والغروب، والأُخرىٰ ما يتم به طيّ المنازل الاثني عشر ضمن سنة كاملة، وبه يحدث الربيع والصيف والخريف والشتاء، وهاتان الحركتان ظاهريّتان؛ لأنّ واقعهما عبارة عن حركة الأرض حول نفسها بالقياس لحدوث الليل والنهار أو حول الشمس بالقياس لتبدّل الأبراج.

---

(١) س ٢٧ النمل، الآية: ٨٨.

وأمّا الواقعيّتان: فإحداهما حركة الشمس حول نفسها وقد تسمّى بالحركة الوضعيّة، والاُخرىٰ حركتها مع منظومتها الشمسيّة ضمن المجرّة إلى نقطة معيّنة تسمّى اليوم بنجمة وكا، والتي هي ضمن مجموعة نجوم فلكيّة تسمّى بالجاثي علىٰ ركبتيه؛ لأنّها بمجموعها تشكّل هيئة من هو جالس علىٰ ركبتيه ومتهيّئ للقيام، وقد تسمّى هذه الحركة بالحركة الانتقاليّة، وهذه ليست حركة دوريّة بل حركة في خط مستطيل.

أمّا القمر فيطوي منازله الثمانية والعشرين التي تكون له قبل المحاق مع أيّام المحاق في شهر كامل، أي إنّ الحركة الدوريّة للقمر في منازلها أسرع من الحركة الدورية التي ترىٰ للشمس في منازلها باثنتي عشرة مرّة؛ لأنّ الشمس تطويها في سنة أي في اثني عشر شهراً، بينما القمر يطويها في شهر.

ويحتمل أن يكون المقصود بقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ هو هذا المعنىٰ: أي إنّ الشمس لا تدرك القمر في سرعة حركته.

ويحتمل أن يكون المقصود بقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي الليل لا يلتهم النهار ولا يبلعه فيفنيه، بل مدار الليل والنهار يبقيان إلى أن تقوم ساعة انهدام الدنيا، كما يحتمل أن يكون المقصود أنّ النهار خلق قبل الليل ويأتي الليل دائماً عقيب النهار؛ لأنّ الكرة الأرضيّة كما يقال انفصلت عن الشمس بعد أن كانت مندكّة فيها، فكان النهار دائماً ثمّ أعقبه الليل بعد الانفصال.

أمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ فكأنّه يشير ـ والله العالم ـ إلى أنّ القمر قدّر له السير في منازله إلى أن يعود في آخر الشهر قبل المحاق بشكل العرجون القديم، وقد فسّر العرجون بالعود الأصفر المتّصل به عذق التمر، فإذا أصبح قديماً ومضت عليه شهور أصبح ذابلاً واشتدّ اصفراره، فشبّه القرآن الهلال في أواخر الشهر به.

أمّا شاهدنا من هذه الآية المباركة في المقام فيمكن أن يكون أحد مقطعين:

أحدهما : قوله تعالىٰ : ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، فعلى رأي هيئة بطلميوس لا معنى لسبح الشمس والقمر ضمن الفلك؛ لأنّهما معلّقان ومتّصلان بالفلك أو بالسماء حسب اعتقادهم، وإنّما الذي يسبح في اعتقادهم هو نفس الفلك أو السماء.

ولعلّه يجاب علىٰ ذلك بأنّ الآية قد تكون جرت وفق الحسّ العادي للإنسان من حركة الشمس والقمر ضمن الفلك أو السماء، ولم يعلم كونها حكاية عن أمر لم يكن قد كشف عنه العلم.

ثانيهما : قوله تعالىٰ : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، فهذا أيضاً ظاهره نسبة الحركة إلى ذات الشمس لا إلى الفلك أو السماء.

ولعلّه يجاب علىٰ ذلك أيضاً بأنّ التعبير في الآية قد يكون جارياً علىٰ ما هو محسوس للإنسان الاعتيادي من الحركة الدوريّة للشمس حول الأرض، ولم يعلم كونه حكاية عمّا لم يكن منكشفاً ذاك اليوم، فهي تحكي عن شروق الشمس وغروبها حول الأرض المستمرّين إلى يوم القيامة، وذاك يوم استقرارها؛ لأنّها تسكن من حركتها.

إلّا أنّه يجاب علىٰ ذلك بأنّ هذا خلاف ظاهر الآية الكريمة جدّاً، وذلك:

أوّلاً: لأنّ الجري غير الدوران، فالجري يحكي عن الحركة المستقيمة أو الطوليّة، والدوران يحكي عن الحركة الدائريّة، والآية تشير إلى الحركة الدائريّة للشمس بقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ولكن قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إنّما يحكي عن الحركة الطوليّة.

وثانياً: لأنّ حمل كلمة ﴿مستقر﴾ في الآية علىٰ يوم القيامة خلاف الظاهر

جداً، فإنّ السياق يدل علىٰ أنّها اسم مكان وليست اسم زمان، فإنّ الجريان في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ كان ظاهراً في التحرّك المكاني لا في البعد الرابع الذي يعني الحركة الزمانيّة أو الجري الزماني، فمعنى الآية والله العالم هو أنّ الشمس تسير سيراً طوليّاً في الفضاء إلى نقطة معيّنة تستقرّ فيها، وينتهي السير إليها، وهذا يطابق تماماً ما اكتشفوه أخيراً من سير الشمس بمنظومتها إلى نجمة وكا أو إلى الجاثي علىٰ ركبتيه، فمن أين جاء القرآن بهذه المعلومة قبل أربعة عشر قرناً لولا كونه من قِبل الله سبحانه وتعالىٰ الخالق لهذا العالم وما فيه والعالِم بكلّ شيء؟

٤ ـ الحياة علىٰ كواكب أُخرىٰ غير الأرض :

إنّ الحياة علىٰ كواكب أُخرىٰ غير الأرض ما زالت غير مكشوفة كشفاً قطعيّاً للعلم إلى زماننا هذا، ولا يوجد حتّىٰ الآن أكثر من بعض الحدوس وإرهاصات الكشف.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِير﴾[1].

والذي يظهر لنا من هذه الآية المباركة هو الإخبار عن الحياة المادّية في السماوات كما هي في الأرض، ولا يصحّ حمل ذلك علىٰ الملائكة كما قد يتصوّر، فإنّ الدابّة تعني ما يدبّ ويتحرّك من الموجودات المادّية دون مثل الملك أو الجنّ، ولا يصحّ حمل الآية علىٰ الطيور التي تطير في الهواء؛ فإنّها إمّا أن تعتبر من دوابّ الأرض، أو تعتبر بين السماء والأرض، لا في نفس السماء،

---

(١) س ٤٢ الشورى، الآية: ٢٩.

في حين أنّ ضمير التثنية في الآية يرجع إلى نفس السماوات والأرض، والدابّة تشمل كلّ ذي حياة وحركة من أصغر الذرّات إلى أكبر الحيوانات جثّةً.

ولا يبعد أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١] حاكياً عن بعض إرهاصات الحياة في السماوات وهو النبات، فإنّ الآية وإن كانت تفسّر بإخراج ما هو مخبوء في الأرض وهي النباتات وما هو مخبوء في السماوات وهي الأمطار، ولكنّ هذا التفسير يبدو بعيداً عن الذهن؛ فإنّ الأمطار ليست مخبوءة في السماوات، بل هي البخار الذي صعد من الأرض ثمّ سال علىٰ شكل ماء، وأكبر الظن أن يكون المقصود بالمخبوء في السماوات أيضاً هي النباتات التي تُعدّ من إرهاصات الحياة وعلاماتها.

وذيل الآية كأنّها تخبر عن جمع كلّ الدوابّ سواء ما في الأرض أو ما في السماء ليوم يجمع فيه الناس وهو يوم القيامة؛ وذلك لأنّ الآية لم تعبّر بتعبير: «وهو علىٰ جمعهم إن شآء قدير» كي يقال: إنّ (إن) أداة شرط، ولا تحكي عن أنّه سوف يشاء، وإنّما عَبّر بقوله: ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ و(إذا) أداة ظرف، فكأنّ أصل المشيئة مفروضة وانّما الآية تقول: إنّ جمعهم في ظرف مشيئة الله مقدور.

والأصرح والأوضح من ذلك في حشر جميع الدوابّ وذوات الحياة بخصوص كرتنا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[٢]، والأوضح

---

(١) س ٢٧ النمل، الآية: ٢٥.

(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ٣٨.

من هذه بخصوص الوحوش قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[١].

وقد انجرّ كلامنا هنا إلى ما هو خارج عن بحثنا وهو حشر الوحوش والحيوانات جميعاً في يوم المعاد علىٰ ما يظهر لنا من هذه الآيات المباركات.

وهذا ما يجعلنا نحدس ـ والله العالم ـ بثبوت نوع من الحساب والجزاء لهم بالرغم من عدم امتلاكهم للفهم والإدراك بالمستوى الذي نحن نمتلكه ممّا تتبعه التكاليف الشرعيّة بالمعنى المفهوم لنا في الفقه، وتكاليف عرفانيّة بالمعنى المفهوم لنا في العرفان، ولكن يبدو أنّ لهم فهماً وشعوراً بمستوى يؤهّلهم لمسؤوليّات بحدودهم ولو بمقدار معرفة قبح ظلم بعضهم لبعض.

ويدعم ذلك عدّة أُمور:

أوّلاً: ما هو محسوس لنا في بعض الحيوانات من نظمٍ مذهل في أُمورها، ممّا يدلّ علىٰ مدى إدراكها كما في النحل والنمل ممّا يستبعد كونه ـ علىٰ ما قد يقال ـ غريزة بدون عقل، وكذلك ما نراه من تشخيص كثير من الحيوانات لأعدائها من دون تجربة مسبقة، كما يُرى من فرار الشاة من الذئب حتّى لأوّل مرّة من رؤيته إيّاه، وكذلك ما نراه من وفاء بعض الحيوانات كالكلب لصاحبه الذي أنعم عليه، بل ولباقي أهل البيت من الأولاد والأطفال والنساء، وكذلك ما نراه من تعليم البشر لبعض الحيوانات لأداء خدمات كثيرة كتعليم كلب الصيد للصيد وتعليم الطير لإيصال الرسائل وأدائها لما يطلب منها بدقّة فائقة.

ثانياً: حكاية القرآن بعض القصص المذهلة عن بعض الحيوانات، كقصّة النمل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

---

(١) س ٨١ التكوير، الآية: ٥.

لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾[(١)].

وكقصّة الهُدهُد، وتفقّد سليمان عليه السلام للطير فقال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[(٢)]، وفي هذه الآية الثانية نرىٰ أنّ سليمان عليه السلام قدّر للهُدهُد نوع مجازاة لو لم يأته بسلطان مبين.

ثالثاً: إشارة بعض الروايات إلى مجازاة بعض الحيوانات أو القضاء فيما بينها يوم القيامة، إلّا أنّ الظاهر أنّها جميعاً سنّية المصدر كما ورد في مجمع البيان ضمن تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام ما رووه عن أبي هريرة أنّه قال: يحشر الله الخلق يوم القيامة والدوابّ والطير وكلّ شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذٍ: أن يأخذ للجمّاء من القرناء ثمّ يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً، وعن أبي ذر (وأظنّه يقصد: ورووا عن أبي ذر، عطفاً علىٰ قوله:

---

(١) س ٢٧ النمل، الآية: ١٨ ـ ١٩.

وقد روي عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمّد عليه السلام قال: لمّا قالت النملة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حملت الريح صوت النملة إلى سليمان عليه السلام وهو مارّ في الهواء والريح قد حملته، فوقف وقال: عليّ بالنملة، فلمّا أُتي بها قال سليمان عليه السلام: يا أيّتها النملة، أما علمت أنّي نبيّ الله وأنّي لا أظلم أحداً؟ قالت النملة: بلى. قال سليمان عليه السلام: فلم حذّرتهم ظلمي فقلت: يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم؟ قالت النملة: خشيت أن ينظروا إلى زينتك فيفتتنوا بها فيبعدون عن ذكر الله تعالىٰ. أُنظر عيون أخبار الرضا ٢ : ٧٨، الباب ٣٢، الحديث ٨.

(٢) س ٢٧ النمل، الآية: ٢٠ ـ ٢٤.

رووه عن أبي هريرة) قال: «بينا عند رسول الله ﷺ اذ انتطحت عنزان، فقال النبي ﷺ أتدرون فيما انتطحتا؟ فقالوا: لا ندري، قال ﷺ: لكن الله يدري وسيقضي بينهما».

رابعاً: تصريح القرآن بثبوت الخشية من الله في بعض الجمادات والأحجار بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّه﴾[1]، فلئن كان الجماد ـ الذي يشكّل في تصوّراتنا الظاهريّة أخسّ مرتبة من المراتب المادّية في عدم الإحساس والشعور ـ يمتلك بصريح القرآن إحساس الخشية من الله، فما الذي يبعّد وجود مستوى من الشعور لدى الحيوانات ممّا يجعلها مسؤولة تجاه بعض نكات الحسن والقبح العقليين؟!

وبهذا البيان يتّضح مدىٰ ظلم الإنسان وجهله الذي حمل الأمانة التي لم تحملها السماوات والأرض والجبال، ثمّ لا يخشى الله ويخون الأمانة ويوقع نفسه في مستوى أنزل من الحيوانات ومن الجمادات، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2].

وفي نهج البلاغة: «ثمّ أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها، إنّها عرضت علىٰ السماوات المبنيّة والأرضين المدحوّة والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلىٰ ولا أعظم منها، ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوّة أو عزّ لامتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهنّ، وهو الإنسان، إنّه كان ظلوماً جهولاً. إنّ الله سبحانه وتعالىٰ لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهارهم، لطف به خبراً وأحاط به

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ٧٤.

(٢) س ٣٣ الأحزاب، الآية: ٧٢.

علماً[١]. أعضاؤكم شهوده، وجوارحكم جنوده[٢]، وضمائركم عيونه[٣]، وخلواتكم عيانه»[٤].

### ٥ ـ حفظ الجبال للأرض من الحركات والزلازل:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٥]. ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[٦]، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً﴾[٧]، ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾[٨].

فمن الذي كان يعلم وقتئذٍ تأثير الجبال في استقرار الأرض، وأنّها بمنزلة الأوتاد والرواسي؟ في حين أنّه بعد مضيّ قرون متمادية انكشف الأمر للعلماء،

---

(١) «وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْباتِهَا الْكِرامَ الْكاتِبينَ الَّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مٰا يَكُونُ مِنّي، وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِن وَرائِهِمْ، وَالشّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ...». دعاء كميل.

(٢) ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. س ٣٦ يس، الآية: ٦٥. ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. س ٤١ فصّلت، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

(٣) ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. س ٧٥ القيامة، الآية: ١٤ ـ ١٥.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٩. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. س ٦٤ التغابن، الآية: ٤.

(٥) س ١٦ النحل، الآية ١٥.

(٦) س ٧٨ النبأ، الآية: ٦ ـ ٧.

(٧) س ٧٧ المرسلات، الآية: ٢٧.

(٨) س ٣١ لقمان، الآية: ١٠.

فرأوا أنّ الجبال هي التي هدّأت الأرض في مقابل الحركات والزلازل، سواء التي قد تنشأ من حرارة مركز الأرض وضغطها علىٰ قشر الأرض، أو التي يمكن أن تنشأ من الجزر والمدّ الناتجين من جاذبيّة بعض الكواكب الأُخرى كالشمس والقمر، أو التي يمكن أن تنشأ علىٰ أثر اصطكاك الأرض بما حولها من الهواء نتيجة حركتها الدائرة حول نفسها، لولا أنّ الجبال تحرّك ـ كما قالوا ـ الهواء من حول الأرض بما يوازي حركة الأرض فلا يتحقّق الاصطكاك بينهما.

**٦ ـ الزوجية في النباتات:**

ففي الوقت الذي لم يكن يعرف أحد الزوجيّة في النباتات ـ اللّهم إلّا في النخل الذي شاع تلقيحه عندهم ـ قال القرآن:

**﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾**(١)، **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾**(٢)، **﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾**(٣)، **﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾**(٤)، **﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾**(٥).

وقد كان يحمل التعبير بالزوج في هذه الآيات علىٰ تعدد الأصناف، إلى أن اكتشف العلم شمولية قانون الزوجيّة من الذكر والأُنثى للنبات والتلقيح فيها ولو بسبب الحشرات تارة، وبسبب الريح أُخرىٰ، ولعلّه المقصود بقوله تعالىٰ: **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾**(٦).

بل ذهب القرآن إلى أكثر من ذلك وثبّت الزوجيّة لكلّ شيء حتّى الجمادات

---

(١) س ٣١ لقمان، الآية: ١٠.
(٢) س ٢٦ الشعراء، الآية: ٧.
(٣) س ٥٠ ق، الآية: ٧.
(٤) س ٢٢ الحج، الآية: ٥.
(٥) س ٢٠ طه، الآية: ٥٣.
(٦) س ١٥ الحجر، الآية: ٢٢.

في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾[١].

وقد كان يفسّر ذلك بمعنى خلق كلّ صنفين متقابلين كالليل والنهار، أو النور والظلمة، أو البحار والبراري، أو الشمس والقمر، أو الحرب والصلح، أو ما إلى ذلك، وأنت ترىٰ أنّ هذا ـ مضافاً إلى عدم شموليته لكلّ شيء ـ تفسير واهٍ؛ إذ لا نكتة لتركيز الكلام علىٰ الزوجيّة في ذلك، وليس مجرّد المقابلة بين أمرين تنسّب إطلاق الزوج عليهما هنا في حين أنّ العلم أثبت أخيراً تركيب كلّ مادّة من ذرّات، واشتمال كلّ ذرّة علىٰ نواة حولها الكترونات ذات شحنات سالبة تدور بسرعة كبيرة، مع احتواء النواة علىٰ بروتونات تحمل شحنات موجبة بمقدار شحنة الالكترونات السالبة، والجذب الموجود بينهما وتكميل أحدهما للآخر ممّا ينسّب افتراض أحدهما زوجاً للآخر وليس مجرّد المقابلة، وهذه قاعدة عامّة في جميع الموادّ بلا استثناء.

**٧ ـ بعض تطوّرات الجنين :**

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٢].

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْشَاج﴾ جمع مشج أو جمع مشيج بمعنى المختلط، كان يفسّر بالاختلاط بين منيّ الرجل وبُيَيضة المرأة[٣]، ولكن لعلّ صيغة الجمع تشير إلى

---

(١) س ٥١ الذاريات، الآية: ٤٩. (٢) س ٧٦ الإنسان، الآية: ٢.

(٣) بل وحتّى هذا الاختلاط في خلقة الجنين لم يكن معروفاً في زمن رسول الله ﷺ بالأخص في ذاك المجتمع الجاهلي، وكان الاعتقاد السائد أنّ الولد للأب فقط، وأنّ الأمّ حكمها حكم القدر الذي يطبخ فيه الطعام، وكان يقال:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا ... بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

أكثر من مادّتين.

أو يفسّر بالاختلاط بين الاستعدادات الجسمانيّة والروحيّة الكامنة في نطفة الإنسان، ولعل ظهور الكلمة يكون في الخلط المادّي الفعلي.

أو يفسّر باختلاط أنواع المركّبات المعدنيّة وشبهها في النطفة، في حين أنّ هذا المعنى من الاختلاط لا يختصّ بالنطفة، بل يشمل جميع الموادّ الإنسانيّة والنباتيّة والأغذية والجمادات المركّبة.

ولكن قد كشف العلم بعد قرون متمادية عن كون المنيّ خليطاً من ترشّحات غدد عديدة في البدن، كالخصيتين وغدّة البروستات وغيرها.

قوله تعالىٰ: ﴿**فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾، قد يكون تقديم كلمة السميع علىٰ كلمة البصير إشارة إلى ما ثبت بعد حين لدى العلماء: من أنّ المولود يصبح قادراً علىٰ السماع في أوائل أيّام ولادته ـ ولعلّه من أوّل يوم ـ ولا يصبح قادراً علىٰ الرؤية إلّا بعد حين، أو إشارة علىٰ ما ثبت أيضاً بعد حين من أنّ تكوّن أساس الجهاز السمعي للجنين يكون قبل تكوّن أساس الجهاز البصري في الرحم.

وقال الله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقكُم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُون**﴾[1]، وهذا ظاهر في أنّ خلق الإنسان من ماء مهين يكون أوّلاً قبل جعله في قرار مكين وهو الرحم، ثُمّ يجعل فور انعقاده في القرار المكين علىٰ ما هو ظاهر العطف بالفاء، وقد كشف العلم بعد قرون: عن أنّ انعقاد الجنين يتمّ أوّلاً بتلاقح المني والبُيَيضة خارج الرحم، ثمّ ينتقل فوراً بعد الانعقاد إلى الرحم.

قوله تعالىٰ: ﴿**فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ**﴾، وأيّ قرار أمكن وآمن من مقرّ الجنين الواقع

---

(١) س ٧٧ المرسلات، الآية: ٢٠ ـ ٢٣.

بعد أستار ثلاثة[١] وفي كيس مليء بماء لزج، يجعل الجنين سابحاً في ذلك الماء فكأنّه لا وزن له؟! وتتحمّل تلك الفواصل ثمّ ذاك الماء كلّ الضربات المتوقعة، ويبقى الجنين سليماً في العادة إلى آخر لحظة، و﴿**إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُون**﴾ ثمّ ينفجر الكيس وينزل الماء؛ ليعقّم طريق خروج الجنين الذي لا يخلو عادة من تلوّثات، ويوسّع فوهة الرحم تمهيداً لخروجه بسلام[٢].

ولملحد أو كافر أن يقول: من قال: إنّ الآية القرآنيّة تحكي عن هذه الدقائق؟ ولعلّ مقصودها بالقرار المكين المقدار المنكشف لكلّ انسان اعتيادي من أنّ الرحم واقع في جوف البطن فهو قرار مكين نسبيّاً. وأيضاً من قال: إنّ تقديم كلمة «السميع» علىٰ كلمة «البصير» تشير إلى تقدّم السمع علىٰ البصر؟ ومن قال: إنّ كلمة ﴿**أَمْشَاجٍ**﴾ تشير إلى الاختلاط بين أكثر من مادّتين؟ وقد قالوا: إنّ صيغة الجمع تطلق علىٰ اثنين فصاعداً.

ولكن ماذا يقول عن رفع القرآن الستار عن مراتب تطوّر الجنين في قوله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين**﴾[٣]؟ فمن علّم الرجل الأمّي ﷺ الذي عاش وترعرع ضمن المجتمع الجاهليّ الذي لا يعرف شيئاً اسمه العلم، ولا يجيد إلّا السباب والشتائم

---

(١) جدار البطن، وجدار الرحم، والكيس الذي فيه الجنين. راجع أيضاً هذا البحث في ما مضى من بحث القرار المكين للجنين ضمن برهان النظم علىٰ وجود الله سبحانه وتعالىٰ.

(٢) راجع في كلّ هذا پيام قرآن ٨: ١٦٩ ـ ١٧٢.

(٣) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٣ ـ ١٤.

والمشاحنة والقتال والغارات أنّ الجنين يمرّ أوّلاً بمرحلة النطفة في الرحم، ثُمّ يصل إلى مرحلة الدم المنجمد، ثمّ يرتقي إلى مرحلة ما يشبه اللحم الممضوغ، ثمّ يتحوّل إلى الخلايا العظميّة، ثمّ تكسىٰ العظام باللحم إلى أن ينتهي الأمر إلى نفخ الروح؟ فتبارك الله أحسن الخالقين. وهل أنّ أدوات التصوير التي شاعت اليوم عن مراحل الجنين كانت شائعة وقتئذٍ؟ أم الدراسات الممكنة اليوم لما في داخل البدن بجزيئاته بوسائل التلفزة الواضحة كانت تحت يد الرسول ﷺ يومئذٍ؟ أم هل كان قد راج آنذاك ما يسمّى اليوم بعلم تشريح الجنين؟ أوَ ليس كلّ هذا تعليماً ربّانيّاً من قبل إلهٍ حكيم عليم محيط بكلّ شيء إحاطة الخالق بالمخلوق؟[١]

ومن الطريف من الناحية البلاغيّة أنّه تعالىٰ في الآية السابقة عطف مرحلة الجعل في قرار مكين بالفاء، وفي هذه الآية عطفها بثمّ؛ لأنّ المعطوف عليه في تلك الآية كان عبارة عن مرحلة الانعقاد الذي يتمّ خارج الرحم، ثمّ ينتقل الجنين فوراً إلى الرحم، في حين أنّ المعطوف عليه في هذه الآية عبارة عن مرحلة خلق الإنسان من سلالة من طين قبل نأيٍ من الزمن.

وأيضاً من الطريف من الناحية البلاغيّة: أنّ المراحل المتقاربة نسبيّاً من بعد اجتياز مرحلة النطفة عطف بعضها علىٰ بعض في هذه الآية بالفاء، عدا مرحلة نفخ الروح البعيدة نسبيّاً عن المراحل السابقة، فقد عطفت بثمّ.

وأيضاً من الطريف في هذه الآية أنّها عنونت المراحل المتقدّمة بعناوين قابلة للفهم البشري من: النطفة والعلقة والمضغة والعظم وكسوة اللحم، ولكن أشارت إلى المرحلة الأخيرة ـ وهي نفخ الروح ـ بما يوحي إلى أنّه غير قابل

---

(١) راجع پيام قرآن ٨: ١٧٣ ـ ١٧٤.

للدرك في فهم الإنسان المادّي فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ من دون أن يسمّي ذاك الخلق باسم؛ لأنّه ليس له اسم قابل للدرك في الذهن البشري، كما قال الله تعالىٰ: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾**[1] علىٰ ما في أكبر الظنّ من أنّ المقصود بالروح هو الروح البشريّة، أو مطلق الروح الحيوانيّة علىٰ الرغم من أنّ بعض الأكابر[2] أصرّ علىٰ كون المقصود بالروح روح الأمين جبرائيل، وممّا ذكره كقرينة علىٰ ذلك: أنّ السائلين في قوله: **﴿يَسْأَلُونَكَ﴾** وإن كانوا بعض المشركين، لكنّهم إنّما سألوا بدلالة بعض اليهود الذين كانوا أعداء لجبرئيل باعتقادهم أنّه حرّف النبوّة من نسل إسرائيل إلى نسل إسماعيل، ويقولون بشأنه: خان الأمين؛ ولهذا قال الله تعالىٰ في ردّهم: **﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[3].

أقول: إنّ هذا الكلام غريب؛ فإنّ الظاهر من فرض السؤال عن الروح هو السؤال عن هويته لا عن أمانته أو خيانته أو عن طيبه أو خبثه.

ومن الجدير بالذكر بهذه المناسبة أنّ البعض قد يتصوّر التضارب في بعض الأُمور بين العلم والدين، وقد يذكر كمثل لذلك ما هو المعروف في الفقه من أنّ الروح ينفخ في الجنين من بعد الأربعة أشهر، في حين أنّ العلم يقول: إنّ الجنين مشتمل علىٰ الروح من أوّل يوم؛ ولهذا ينمو ويتكامل ويطوي المراحل المختلفة، وقد يذكر أيضاً كمثل لذلك ما هو معلوم لدى الفقه من التفكيك بين دم الحيض ودم الاستحاضة، في حين أنّ العلم لا يفرّق بينهما ويراهما حقيقة

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) راجع منشور جاويد ٣، الفصل العاشر.

(٣) س ٢ البقرة، الآية: ٩٧.

واحدة ومن منبع واحد.

والواقع أنّ التضارب بين العلم والدين من المستحيلات؛ لأنّ خالق العلم ومنزّل الدين واحد وهو الله تعالىٰ، أمّا الجواب علىٰ ما ذكرناهما من المثلين والمسموعين من بعض الأطبّاء فواضح:

أمّا المَثَل الأوّل فلأنّ فيه خلطاً بين الروح النباتيّة والتي تؤدّي إلى النموّ، والروح الحيوانيّة والتي تؤدّي إلى الحركات الإراديّة التي يتّصف بها الجنين عادة من بعد الأربعة أشهر.

وأمّا المَثَل الثاني فلأنّ فيه خلطاً بين تماثل الدّمين في الهويّة والعناصر التي يأتلف منها الدم، وفي منبع نزول الدم من ناحية وأسباب النزول من ناحية أُخرىٰ، فسبب نزول دم الحيض سبب صحّي؛ ولهذا لا يعالجه الأطبّاء، وسبب نزول دم الاستحاضة سبب مرضي؛ ولهذا يحاول الطبيب معالجته، وسبب نزول الحيض هو التمزّق الدوري لغشاء الرحم، في حين أن سبب الاستحاضة كما قلنا انحراف المزاج، ونزول الحيض آيةٌ لقابليّة الحمل وليست الاستحاضة كذلك.

**٨ ـ السقف المحفوظ المسمّى اليوم بالغلاف الجوّي :**

قال الله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾**[1]، **﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**[2].

كان الاعتقاد السائد قديماً هو أنّ السماوات كقشور البصل، فكأنّ كلّ سماء قشر كالقشور الأرضيّة، وبعضها منطبق علىٰ البعض، ثمّ انكشف ـ علىٰ الأقل

---

(١) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٣٢.　　(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ١٢٥.

بالنسبة لما هو مرتبط ماديّاً بأرضنا وهي ما يسمّى بالسماء الدنيا ـ أنّه ليس الأمر كذلك، بل كوكبنا وكباقي الكواكب بالقدر المكشوف لنا كلّها كرات سابحة في جوّ يبدو لنا أنّه غير متناه.

وبهذا أصبح معنى قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ أمراً غامضاً؛ إذ يقال: لا سقف لعالمنا وأرضناأو مجرّتنا أو المجرّات الملحوظة كي يكون محفوظاً أو غير محفوظ، فلابدّ من حمل الآية علىٰ معنى مجازي.

ولكن العلم كشف أخيراً عن أنّ أرضنا محفوفة بالهواء المسمّى بالغلاف الجوّي، وهو هواء رقيق أرقّ وأصفى من الهواء المألوف عندنا في مرافق الأرض، وهذا الغلاف بلغ من الضخامة مئات الكيلو مترات وهو متألّف من الهواء وبعض الغازات الأُخرى، وضخامته التي أشرنا إليها جعلته مقاوماً ومحفوظاً كسقف حديدي يبلغ نحو عشرة أمتار مثلاً، ليحفظ الأرض ومن عليها وما عليها من الأخطار النازلة والمتنوّعة:

فالأحجار المسمّاة بالشهب تنزل بأسرع ما يتصوّر إلى الأرض، وواحدة منها تكفي لهلاكنا أو هلاك قسم واسع من أرضنا، فكيف وعددها يبلغ يوميّاً الملايين علىٰ ما يقول العلماء؟ ولكنّها جميعاً تصطدم في طريقها بذاك الغلاف الجوّي الضخم وتحترق بذلك، إلّا بعض الأجزاء اليسيرة المتبقّية من بعض الأحجار الكبيرة، فتخرق هذا السقف، وتحقّق بعض التهديمات المهمّة في بعض نقاط الأرض، وكأنّ ذلك لإلفات نظرنا وتنبيهنا إلى الأخطار الحقيقيّة للشهب التي يحفظنا منها هذا السقف المحفوظ.

وكذلك يحفظنا هذا السقف المحفوظ من الأشعّة فوق البنفسجيّة الصادرة من الشمس ممّا لا تدرك بالبصر، ومقدارها الضئيل الذي يصلنا ينفعنا ويقتل كثيراً من الميكروبات الملوّثة للجوّ؛ لما له من التأثير المضادّ الحيويّ، ولكن الكثير

من تلك الأشعة يحرق البدن، وامتصاص الغلاف الجوّي للزائد منها هـو الذي ينجينا من الهلاك.

وكذلك يحفظنا هذا السقف المحفوظ أو قل: هذا الغلاف الجوّي من الأشعة التي تنزل إلينا من فوق المنظومة الشمسيّة بواسطة ما فيه من غاز أزرق يسمّى بالأُوزون. وقد شاعت في هذه الأيّام مخاوف العلماء من حدوث رقّة في طبقة الأُوزون نتيجة تصاعد بعض الغازات الأرضيّة النـاشئة مـن احـتراق الوقـود وغيره.

وإطلاق كلمة السماء في هذه الآية المباركة علىٰ ما يسمّى اليوم بـالغلاف الجوّي ليس غريباً؛ فإنّ كلمة السماء يبدو أنّها استعملت يقينا في هذا المعنى في عديد من الآيات، من قبيل آيات إنزال ماء المطر من السـماء كـقوله تـعالىٰ: **﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾**(١).

وقل لي بالله عليك أنّ الرجل الأُمّي ـ أرواحنا له الفداء ـ كيف عرف الفرق بين الهواء المتواجد لدينا في مرافق أرضنا، والهواء الفوقاني من ناحية أنّ الهواء المتواجد لدينا مضغوط وفيه من الأُكسيجن ما يكفي للتنفّس بكلّ راحة، فـي حين أنّنا كلّما نصعد في الهواء ونقترب أكثر من ذاك السقف المحفوظ أو طبقات الغلاف الجوّي يرقّ الهواء أكثر ويقلّ فيه عنصر الأُكسجين، فيضيق التنفّس في الصدر إلى أن ينعدم، فورد في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: **﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**(٢).

إنّ هذه حقيقة لم تنكشف للعلم إلّا بعد قـرون مـتمادية، فـترى اليـوم أنّ

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ١٢٥.

المشرفين علىٰ الطائرات يعلنون لركّابها أنّ الهواء داخل الطائرة مكيّف بتكييف خاصّ لتسهيل التنفّس، فلو حصل أيّ عطب أو خلل أوجب ضيق التنفّس زوّدناكم بأجهزة اُكسجينيّة تستفيدون منها حتّىٰ تهبط الطائرة إلى الجوّ المناسب من الهواء.

**٩ ـ نسبة البَرَد إلى الجبال في السماء:**

فقد ورد في القرآن الكريم نسبة البَرَد[١] ـ الذي ينزل إلى الأرض عادة مع الأمطار ـ إلى جبال في السماء، فكأن المطر يسير إلى تلك الجبال ويحمل منها البَرَد، فينزل البَرَد ضمن المطر إلى الأرض، قال الله تعالىٰ: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾**[٢].

والمقدار المعروف لدى الناس الاعتياديين في زماننا ـ لا في زمان نزول الآية ـ أنّ السحاب الذي هو عبارة عن البخار المتصاعد من الأرض إلى السماء يتحوّل بالتلاقي مع برودة الطبقات الجوّية العليا إلى ماء، وينزل مرّة اُخرىٰ إلى الأرض، وقد يتحوّل نتيجة شدّة البرد إلى الثلج؛ وذلك علىٰ شكلين: فإن تحوّل السحاب بشدّة البرد إلى الثلج تكوّن الوفر ونزل، وإن تحوّل بسبب مستوى معيّن من البرد إلى الماء وهو المطر ثمّ تحوّل بعض قطرات هذا المطر في الأثناء بشدّة البرد إلى الثلج تكوّن البَرَد ونزل البَرَد إلى الأرض. أمّا افتراض أنّ البَرَد

---

(١) البَرَد: الماء الجامد ينزل من السحاب قِطَعاً صغاراً، ويسمّىٰ: حبّ الغمام. المعجم الوسيط «برد».

(٢) س ٢٤ النور، الآية: ٤٣.

عبارة عن حبّات تؤخذ من جبال في السماء فيكاد يبدو في الذهن ـ لولا اكتشافات علميّة أخيرة ـ من الخرافات.

إلّا أنّ الاكتشافات الأخيرة تقول: إنّ المطر حينما يلتقي طبقة باردة في الجوّ، وتتحوّل قطرات منه إلى الثلج تكون تلك القطرات صغيرة جدّاً، ولا تبلغ ابتداءً حجم البَرَد المألوف لدينا نزوله هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ تقول الاكتشافات: إنّ الغيوم وإن كانت تتراءىٰ لنا في ظاهر الحال كأوراق مفروشة في السماء، ولكنّها كما نراها من الطائرات التي تعلوها تكون في جهتها الأُخرى جبالاً سحابيّة، أي ركاماً ـ كما عبّر به في القرآن ـ ضخماً مختلف السطوح وليست كوجهها الظاهر لنا من مكان بعيد، وهي تماماً كالجبال الأرضية متفاوتة السطوح ومختلفة الأحجام، ومن ناحية ثالثة تقول الاكتشافات أيضاً: إنّ تلك القطرات الثلجية الصغيرة الضئيلة يأخذ بها الريح لخفّتها يميناً وشمالاً وصعوداً إلى تلك الجبال الغيميّة، وتمتصّ معها مرّة أُخرىٰ رطوبة الجوّ لتتحوّل إلى قشر ثلجيّ جديد في طريقها للنزول، فيكبر بذلك حجم البَرَد، وتتكرّر هذه العمليّة عدّة مرّات إلى أن تبلغ من الكبر ما لا يستطيع الهواء رفعه مرّة أُخرىٰ إلى ما فوق تلك الجبال، فتأخذ طريقها في الهبوط إلى الأرض بحجمها المألوف أو بتعبير القرآن: علىٰ شكل البَرَد فقد عرفنا كيف يحمل المطر البَرَد من الجبال.

بل قيل: إنّ من تلك الجبال ما هي متحوّلة إلى ثلوج ناعمة متراكمة(١).

أقول: ويحتمل ـ ولعل هذا يكشفه العلم بالمستقبل ـ وجود جبال هوائيّة باردة، كما يحسّ به اليوم من وجود وِديان هوائيّة قد تجذب الطائرات الصاعدة.

---

(١) راجع پيام قرآن ٨: ١٨١ ـ ١٨٢.

١٠ ـ عظمة ودقّة صنع البنان :

قال الله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه﴾[١]. هذه الآية المباركة تبدأ بالاستنكار علىٰ من لا يستطيع التصديق بقدرة الله سبحانه علىٰ جمع عظام الميّت ونفخ الروح فيه مرّة اُخرىٰ، وتنتهي بالإشارة إلى قدرته عزّ وجلّ علىٰ صنع أدقّ عضو من أعضاء الإنسان وإرجاعه إلى الخلق الأوّل، فعلى خلاف ما قد يبدو في تصوّر ساذج من أنّ العظام الكبيرة العظيمة التي تتقوّم بها البُنية الأصليّة من الجسد هي أعظم ما يكون في صنع البشر، يقول الله تعالىٰ: لا تستغرب من إرجاع العظام إلى ما كانت عليه في الخلق الأوّل، فهنا ما يكون أعظم وأغرب في الصنع وأدقّ في التسوية والترتيب، والله تعالىٰ يُرجعها ويُرجع العظام وباقي الأعضاء كما كانت، ألا وهي البنان.

فمن الذي كان يعرف أنّ البنان من أغرب ما في جسم البشر وأعظمها وأدقّها قبل أن يكتشف العلم خطوط البنان التي لو قيس فيها بنان شخص ببنان شخص آخر مع الجمع بين الأوّلين والآخرين من البشر من أوّل العالم وإلى يوم القيامة فلن يوجد بنانان متساويان لشخصين في تلك الخطوط؟ ولهذا أصبحت البصمة في عالم القضاء والحكم في زماننا هذا أمتن توقيع متميّز فوق الختم والإمضاء، فكلّ شيء يقبل التزوير والتصنيع ما عدا بصمة البنان، وأصبح تشخيص المجرم عن طريق آثار البنان ـ التي تبقىٰ علىٰ الأبواب أو الأقفال أو الحيطان أو الأسلحة أو ما إلى ذلك ـ فنّاً رائعاً من فنون هذا العصر، نعم يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه﴾.

---

(١) س ٧٥ القيامة، الآية: ٣ ـ ٤.

## الإخبار عن أُمور غيبيّة مستقبليّة

وردت أخبار غيبيّة مستقبليّة في القرآن من قبيل:

**١ ـ انتصار الروم بعد بضع سنين:**

قال تبارك وتعالىٰ: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[١].

قالوا: وقعت حرب بين الروم والفُرس بهجوم من قبل الفُرس سنة (٦١٧) الميلاديّة تقريباً علىٰ الروم في أراضي الشامات، وانتهت بهزيمة الامبراطوريّة الروميّة الشرقيّة وأصبحت علىٰ أبواب الانقراض. وكان ذلك فيما يقارب السنة الهجريّة السابعة، وأوجب فرحاً وسروراً للمشركين في مكّة؛ لأنّ الفُرس كانوا مشركين مجوسيّين والروم مسيحيّين ومن أهل الكتاب، فتفاءل مشركو مكّة بأنّهم سيغلبون المسلمين، ويُنهون بذلك حياة رسول الله ﷺ، وهذا ما أوجب فرح المشركين وأذى المسلمين واغتمامهم، فنزلت الآية المباركة المصرّحة بأنّ الروم سيَغلِبون في ما هو أقل من عشر سنين.

والذي وقع حسب ما يحدّثنا التاريخ هو بدء غلبة الروم علىٰ الفُرس من سنة (٦٢٦) الميلاديّة في حروبهم مع إيران إلى سنة (٦٢٧)، فكان يتمّ للروم

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ١ ـ ٦.

الانتصار تلو الانتصار حتّىٰ اكتمل انتصارهم، وخلع الإيرانيون ملكهم خسرو پرويز ونصبوا مكانه ابنه شيرويه. إذن بدأت انتصارات هرقل ملك الروم بعد تسع سنين من انكساره واكتملت في السنة العاشرة، حيث اكتسح سلطانه الأرض إلى ما يقرب من عاصمة خسرو فهرب وخلعه الإيرانيون وقُتل بعد ذلك.

٢ ـ دخول المسجد الحرام :

قال تبارك وتعالىٰ: **﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾**(١).

قالوا: عزم رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ زيارة المسجد الحرام وأداء العمرة في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة، وطلب من المسلمين مصاحبته في هذا العمل فاستجاب كثير منهم. وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في عالم الرؤيا دخوله مع أصحابه المسجد الحرام لأداء مناسك العمرة، وحدّث المسلمين بذلك، ورؤيا النبي تعتبر بمنزلة الوحي، فتوهّم المسلمون أنّ ذلك سيكون في تلك السنة نفسها.

وسار مع رسول الله صلى الله عليه وآله نحو ألف وأربع مئة نفر وهم لا يحملون من السلاح إلّا السيف الذي يعتبر سلاح السفر ولا يكفي للحرب، وحينما وصلوا إلى عسفان قريباً من مكّة عرفوا أنّ قريشاً صمّمت علىٰ منعهم من دخول مكّة، ولكنّهم ساروا إلى الحديبيّة التي كانت تبعد عن مكّة بعشرين كيلو متراً، فوقفت الناقة وزجرها فلم تنزجر وبركت، فقال أصحابه: خلأت الناقة. أي بركت ولم تبرح

---

(١) س ٤٨ الفتح، الآية: ٢٧.

مكانها. فقال رسول الله ﷺ: وما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل. ودعا عمر بن الخطّاب ليرسله إلى مكّة ليأذنوا له بأن يدخل مكّة ويحلّ من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها من حميم، وإنّي أخاف قريشاً لشدّة عداوتي إيّاها، ولكن أدلّك علىٰ رجل هو أعزّ بها منّي وهو عثمان بن عفّان. فقال: صدقت. فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسل إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنّما جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكّة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ـ حين دخل مكّة أو قبل أن يدخلها ـ فحمله بين يديه، ثمّ أجاره حتّى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان قد قتل، فقال ﷺ: لا نبرح حتّى نناجز القوم. فدعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة فاستند إليها، وبايع الناس علىٰ أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا.

ونزل ﷺ بأقصى الحديبيّة علىٰ ثمد قليل الماء، فشكوا إليه العطش، فانتزع رسول الله ﷺ سهماً من كنانته ثمّ أمرهم أن يجعلوه في الماء، فوالله مازال يجيش لهم بالريّ حتّى صدروا عنه، وبعد ذلك جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وأخبره بتهيّؤ قريش للقتال، فقال له رسول الله ﷺ: نحن لم نجئ لنقاتل أحداً ولكنّنا جئنا معتمرين. وعرض ﷺ عليه فكرة الصلح وإيقاف الحرب لمدّة بين المسلمين والمشركين، وإعطاءه حرّية تبليغ الرسالة مع كونهم في أمان من المسلمين وكون المسلمين في أمان منهم، فقال بديل: سأُبلّغهم ما تقول. فرجع إلى قريش وأخبرهم بكلام رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود الثقفي وقال: إنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعوني آته. فأتى النبيّ ﷺ وضمن حواره معه ﷺ جعل يرمق صحابته ﷺ، فإذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلّموا

أخفضوا أصواتهم عنده وما يحدّون إليه النـظر تـعظيماً له. فـرجـع عـروة إلى أصحابه وقال: أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ المـلوك، ووفـدت عـلىٰ قـيصر وكسرىٰ والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصـحابه بـمثل مـا يـعظّم أصحاب محمّد محمّداً، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بني كنانه: دعوني آته. فلمّا أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ: وهذا فلان وهو من قوم يعظّمون البـدن فابعثوها له. واستقبله القوم يلبّون، فلمّا رآى ذلك قال لأصحابه: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا. فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال: دعوني آته. فلمّا أشرف عليهم قال النبيّ ﷺ: هذا مكرز وهـو رجـل فـاجر فـجعل يكـلّم النبيّ ﷺ، فبينا هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ: قد سهّل الله عليكم أمركم. فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال له اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أمّا الرحمن فو الله ما أدري ما هو ولكن اكتب بسمك اللّهمّ. فقال المسـلمون: والله لا نكـتبها إلّا بسـم الله الرحمن الرحيم. فقال النبيّ ﷺ: اكتب بسمك اللّهمّ، هذا ما قضى عـليه مـحمّد رسول الله. فقال سهيل: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البـيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمّد بن عبدالله. فـقال النـبيّ ﷺ: إنّـي رسـول الله وإن كذّبتموني. ثمّ قال لعليّ عليه السلام: امح رسول الله. فقال عليه السلام: يا رسول الله، إنّ يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوّة. قال له: فضع يدي عليها. فمحاها رسول الله ﷺ بيده.

ثمّ قال رسول الله ﷺ: يا عليّ، إنّك أبيت أن تمحو اسمي من النبوّة، فوالذي بعثني بالحقّ نبيّاً لتجيبنّ أبناءهم إلى مثلها وأنت حضيض مضطهد. فلمّا كان يوم

صفّين ورضوا بالحكمين كتب: هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال عمرو بن العاص: لو علمنا أنّك أمير المؤمنين ما حاربناك، ولكن اكتب: هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: صدق الله وصدق رسوله صلى الله عليه وآله؛ أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك. ثمّ كتب الكتاب.

وممّا ينقل عن هذه القصّة أنّه «أقبل سهيل بن عمرو إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا محمّد، إنّ أرقّاءنا لحقوا بك فارددهم علينا. فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى تبيّن الغضب في وجهه ثمّ قال: لتنتهن يا معاشر قريش، أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب رقابكم علىٰ الدين. فقال بعض من حضر: يا رسول الله، أبوبكر ذلك الرجل؟ قال: لا. قال: فعمر؟ قال: لا، ولكنّه خاصف النعل في الحجرة. فتبادر الناس إلى الحجرة ينظرون من الرجل فإذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»[1]، ورُوي أنّه كان الذي أصلحه أمير المؤمنين عليه السلام من نعل النبيّ صلى الله عليه وآله شسعها؛ فإنّه كان قد انقطع فخصف موضعه وأصلحه.

وفي رواية أُخرىٰ: أنّ أبابكر هو الذي قال: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: لا. وعمر هو الذي قال: أنا هو يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله: لا، ولكنّه ذلكم خاصف النعل في الحجرة[2].

وعلىٰ أيّ حال فبعد الصلح اعترض بعض علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّ الرؤيا إذن لم تصدق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هل قلت لكم إنّه في هذه السنة سندخل المسجد الحرام؟ إنّما قلت: إنّه سيتحقّق ذلك في وقت قريب. فنزلت الآية

---

(١) البحار ٢٠ : ٣٦٠، الباب ٢٠ من أبواب أحوال الرسول صلى الله عليه وآله، الحديث ٩.

(٢) راجع المصدر السابق : ٣٦٤، الحديث ١١.

المباركة وتحقّق الأمر في العام المقبل[١].

بقي الكلام في ذيل الآية المباركة وهو قوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ فقد ذُكر لذلك تفسيران:

أحدهما : إنّ المقصود بذلك نفس صلح الحديبيّة، وقد يدلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ في أوّل السورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٢]، فإنّ أغلب الظنّ أنّ المقصود بالفتح المبين هو صلح الحديبيّة لا فتح مكّة ولا فتح خيبر؛ بدليل كون الآية ضمن آيات الحديبيّة، والتعبير بـ﴿فَتَحْنَا﴾ تعبير بفعل ماض ظاهر في تحقّق الفتح، ولم يكن في أيّام الحديبيّة فتح غير صلح الحديبيّة. وقد نقل عن تفسير جوامع الجامع: أنّه حينما نزلت سورة الفتح عند الرجوع من الحديبيّة إلى المدينة قال أحدهم: ما هذا الفتح؟ لقد صددنا عن البيت وصدّ هدينا، فقال ﷺ: بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراع، ويسألوكم القضيّة ورغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا[٣].

وقد يقال: ما معنى عدّ الصلح فتحاً؟

والجواب: أنّ هذا الصلح أوّلاً لم يكن بإصرار المسلمين بل أصبح مطلباً للمشركين فأعطى ذلك أُبّهة للإسلام؛ لأنّ المشركين خافوا سطوتهم ونزلوا إلى

---

(١) راجع لتفصيل القصّة البحار ٢٠، باب غزوة الحديبيّة وبيعة الرضوان، وكذلك باقي كتب السيرة المفصّلة.

(٢) س ٤٨ الفتح، الآية: ١ ـ ٤.

(٣) تفسير نمونه ٢٢ : ١٦ نقلاً عن تفسير جوامع الجامع.

الصلح. وثانياً كان من بنود الصلح حرّية نشر الإسلام حتّى من قبل مسلمي مكّة في داخلها. وثالثاً إنّ الصلح صبغ الإسلام بصبغته الواقعيّة وهي عدم كونه دين قتال ونزاع، وأنّه يقبل بصلح عادل ما لم يضطرّ إلى دفع العدوّ بالقوّة، ومن هنا قوي الإسلام فيما بعد صلح الحديبيّة في زمن قصير نسبيّاً إلى أن فتحت مكّة بسهولة. وقد نقل عن الزهري أنّه لم يكن فتح أعظم من فتح الحديبيّة(١).

وممّا يؤيّد أيضاً كون المقصود بالفتح المبين صلح الحديبيّة: التعبير في ذيل الآية بقوله: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِين**﴾؛ إذ نحن نعلم أنّ إنزال السكينة في قلوب المؤمنين كان في بيعة الرضوان التي وقعت قبيل الصلح حينما صمّم رسول الله صلى الله عليه وآله في ظاهر الحال علىٰ القتال وأخذ البيعة من المؤمنين، إذ قال الله: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً**﴾(٢).

إلّا أنّ كلّ هذا يكون شاهداً علىٰ كون المقصود بالفتح المبين هو صلح الحديبيّة، ولكن كلامنا الآن في الفتح القريب الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿**فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً**﴾ ولم نظفر حتّىٰ الآن بشاهد قويّ علىٰ توحّد الفتح القريب مع الفتح المبين.

ثانيهما: ـ وهو أكبر الظنّ ـ أنّ المقصود بالفتح القريب في الآية هو عين الفتح القريب في ما قبلها في الآية: (١٨)، ومن الواضح من تلك الآية أنّ المقصود بالفتح القريب هو فتح خيبر؛ بدليل أنّه عُطف عليه قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا**﴾(٣)، وهو منصرف إلى المغانم المادّيّة، وهي لم تكن في صلح

---

(١) تفسير نمونه ٢٢ : ١٧ نقلاً عن تفسير الدرّ المنثور ٦: ١٠٩.

(٢) س ٤٨ الفتح، الآية: ١٨.

(٣) س ٤٨ الفتح، الآية: ١٩.

الحديبيّة، ولكن وقعت بعد ذلك قريباً في فتح خيبر، وعليه فهذا الدليل إشارة ثانية إلى أمر غيبيّ مستقبلي آخر وهو فتح خيبر.

**٣ ـ اختراع وسائل النقل الحديثة :**

قال تبارك وتعالىٰ: **﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**[1]، فإنّ هذه الآية تكون إخباراً عن اختراع وسائل النقل في زماننا بناءاً علىٰ ما قد يقال: من أنّ عطف قوله تعالىٰ: **﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** علىٰ ما يركب قديماً من الخيل والبغال والحمير ـ التي وصفها الله تعالىٰ بكونها وسائل السفر والنقل إلى ما لم نكن نبلغه إلّا بشق الأنفس ـ ظاهر في كون المقصود بما يخلق بعد ذلك ممّا لم تكن البشريّة تعلم به هو وسائل السفر والنقل الحديثة، أمثال السيّارات والطائرات ممّا لم يكن ممكناً توضيحه حتّى علىٰ مستوى التصوّر للبشريّة وقتئذٍ إلّا بمثل: **﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**، وهذا لا يكون إلّا من قول إله نسبته إلى الماضي والحال والمستقبل سواء.

* * *

---

(١) س ١٦ النحل، الآية: ٥ ـ ٨.

## معاجز النبيّ ﷺ غير القرآن

نشير باختصار إلى أنّ معاجز النبيّ ﷺ لم تكن منحصرة في القرآن بل كانت له معاجز أُخرىٰ، ولكنّها لم تكن خالدة وإنّما كانت مختصّة بأوقاتها.

أمّا أنّنا كيف نستفيد منها مع اختصاصها بأوقاتها؟ فلذلك عدّة طرق:

الأوّل: الاستفادة من تواترها الإجمالي.

الثاني: الاستفادة من التواتر الذي قد يتّفق صدفة لمعجز معيّن من النقل الكثير الواسع، كما يدّعىٰ ذلك في إعجاز انشقاق القمر.

الثالث: الاستفادة من المعاجز التي أُشير إليها في القرآن علىٰ أساس أنّها لو كانت كذباً لكان يتّضح بسهولة كذب القرآن في وقته، ولانتهى الإسلام في أوائل بزوغه، علىٰ أنّه من لا يعترف بنبوّة رسول الله ﷺ لا يشكّ في نبوغه وحكمته فلا يحتمل بشأنه الكذب الذي ينكشف في نفس الأيّام الأُولىٰ، ولو فعل ذلك لسهل علىٰ الأعداء إبطال دينه بلا حاجة إلى الحروب الطاحنة للطرفين.

وهنا نشير إلى معجزتين من المعجزات المشار إليها في القرآن:

### الأُولى ـ الإسراء :

قال تعالىٰ: ﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[1].

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ١.

ومن الواضح أنّ دعوى الإسراء إلى المسجد الأقصى والرجوع منه في ليلة واحدة لو كانت كذباً لأمكنهم فضح النبيّ ﷺ بأسرع وقت بتوجيه أسئلة إليه يعجز عن الإجابة عنها؛ لأنّه لم يكن في حياته قد سافر إلى المسجد الأقصىٰ، ولو أجاب عنها بإجابات كاذبة فما كان أسهل كشف كذبه.

وقد ورد أنه ﷺ أخبرهم عن رؤيته عيراً لهم في موضع كذا وكذا، وأنّ لهم ماء في آنية فشرب ﷺ منه وأراق الباقي، وقد كانوا أضلّوا بعيراً لهم فلمّا أخبرهم قالوا: حتّى تجيء العير ونسألهم عمّا قلت. فقال لهم رسول الله ﷺ: وتصديق ذلك أنّ العير تطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر. فلمّا أصبحوا أقبلوا ينظرون إلى العقبة وهم يقولون: هذه الشمس تطلع الساعة. فبيناهم كذلك إذ طلعت العير مع طلوع الشمس يقدمها جمل أحمر، فسألوهم عمّا قال رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد كان هذا، فقد ضلّ لنا جمل في موضع كذا وكذا ووضعنا ماءً وأصبحنا وقد أُريق الماء[١].

**الثانية ـ انشقاق القمر :**

قال تعالىٰ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ**﴾[٢].

ولا يمكن حمل الآية علىٰ شقّ القمر الذي يقال إنّه يقع بعنوان علامة على بدء القيامة ويكون من أشراطها، فإنّه لا معنى لافتراض حمل ذلك من قبل الكفّار علىٰ السحر، أو تكذيبهم لدين الإسلام، فالمقصود يقيناً هو الإعجاز الذي وقع في زمان رسول الله ﷺ.

---

(١) تفسير كنز الدقائق ٧: ٣٠٤.　　(٢) س ٥٤ القمر، الآية: ١ ـ ٣.

ويا تُرى هل يعقل أن يدّعي رسول الله ﷺ كذباً انشقاق القمر ثمّ لا ينفضح كذبه؟

وقد يعترض علىٰ قصّة شقّ القمر بأنّها لو كانت واقعيّة لانعكست في كلّ تواريخ العالم؛ فإنّ انشقاق القمر ليس بأمر هيّن حتّىٰ لا يجلب انتباه الكثيرين.

وقد أجاب عن ذلك الشيخ آية الله مكارم في پيام قرآن[1]: بأنّ شقّ القمر لا يراه من كان في النصف الثاني من العالم؛ لخلو الأُفق منه لدى وجوده في النصف الآخر هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ كان وقته بعد نصف الليل في حين أنّ أكثر الذين يمكنهم مشاهدته في النصف الآخر كانوا نياماً، ومن ناحية ثالثة يمكن افتراض كون قسم من العالم قد استتر القمر فيه بالسحاب، ومن ناحية رابعة إنّ شقّ القمر ليس كالصاعقة ولا كالخسوف والكسوف الكليّين ممّا يجلب الأنظار بصوته أو بسبب مفاجأته العالم بالظلام، ومن ناحية خامسة لم تكن وسائل تدوين التاريخ وكتبه منتشرة في ذلك الزمان، إذن لم يكن عدم ذكر حادث ما في غير التاريخ الإسلامي دليلاً علىٰ عدمه، أو موجباً لإثارة التعجّب منه.

❊ ❊ ❊

---

(١) پيام قرآن ٨: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

# إخبار أنبياء سابقين عن نبوّة رسول الله ﷺ

مضى أنّ من وسائل إثبات النبوّة هو إخبار نبيٍّ سابق عن نبوّة النبي المأخّر وهذا متحقّق بشأن نبوّة رسول الله ﷺ لإخبار التوراة والإنجيل عنها، وإن عُمّي عليها في التوراة والإنجيل الحاليين فلا شكّ في وجودها بوضوح في التوراة والإنجيل زمن الرسول ﷺ بدليل أنّ القرآن أخبر بذلك، في حين أنّه لو كان كاذباً لفضحه الكفّار في ذلك الزمان بأسهل ما يكون.

وقد أخبر القرآن عن ذلك في عدّة آيات:

١ ـ **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**(١).

٢ ـ **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**(٢).

٣ ـ **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾**(٣).

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ٢٠.

(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ١٥٧.

## تجميع قرائن مختلفة علىٰ نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وآله

إنّ القرائن المختلفة من ظروف البيئة وظروف النبيّ وأوصـافه وأوصـاف أتباعه وما إلى ذلك تدلّ بمجموعها دلالة أقوى من دلالة الإعجاز علىٰ صدقه، من قبيل: صدقه وأمانته طيلة حياته قبل النبوّة مـن نـاحية، ورفـعة مسـتوى المعارف المعطاة من قبله من ناحية أُخرىٰ، ومستوى دناءة بيئته علماً ومعرفةً وانهماكاً في الخرافات وما إلى ذلك ممّا لا يحتمل عادة انبثاق تلك الظروف عن نظم وقوانين وأخلاقيّات وقيم من أرفع ما يمكن أن يكون من نـاحية ثـالثة، وعلىٰ الرغم من كون النبيّ نفسه أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب من ناحية رابعة، وأمثال ذلك من القرائن والدلائل.

فها هو نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله كان أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب كما ورد ذلك في القرآن: **﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْـمُبْطِلُونَ﴾**[1]، والفارق كان عظيماً بين مستوى المعارف الموجودة في القرآن ومستوى ثقافة الرسول صلى الله عليه وآله الظاهريّة والعاديّة قبل نبوّته: **﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَـلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[2].

(١) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٤٨.
(٢) س ١٠ يونس، الآية: ١٦.

وكانت شبه الجزيرة العربيّة منهمكة في الضلال والخرافات والحروب والرذائل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وأيّ ضلالٍ أشدّ من صنع الصنم بأيديهم من الخشب أو الحجر ثمّ عبادته: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[2]؟ أو من صنع إله من التمر ثمّ أكلهم إيّاه؟ أو من وأد البنات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[3]؟ أو من الحروب والعداوات والاعتداءات الدائمة ضمن قوميّة واحدة: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[4]؟ أو من خرافيّة عباداتهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾[5]؟ أو من تفاخرهم الخرافي بالعدد حتّى بالأموات: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[6]، أو ما إلى ذلك؟ وبهذا اتضح انطباق دليل آخر من أدلّة النبوّة علىٰ نبوّة نبيّنا ﷺ.

* * *

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) س ٣٧ الصافّات، الآية: ٩٥.

(٣) س ١٦ النحل، الآية: ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) س ٣ آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٥) س ٨ الأنفال، الآية: ٣٥.

(٦) س ١٠٢ التكاثر، الآية: ١ ـ ٢.

# مضمون دعوة نبيّنا صلى الله عليه وآله

اتضح ممّا سبق في بحث النبوّة العامّة أنّ مضمون الدعوة قد يلقي الضوء علىٰ صدق الدعوة؛ فإنّ الفرق بين الدين المصطنع الكاذب والدين السماويّ الإلهي في مستوى المعارف والأفكار شاسع لا يخفى علىٰ ذي حِجر، بل إنّ من يكون من أهل المعرفة بمقدار ما يتذوّق المعارف الراقية والنُظُم الشامخة والحِكَم البالغة والمبادئ العالية يحسّ أنّ دلالة هذا الوجه علىٰ النبوّة الحقّة أقوى من دلالة الإعجاز، نعم دلالة الإعجاز عامّة لجميع الطبقات، ودلالة هذا الوجه مخصوصة بالطبقة الواعية للمعارف الراقية والنظم الشامخة، وهنا نقول: إنّ نفس علوّ معارف القرآن والإسلام ونُظُمهما ـ حتّىٰ لو فصلناها عن باقي القرائن التي أشرنا اليها في الدليل الثالث ـ تلقي الضوء الواضح علىٰ صدق دعوة نبيّنا صلى الله عليه وآله، فلنشر ولو مختصراً إلى المعارف القرآنية والإسلاميّة الشامخة، سواء في جانب النُظُم والقوانين الحيّة التي تسعد البشريّة في الدنيا قبل الآخرة، أو في جانب الأخلاق وتهذيب النفوس، أو في جانب المراتب العرفانيّة الراقية، أو في جانب مبدأ التوحيد:

# النظم الحياتيّة الراقية والمعارف الأخلاقيّة المطروحتان في الإسلام والقرآن

ولنبدأ لتوضيح الفكرة بالإشارة إلى مشكلة الإنسانيّة المعذّبة والحلّ الذي أتىٰ به القرآن والإسلام لذلك، ونفتتح الحديث بإلقاء نظرة مختصرة علىٰ بعض بديهيّات الساحة التي نعيشها في الوقت الحاضر والتي وصلتنا بشكل قاطع من وقتنا القريب، وانتهت إلينا أيضاً من التاريخ الحاكي عن الوقت البعيد، أو من الكُتب السماويّة الحاكية عمّا قبل التاريخ:

إنّ البشريّة المعذّبة لم تر حتّى الآن حياة اجتماعيّة طيّبة وهنيئة علىٰ وجه الأرض، ابتداءً بالمجتمع الأوّلي الصغير الذي وقعت فيه مشكلة هابيل وقابيل، وانتهاءً بزماننا هذا الذي تعتبر فيه الصهيونيّة من مفردات مشاكله وويلاته البارزة، فقد شكّلت مصدراً للظلم وهدر الحقوق بالنسبة للعرب والمسلمين معاً، وهم يقفون في وجهها مضحّين بالغالي والنفيس في سبيل درء الظلم عن أنفسهم واسترجاع حقوقهم.

وإنّنا نعتقد أنّ الحلّ الوحيد لجميع المصائب الاجتماعيّة والظلم والمحن والاضطهاد هو الإسلام.

إلّا أنّ الإسلام لم يطبّق حتّى يومنا هذا علىٰ وجه الأرض إلّا ضمن نقائص ثلاثة:

**أوّلاً**: إنّ جميع تطبيقاته من زمن رسول الله ﷺ وإلى ما تحقّق في زماننا من الحكومة الإسلاميّة المباركة في إيران ليس إلّا تطبيقاً علىٰ قطعة أرضيّة صغيرة بالقياس إلى الأرض المكتشفة لنا، والتي نتعامل معها في كلّ مرّة من مرّات

تطبيق الإسلام بما فيها التطبيق المبارك الذي صار في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إنّ الحكومة الإسلاميّة لم تكن مستقرّة وهادئة البال في كلّ هذه المرّات، بل كانت في جميعها مبتلاة بالحروب أو ـ علىٰ الأقلّ ـ المعارضات الطاحنة من قبل الأعداء، سواء في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو عهد عليّ عليه السلام في فترة حكمه وكذلك في العهد القصير للحسن عليه السلام وفي عهدنا في إيران الإسلام.

ثالثاً: إنّ التطبيق كان ناقصاً في جميع أعصر التطبيق بما فيها العصر الذهبي لتطبيق الإسلام في عهد رسول الله وقيادته، فصحيح أنّه كان معصوماً، ولكن المجتمع الذي كان علىٰ عاتقه نصرة القائد ودعمه والتعاضد معه في التطبيق لم يفعل ما كان عليه؛ ولهذا كثر المنافقون في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله: **﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(١). ولو كانوا قد طبّقوا الإسلام يوم ذاك بشكل كامل لما كان من المعقول أن يحدّثنا التاريخ بارتداد الناس ـ إلّا نفراً قليلاً ـ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله عن الإسلام الذي أُكمل بالولاية: **﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾**(٢).

والداء الذي سبّب هذا العذاب للبشريّة واضح، وهو مؤلّف من أمرين: أحدهما: محدوديّة وضيق النعم الدنيويّة وملاذّها في نظر هذا الإنسان الذي خلق هلوعاً بالرغم من أنّنا لو عددنا تلك النعم لا نحصيها، والثاني حبّ الذات في الإنسان ممّا أدّىٰ إلى تكالبه علىٰ ما يمكن أن يقع بيديه من النعم واللذائذ المادّيّة، فمجموع هذين الأمرين هو الذي خلق هذا التنافس المحموم علىٰ

---

(١) س ٩ التوبة، الآية: ١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) س ٣ آل عمران، الآية: ١٤٤.

الدنيا والصراع من أجلها ممّا سبّب التعارض والتسابب والتقاتل وسائر أنواع الظلم والاضطهاد والحيف وما إلى ذلك.

وقدّم العالَم حلّين نظريّين لهذه المشكلة التي هي أُمّ المشاكل المادّيّة، ولا ثالث لهما:

أحدهما: نزع حبّ الذات بالتدريج من النفس البشريّة، وتبديله بحبّ المجتمع عن طريق تطبيق نُظُم الاشتراكيّة إلى أن ينتهي الأمر إلى الشيوعيّة.

وهذا الحلّ لايمكن تطبيقه لتعارضه مع أمر ذاتيّ يستحيل نزعه من البشريّة، وهو حبّ الذات.

وكان علىٰ رأس أصحاب هذه النظريّة المعسكر الاشتراكي الذي كان مسيطراً علىٰ إحدى القوّتين المتنافستين للهيمنة علىٰ العالم الثالث، وقد انهار في زماننا شرّ انهيار، وليس ذلك إلّا لكون نظريتهم خياليّة بحتاً لا تقبل التطبيق.

ثانيهما: عكس الأوّل تماماً، وهو نظريّة إعطاء الحرّيات الأربع ـ الحرّية السياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة والشخصيّة ـ بأقصىٰ ما يمكن.

وهذه هي النظريّة التي أخذ بها المعسكر الآخر في العالم في مقابل المعسكر الاشتراكي وهو المعسكر الرأسمالي، وكانت نتيجتها تصاعد التنافس المحموم في العالم علىٰ أثر الحرّيات المفروضة ممّا أدّى إلى تعقّد مشكلة البشريّة بأقصى ما يمكن أن يكون.

أمّا العلاج المطروح من قبل القرآن أو الاسلام فهو عبارة عن تضافر أمرين:

الأوّل: دلالة الإنسان علىٰ عدم انحصار النعم والملاذّ المادّيّة ـ من المأكولات والمشروبات والمنكوحات وما إلى ذلك ـ التي هي أقرب إلى نفس الإنسان الساذج والبسيط بالنعم المحدودة في الدنيا، وأنّ هناك أمثالها بل أعلىٰ منها بمراتب لا تحصىٰ في العالم الآخر، والتنافس الظالم في هذا العالم يمنع عن

التنافس في تلك، فالأفضل ـ حتّى لمن لا يدرك إلّا الملاذّ المادّيّة ـ صرف عنان التنافس إلى تلك النعم الخالدة؛ اذ لا يخلق التنافس فيها أيّ مشكلة من المشاكل، بل التنافس فيها يجرّ الإنسان إلى الأعمال الفاضلة والحميدة لا إلى الشرّ والظلم. ألا وهي الجنّة التي عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتّقين.

والآيات التي تشير إلى نعم الجنّة اللامتناهية كثيرة، نكتفي هنا بالإشارة إلى واحدة منها، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[١].

ولم ينفِ القرآن حالة التنافس الموجودة في ذات البشريّة ـ التي هي مثار الفتن بالنسبة لنعم الدنيا ـ ولم يردع عنها، بل صرفها من النعم الضيّقة والفانية التي يؤدّي التنافس فيها إلى التكالب والتضارب إلى تلك النعم التي لا يكون طريق الوصول إليها إلّا ترك الظلم والطغيان، وأمر بالتنافس فيها ورغّب البشريّة في ذلك كما قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ

---

(١) س ٣٧ الصافات، الآية: ٤٠ ـ ٦١.

فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون﴾[١]، و التنافس هنا ليس كالتنافس في أُمور الدنيا مثاراً للمشاكل لأنّ ازدياد أحد من تحصيل تلك النعم لا يَنقص شيئاً من الآخر.

الثاني: فتح بصيرة الإنسان علىٰ اللذائذ المعنويّة التي تفوق للعارف بها اللذائذ المادّيّة بمراتب لا تحصىٰ، وتزيد تلك المراتب وتنقص بقدر زيادة العرفان في الإنسان ونقصانه.

وشرح ذلك يطول ولكنّنا نكتفي في ذلك بالإشارة إلى بعض النماذج من القرآن؛ لتكون خير شاهد علىٰ حلّ الإسلام لمشكلة الإنسانيّة المعذّبة بأرقىٰ مستوى من مستويات الأخلاق وتهذيب النفوس:

**الأوّل ـ شكر المنعم:**

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾[٣].

ولتوضيح رفعة التصوير القرآني لمسألة شكر المنعم ـ بما لا يصل إليه العقل البشري من دون الاستعانة بمبدأ الوحي وبالتربيّة القرآنيّة ـ نبرز هنا عدّة نكات:

---

(١) س ٨٣ المطفّفين، الآية: ٢٢ ـ ٢٦.
(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) س ٣١ لقمان، الآية: ١٤ ـ ١٥.

النكتة الأُولىٰ : لئن كان احترام الأبوين إلى حدّ التذلّل لهما والاهتمام بمداراتهما وبقضاء حوائجهما يعتبر أمراً طبيعيّاً في المجتمع الإسلامي، فهذا أمر مأخوذ من القرآن ومن مبدأ الوحي والإسلام، ولو أردنا أن نعرف ما هو الذي يترشّح في هذا الموضوع من عقل الإنسان غير المستنير بنور القرآن يجب أن ننظر إلى المجتمع الغربي الذي لم يتربّ ولو بمقدار تربيتنا الناقصة علىٰ يد القرآن. وها نحن نرىٰ أنّ البارّ من أولادهم غاية ما يفعل لأبيه أو أُمّه العجوزين العاجزين هو أن ينقله إلى دار العجزة أو المستوصف الحكوميين، ولن يعود الشابّ إلى ذاك المكان عادةً إلّا بعد إبلاغه خبر موته، فيعود بهدف بيع جثمانه للمستشفىٰ. كما نرىٰ كثيراً منهم يفضّل تربية كلب وتبنّيه علىٰ تربية ولد واحتضانه؛ لأنّ الكلب له صفة الوفاء والولد لا وفاء له ولو بمقدار وفاء الكلب، هذا هو مستوىٰ إدراك من لم يتربّ تربية قرآنيّة.

النكتة الثانية : إنّ الله تبارك وتعالىٰ قرن الإحسان بالوالدين بعبادته سبحانه وتعالىٰ ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾، ويبدو لنا في سرّ ذلك أنّ الله هو المنعم الحقيقي، وأوّل نعمه علينا هو نعمة الوجود، فهو الخالق لنا، والأبوان لهما دخل أيضاً في خلقنا وإيجادنا في حين أنّ ذلك خلق وإيجاد مجازي لا حقيقي؛ إذ ليسا إلّا من المقدّمات الإعداديّة التي كانت مقدّميّتهما أيضاً من إفاضات الله سبحانه، وقد يتّفق أنّهما لم يعملا ما عملا لأجلنا بل لأجل شهوتهما الجنسيّة، وقد لا تتحمّل الأُمّ مشاقّ الحمل والوضع والرضاعة إلّا لمشتهياتها النفسيّة أيضاً، ولكن مع هذا كلّه أوجب هذا المقدار من الدخل لإيجاد الأولاد شكرهم لهما إلى حدّ خفض جناح الذلّ لهما من الرحمة.

ولئن كان الشابّ الغربي البعيد عن تعاليم القرآن لا يتحمّلهما لدى الكبر إلّا بمقدار النقل إلى شبه المستشفيات ثُمّ عيادتهما بعد موتهما لبيع جسدهما، فإنّ

القرآن يربيّ أتباعه علىٰ عدم إبراز التضجّر من احتضان الأبوين لدى الكبر ولو بأبسط شيء، وهي قولة ﴿أُفّ﴾ بل أوجب عليهم خفض جناح الذلّ لهما من الرحمة.

والملاحظ أنّ الأمر بخفض جناح الذلّ للأبوين من الرحمة صدر من شريعة نهت علىٰ العموم عن التذلّل لغير الله، فنهت عن السجود لغير الله، وعن تقبيل اليد إلّا يداً اُريد بها وجه رسول الله ﷺ، وعن السلام علىٰ الغنيّ بغير وجه السلام علىٰ الفقير لاعتبار ذلك نوع تذلّل للغنيّ.

النكتة الثالثة : إنّك لا ترىٰ قانوناً مفروضاً من قبل سلطان أرضيّ، يطلب من الرعيّة احترام عدوّه والعطف عليه والتعاطف معه بالرحمة والحنان لا لشيء إلّا لحقّ الاُبوّة علىٰ الولد، في حين أنّك ترىٰ القرآن قد أمر الولد بذلك بشأن أبويه حتّى ولو كانا مشركين، نعم استثنى عدم طاعتهما في نفس الشرك، وأنت تعلم أنّ من أعدى أعداء الله تعالىٰ هو المشرك به عزّ وجلّ. وأمّا ما ورد في الروايات بصدد احترام حقّ الاُبوّة فقد بلغ مستوى أنّه لا يقاد الوالد بقتل الولد، في حين أنّه يقاد الولد بقتل الوالد[١]، ويقاد أيّ شخص ولو كان عزيزاً بقتل أيّ شخص ولو كان وضيعاً.

### الثاني ـ الوفاء بالعهد :

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[٢].

وقال عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٣].

---

(١) وسائل الشيعة ٢٩ : ٧٧ ـ ٨٠، الباب ٣٢ من قصاص النفس.

(٢) س ١٧ الإسراء، الآية: ٣٤. (٣) س ٥ المائدة، الآية: ١.

وقال عزّ مِن قائل: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وقال عزّ مِن قائِل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وقال عزّ اسمه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(٤).

فبالله عليك هل تعرف سلطاناً أرضيّاً غير متربٍّ في مدرسة القرآن عندما أعطى الأمان لأعدى أعدائه في حالة الحرب لكي يوضّح له حججه، فلم يقتنع بها، يأمر بإرجاعه إلى مأمنه وفاءً بعهد الأمان، وبعد ذلك يُجوّز محاربته؟ أو يحتمل بشأن ما يترشّح من العقل الذي لم ير نوراً من القرآن والوحي غير أن يقول: مادام هذا العدوّ المحارب المسلّح لم يقتنع بحججنا فعليكم أن تقطّعوه إرباً إرباً، وإيّاكم أن تفسحوا له المجال للوصول إلى مأمنه؟

ولا بأس هنا بذكر بعض روايات هذا الباب من قبيل ما روي عن الصادقعليه السلام أنّه قال: «لو أنّ قوماً حاصروا مدينة فسألوهم الأمان فقالوا: لا. فظنّوا أنّهم قالوا: نعم. فنزلوا إليهم، كانوا آمنين»(٥).

وما ورد بسند تام عن ابن أبي يعفور عن الصادقعليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) س ٤ النساء، الآية: ٢١.
(٢) س ٩ التوبة، الآية: ٤.
(٣) س ٩ التوبة، الآية: ٦.
(٤) س ٩ التوبة، الآية: ٧.
(٥) وسائل الشيعة ١٥ : ٦٨، الباب ٢٠ من جهاد العدوّ، الحديث ٤.

خطب الناس في مسجد الخيف فقال: نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلّغها مَن لم يسمعها... المسلمون إخوة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم»[١].

وفي نقلٍ آخر: «المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ علىٰ مَن سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم»[٢]، ومعنى سعي أدناهم بذمّتهم أنّ الأمان المعطى من قبل أدناهم يجب تنفيذه حتّى علىٰ أعلاهم، كما أنّ العالي والداني يتكافأ دمهما، فيقتل العالي وهو في أعلىٰ مستوى اجتماعي بأدناهم نسباً وحسباً. فهل يتصوّر إمكان إدراك المجتمعات الغربيّة لهذا المستوى الأخلاقي في حين أنّ من أبرز مشاكلهم هو التمييز العنصري بين البيض والسود، وكأنّما الأسود عندهم في مرتبة نازلة من البشريّة ومتوسطة بين الإنسان والحيوان، بل أقلّ من الحيوان؛ لأنّهم لا يحترمون الأسود بقدر ما يحترمون الكلب؟

**الثالث ـ التوبة:**

أفترى مخلوقاً غير متربّ بتربية القرآن يعفو عن مجرم ارتكب بحقّه شتّى ألوان الظلم والطغيان والإجرام علىٰ طول حياته، ثمّ تاب وطلب منه العفو في آخر لحظة؟!

ولكنّك ترىٰ القرآن وهو يخاطب المذنبين ـ حتّى مرتكبي الكبائر ومضيّعي أعمارهم بالانهماك في المعاصي ـ بتعبير عاطفي بليغ لو لم يكن يمتلك إلّا حلاوة عطفه علىٰ عدوّه الذي أراد التوبة لكفاه عظمةً وجمالاً، وها هو قوله

---

(١) وسائل الشيعة ٢٩ : ٧٥ ـ ٧٦، الباب ٣١ من أبواب القصاص في النفس، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٣.

تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١] يعبّر عن هذا الخطاب الذي يجسّد مفهوم الرحمة بأجمل صورها.

والسبب في هذا العطف وهذا القبول للتوبة واضح، وهو أنّ الله تعالىٰ خلق عباده لكي يرحمهم كما يظهر من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[٢]، وخير رحمة للربّ هو تمكينهم من التكامل ومساعدتهم لذلك، والتوبة عبارة عن بداية الرجوع إلى خطّ التكامل وسدّها سدّ لباب التكامل؛ فلهذا فتح الله هذا الباب علىٰ عباده ولو كانت ذنوبهم كالجبال الرواسي.

إلّا أن انفتاح هذا الباب موقّت، وينتهي بمعاينة أُمور الآخرة لدى الموت وحضور السكرات كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٣].

والسرّ في انغلاق باب التوبة بالمعاينة واضح أيضاً؛ لأنّ هكذا توبة ليست طريقاً للتكامل، فهلمّ بنا لولوج الباب قبل انسداده: «إلهي، أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ بَاباً إِلى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوبَة، فَقُلْتَ: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ فَمَا عُذر مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبَابِ بَعْدَ فَتْحِه؟»[٤].

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) س ١١ هود، الآية: ١١٨ ـ ١١٩.
(٣) س ٤ النساء، الآية: ١٧ ـ ١٨.
(٤) مناجاة التائبين.

## شذرات من أخلاق الرسول ﷺ :

وما دمنا قد طرقنا باب أخلاقيّة الإسلام بمقدار ترطيب أناملنا ببحر الأخلاق الواردة في دين الإسلام، فلا بأس بأنّ نبلّلها مرّة أُخرىٰ ببحر أخلاق رسول الله ﷺ الذي قال الله تبارك وتعالىٰ بشأنه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[١]، ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾[٢]، ونذكر هنا مقتطفات من أخلاقه ﷺ الرفيعة والتي تمثّل أجلى صورة للأخلاق الإسلاميّة السامية:

الأوّل : حينما فتح مكّة عفا عن كلّ الأعداء ومجرمي الحروب التي شنّوها عليه ﷺ، ووقف ـ روحي فداه ـ قائماً علىٰ باب الكعبة فقال: «لا إله إلّا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا إنّ كلّ مال ومأثرة ودمٍ يدّعىٰ تحت قدميّ هاتين إلّا سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنّهما مردودتان إلى أهليهما... ألا لبئس جيران النبيّ كنتم، لقد كذّبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم، ثمّ ما رضيتم حتّى جئتموني في بلادي تقاتلوني! إذهبوا فأنتم الطلقاء». فخرج القوم وكأنّما نُشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وقد كان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوةً، وكانوا له فيئاً، فلذلك سمّي أهل مكّة بالطلقاء[٣].

---

(١) س ٦٨ القلم، الآية: ٤.
(٢) س ٣ آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٣) البحار ٢١ : ١٠٥ ـ ١٠٦، الباب ٢٦ من أبواب أحوال الرسول ﷺ من البعثة إلى نزول المدينة.

الثاني : حينما دخلوا مكّة نادىٰ سعد بن عبادة أحد آمري اللواء: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسبى الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً. ولكن نادىٰ رسول الله ﷺ: «يا أبا سفيان، بل اليوم يوم الرحمة، اليوم أعزّ الله قريشاً». وأرسل إلى سعد فعزله عن اللواء(١).

الثالث : حينما دخل النبيّ ﷺ مكّة غلق عثمان بن أبي طلحة العبدي باب البيت وصعد السطح، فطلب النبيّ ﷺ المفتاح منه، فقال: لو علمت أنّه رسول الله لم أمنعه. فصعد علي بن أبي طالب عليه السلام السطح ولوّى يده، وأخذ المفتاح منه وفتح الباب، فدخل النبيّ ﷺ البيت فصلّى فيه ركعتين، فلمّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، فنزل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾(٢)، فأمر النبيّ ﷺ أن يردّ المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، فقال له عثمان: يا علي، أكرهت وآذيت ثمّ جئت برفق؟ قال عليه السلام: لقد أنزل الله عزّ وجلّ في شأنك وقرأ عليه الآية، فأسلم عثمان فأقرّه النبيّ ﷺ في يده(٣).

الرابع : ورد أنّه في يوم وفاة إبراهيم بن النبيّ ﷺ انكسفت الشمس، فاعتقد قسم من الناس أنّ هذه كرامة لإبراهيم ومعجز لرسول الله ﷺ، وكان بإمكانه ﷺ أن يسكت عن ذلك؛ لأنّه من صالحه، وكما يقال في المثل: الكذب حرام وليس الصدق واجباً، ولكن من أهدافه ﷺ اجتثاث الخرافات من أذهان المسلمين، فصعد ﷺ المنبر وقال: «أيّها الناس، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعان له لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا أو

---

(١) المصدر السابق: ١٠٩.
(٢) س ٤ النساء، الآية: ٥٨.
(٣) راجع المصدر السابق: ١١٦ ـ ١١٧.

أحدهما صلّوا»، ثمّ نزل من المنبر، فصلّى بالناس صلاة الكسوف، فلمّا سلّم قال: يا عليّ قم فجهّز ابني[(١)].

الخامس: روي عن الصادقعليه السلام أنّه قال: «كان رسول اللهصلى الله عليه وآله إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثمّ يقول: سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلىٰ ملّة رسول اللهصلى الله عليه وآله، ولا تمثّلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلّا أن تضطرّوا إليها، وأيّما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار حتّى يسمع كلام الله، فإن تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله»[(٢)].

السادس: روي عن أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: إنّ يهوديّاً كان له علىٰ رسول اللهصلى الله عليه وآله دنانير فتقاضاه، فقال له: يا يهودي، ما عندي ما أُعطيك. فقال: فإنّي لا أُفارقك يامحمّد حتّى تقضيني. فقال: إذن أجلس معك. فجلس معه حتّى صلّى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله يتهدّدونه ويتواعدونه، فنظر رسول اللهصلى الله عليه وآله إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟ فقالوا: يا رسول الله، يهوديّ يحبسك؟! فقالصلى الله عليه وآله: لم يبعثني ربّي عزّ وجلّ بأن أظلم معاهداً ولا غيره. فلمّا علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلّا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإنّي قرأت نعتك في

---

(١) أُنظر البحار ٢٢ : ١٥٥ ـ ١٥٦، الباب ١ من أبواب ما يتعلّق بالرسولصلى الله عليه وآله من أولاده وأزواجه، الحديث ١٣.

(٢) البحار ١٩ : ١٧٧، الباب ٨ من أبواب أحوالهصلى الله عليه وآله، الحديث ٢١.

التوراة محمّد بن عبدالله مولده بمكّة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب ولا متزيّن بالفحش ولا قول الخناء، وأنا أشـهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله ﷺ، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله. وكان اليهودي كثير المال. ثمّ قال عليه السلام: كان فراش رسول الله ﷺ عـباءة وكـانت مـرفقته (أي وسـادته) أدم حشوها ليف، فثنّيت له ذات ليلة فلمّا أصبح قال: لقـد مـنعني الفـراش اللـيلة الصلاة. فأمر ﷺ أن يجعل بطاق واحد[١].

السابع: روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان رسول الله ﷺ في بيت أُمّ سلمة في ليلتها، ففقدته من الفراش فدخلها في ذلك ما يدخل النساء، فقامت تطلبه في جوانب البيت حتّى انتهت إليه وهو في جانب من البيت قائم رافع يديه يبكي وهو يقول: اللّهمّ لا تنزع منّي صالح ما أعطيتني أبداً، اللّهمّ لا تشمت بي عدوّاً ولا حاسداً أبداً، اللّهمّ ولا تردّني في سوء استنقذتني منه أبداً، اللّهمّ ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبـداً. قـال: فـانصرفت أُمّ سـلمة تـبكي حـتّى انـصرف رسول الله ﷺ لبكائها فقال لها: ما يبكيك يا أُمّ سلمة؟ فقالت: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، ولم لا أبكي، وأنت بالمكان الذي أنت به من الله قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر تسأله أن لا يشمت بك عدوّاً أبداً، وأن لا يردّك في سوء استنقذك منه أبداً، وأن لا ينزع منك صالحاً أعطاك أبداً، وأن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً؟ فقال: يا أُمّ سلمة، وما يؤمنني؟ وإنّما وكّل الله يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان»[٢].

---

(١) راجع البحار ١٦ : ٢١٦ ـ ٢١٧، باب مكارم أخلاقه وسيره وسننه ﷺ، الحديث ٥.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٦.

# العرفان الشامخ المطروح في الإسلام والقرآن

نشير فيما يلي باختصار إلى العرفان المطروح في القرآن وفي الإسلام ـ والذي يستحيل وصول شخص غير متربٍّ بتربية القرآن اليه ـ ونكتفي في ذلك بالتلميح إلى نقاط ثلاث:

١ ـ حبّ الله.

٢ ـ رضوان الله.

٣ ـ لقاء الله.

أمّا حبّ الله فقد عدّه القرآن من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، وعدّه علامة علىٰ أنّ صاحبه يكون معتصماً من الارتداد عن مبدئه، قال الله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[1]، فمن لم يتربّ في مدرسة القرآن قد يصعب عليه تصوّر الالتذاذ بحبّ الله فوق الالتذاذ باللذات المادّية فضلاً عن التصديق به أو الوصول اليه، أمّا تلميذ القرآن فيقول: «إِلٰهي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرامَ مِنْكَ بَدَلاً؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي آنَسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغىٰ عَنْكَ حِوَلاً»[2]؟

وأمّا رضوان الله فقد جعله القرآن أكبر من جنّات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنّات عدن، قال الله تعالىٰ: **﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**

---

(١) س ٥ المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) مناجاة المحبّين.

**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[١].

ولا أحد يستطيع أن يتصوّر ذلك عدا من يكون متربّياً بأخلاقيّة القرآن كالمرحوم آية الله السيّد صدر الدين أحد أجداد أُستاذنا الشهيد الصدرﷺ والذي كان يقول:

رضاك رضاك لا جنّات عدن وهل عدنٌ تطيب بلا رضاكا[٢]

ولعلّه أخذه من الآية المباركة التي أشرنا إليها.

وأمّا لقاء الله ـ وليس المقصود اللقاء المادّي تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً ـ فقد عبّر القرآن عن ذلك ـ علىٰ ما يبدو ـ بالنظر إلى الله ـ والمقصود النظر بعين البصيرة وليس بالباصرة ـ في قوله تعالىٰ: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**[٣]، ويحتمل أن يكون اللقاء المعنوي أيضاً هو المقصود في آخر سورة القمر، حيث قال: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾**[٤].

وقد عبّر عن نقيض ذلك بالحجاب في قوله تعالىٰ: **﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾**[٥].

ومَن الذي يستطيع أن يصل إلى مغزى لذّة لقاء الله، وحقيقة ألم فراقه غير تلميذ القرآن الذي يقول: «فَهَبْنِي يا إِلٰهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلايَ وَرَبِّي صَبَرْتُ عَلَىٰ عَذابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَىٰ فِراقِك»[٦]؟

---

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) راجع كتابنا مباحث الأُصول، الجزء الأوّل من القسم الثاني : ١٨.

(٣) س ٧٥ القيامة، الآية: ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) س ٥٤ القمر، الآية: ٥٤ ـ ٥٥.

(٥) س ٨٣ المطفّفين، الآية: ١٥.

(٦) دعاء كميل.

## التوحيد المطروح في الإسلام والقرآن

للتوحيد المطروح من قبل الإسلام في القرآن مستويان:

الأوّل : التوحيد الذي به قوام إسلام المسلم، وهو شهادة أن لا إله إلّا الله، وهذا يشتمل علىٰ التوحيد في الخلق وفي الرزق وفي الربوبيّة وفي العبادة، وما إلى ذلك ممّا هو داخل في جملة لا إله إلّا الله، ولكن هذا التوحيد في بساطته يدركه كلّ مسلم حتّى ذلك المسلم الساذج الذي يتصوّر انفكاك الخالق عن المخلوق من سنخ انفكاك البنّاء عن البيت.

والثاني : التوحيد في الوجود المستقلّ، وهذا إن رأينا طرحه من قبل الفلاسفة الإسلاميّين أو العرفاء المسلمين فإنّما أخذوه من القرآن الذي قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾[1]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد﴾[2]، وما إلى ذلك من مثل هذه الآيات.

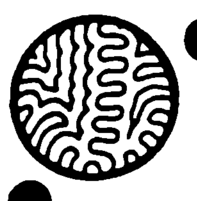
ولقد أخطأ من حمل هذه الآيات علىٰ وحدة الموجود ونفي أيّ فارق بين الله ومخلوقاته، وبحجّة أنّه لولا الوحدة لكان وجود المخلوقات حدّاً لله، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فإنّ هذا الرأي ينتهي إلى إبطال بعث الرسل وإنزال الكتب وإبطال الثواب والعقاب، وما إلى ذلك من مخاطر؛ إذ لا معنى لبعث الرسل وإرسال الكتب أو تثبيت الثواب أو العقاب علىٰ الشبكات العدمية التي يتراءى من خلالها الوجود مقطّعاً ومحدّداً، فإنّ الأعدام لا تعي ولا تدرك، ولا معنى لإرسالها أو تثبيتها علىٰ الوجود الذي يُرى خلال تلك الشبكات؛ لأنّ

---

(١) س ٥٧ الحديد، الآية: ٣. (٢) س ٥٠ ق، الآية: ١٦.

المفروض أنّه لا حقيقة لها إلّا الله، فبقرينة آيات البعث وإرسال الرسل والكتب وتثبيت يوم الجزاء وما إلى ذلك نعرف أنّ المقصود بآيات نفي التفكيك بين الخالق والمخلوق كون المخلوق إشراقاً للخالق ووجوداً تبعيّاً، والوجود التبعي مهما يكثر لا يؤدّي إلى الحدّ من الوجود المستقلّ، بدليل أنّ عدمه لا يوسّع دائرة الوجود المستقلّ، وإلّا للزم أن يكون الوجود المستقلّ تبعيّاً في مقدار منه، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

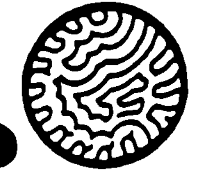
نكتفي بهذا المقدار من الإشارة إلى معارف الإسلام الراقية والتي تكون أقوى دلالة ـ عند العارفين ـ علىٰ حقّانيّة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ من المعاجز.




الفصل الثالث

# الإمامة

- ضرورة التنصيص على الإمامة .
- إثبات إمامة الأئمّة عليهم السلام .
- ظهور دولة العدل في آخر الزمان .

# ضرورة التنصيص علىٰ الإمامة

## الإمامة عند الفريقين

الإمامة لدى إخواننا السنّة تعني في أرقى مقام يمكن افتراض اشتمالها عليه أُموراً ثلاثة، ولا يمكن أن ترقىٰ أكثر من ذلك حسب تصوّراتهم:

الأوّل: زعامة الحكومة بعنوان الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

والثاني: إجراء الحدود واسترجاع الحقوق من سالبيها وتسليمها إلى أهلها، من قبيل القصاص والديات وما إلى ذلك.

والثالث: الحراسة عن الدين الإسلامي ودعمه ونشره وتثبيت دعائمه في المجتمع.

ولا يطرأ في مخيّلتهم أنّ للامامة مقاماً أرفع من ذلك، وغالباً ما يعبّرون عنها بالخلافة.

والشيعة يعبّرون غالباً عن هذا المنصب بالإمامة، ولا يكتفون في مفادها بالمناصب التي أشرنا إليها، ويرون عادة أنّ هذه المناصب المشار إليها ثابتة لفقهائهم العُدول، وأنّ هذه لا ترقى إلى مستوى الإمامة الحقيقي الذي يعني عندهم ـ زائداً علىٰ ما مضى ـ منصب إبلاغ الأحكام الفقهيّة عن الله لا بمعنى

حجيّة الفتوى التي قد تخطئ وقد تصيب، ومن سنخ حجيّة خبر الثقة الذي قد يخطئ وقد يصيب، بل بمعنى التصاق الإمام بالله سبحانه بمستوى يكفي لانكشاف الحقائق والأحكام له مباشرة؛ لشدّة اضمحلالهم في ذات الله وارتباطهم به بشكل لا يمكن أن يخفى عليهم شيء ممّا يريده الله، فما يبيّنونه من الحكم يكون من قبيل بيان الرسول للحكم، أي إنّ ذلك يكون هو حكم الله مباشرة، وليست حجّيّته ظاهريّة من باب حجيّة كلام أهل الخبرة كما في الفتوى، أو حجيّة كلام الثقة كما في نقل الراوي، فكلام الإمام ككلام النبيّ من دون فرق، ولهذا ارتأت الشيعة أنّ الإمامة أصل من أُصول العقائد وإن كان يختلف الإمام عن النبيّ في أنّ الوحي ينزل علىٰ الرسول ولا ينزل علىٰ الإمام.

وعلىٰ هذا الأساس تتمّ عصمة الأئمة عن المعاصي وبغض النظر عن الأدلّة الكلاميّة المعروفة؛ لأنّ من انكشفت له عظمة الله سبحانه تمام الانكشاف وانكشفت له حقائق الأُمور، وحقيقة الطاعة والعصيان، يستحيل أن يعصي سنخ استحالة أكل القاذورات من قبل من يعرف حقيقة القاذورات، أو سنخ استحالة المخالفة أو ترك الطاعة من قبل من تجلّى علىٰ قلبه الله سبحانه وتعالىٰ وأشرق عليه.

ومن هنا يتّضح سرّ اشتراط العصمة في الإمامة وعدم اشتراطها في حجيّة فتوى الفقيه ولا في قيادته.

وبهذا اتّضح خطأ ما يقوله بعض الخبثاء: من أنّ الشيعة قد ظهر لديهم أخيراً خطأ ما كانوا يقولون به من شرط العصمة في الإمامة؛ ولهذا عدلوا عن ذاك الرأي، وأصبحوا ينتخبون الوليّ الفقيه للولاية والقيادة من دون شرط العصمة ولا ادّعائها للفقهاء، في حين أنّ الإمامة إن هي إلّا عبارة عن القيادة والولاية.

ووجه الخطأ أنّ الإمامة المصطلحة لديهم ليست مجرّد القيادة، أو إدارة

دفّتي الحكم أو ما إلى ذلك، بل الإمام هو الوسيط بين الله وبين الخلق كالرسول في استلام الأحكام، وهذا لا يكون إلّا لمن انكشفت له الأُمور بما فيها عظمة الله وحقيقة الأحكام وحقيقة الطاعة والعصيان، وهو الذي بيمنه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء. وقد آمنوا ـ حسب ما فهموه من دلالة أئمّتهم إيّاهم ـ بشرط العصمة في الإمام كشرط العصمة في النبيّ، واستمرّ إيمانهم بذلك إلى يومنا هذا، ولم يعدلوا عنه. وليست ولاية الفقيه عبارة عن الإمامة المصطلحة عندهم، وإن كانت الولاية أو القيادة بمعنى من المعاني تسمّى بالإمامة، إلّا أنّ هذا ليس هو عهد الله بالمعنى الذي يفهمونه من قوله تعالىٰ: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وبهذا البيان اتّضح أنّ الخلاف بين الشيعة والسنّة في شرط النصّ عن الله في تعيين شخص الإمام ليس منصبّاً علىٰ نقطة واحدة، بل نتج هذا الخلاف عن الخلاف في تصوير الموضوع، وهو معنى الإمامة، فأحدهما يتكلّم عن معنىً والآخر يتكلّم عن معنىً آخر لا يمكن أن يشخّص مصداقه إلّا من قبل الله عزّ وجلّ.

* * *

(١) س ٢ البقرة، الآية: ١٢٤.

## السبيلان المعقولان لتعيين القائد

لا سبيل معقول لتعيين الوليّ أو القائد للمجتمع إلّا أحد سبيلين: إمّا التعيين من قبل الله تعالىٰ، وإمّا التعيين بالشورى والانتخاب. أمّا التعيين الاعتباطي أو الإلزام من غير مُلزم ومن قبل نفس من يريد أن يتأمّر علىٰ الناس فليس إلّا عملاً دكتاتوريّاً مرفوضاً من قبل كلّ عاقل.

ونشير هنا إلى أنّ شيئاً من السبيلين غير منطبق علىٰ الخلفاء الثلاثة الأوائل:

أمّا الأوّل فواضح؛ فإنّ أتباع الخلفاء الثلاثة لا يدّعون تعيّنهم بنصّ إلهي، فهم بإجماع المسلمين لم يعيّنوا من قبل الله تعالىٰ وبتبليغ رسول الله ﷺ.

وأمّا الثاني ـ وهو الانتخاب والشورى ـ فأيضاً لا ينطبق؛ فإنّ أبابكر عيّن في السقيفة وبتعيين من قبل أهل السقيفة، ثمّ أُخذت البيعة له بالتدريج، والمبايعون بين من بايع برغبة ومن بايع بإكراه ومن بايع بروح المتابعة للجناح المسيطر فعلاً، وهذا كلّه غير الانتخاب العامّ.

وأمّا عمر فقد عُيّن من قبل أبي بكر كما يحدّثنا التاريخ.

وأمّا عثمان فقد عُيّن من قبل شورى سداسيّة معيّنة من قبل عمر.

وبهذا يثبت فساد مكتب الخلافة علىٰ كلا التقديرين.

## أساس الشورىٰ وردّه

يقع البحث فيما يلي عن أصل المدرستين: مدرسة التنصيص من قبل الله سبحانه بواسطة رسوله ﷺ كما تدّعيه الشيعة، ومدرسة الشورى المتبنّاة أخيراً من قبل المفكّرين والمثقّفين الجدد من السنّة، فنقول: إنّ مدرسة الشورى

لابدّ أن تكون قائمة علىٰ أحد أساسين: إمّا علىٰ أساس أنّ تعيين الحاكم يكون بذاته من حقّ الأمّـة؛ كـي يـنتهىٰ إلى حكـم الأُمّـة نـفسها بـنفسها وتـتحقّق الديمقراطيّة، وإلّا لانتهينا إلى الدكتاتوريّة، فلا امـتياز لإحـد أو لفـئة يـصحح تسلطه أو تسلطهم علىٰ الناس، فحقّ التحكيم يكون لنفس الأُمّة.

وإمّا علىٰ أساس أنّنا وإن كنا نعترف بأنّه ليس الحكم إلّا لله، ولكنّ الله هو الذي أمرنا بالانتخاب والشورى، كما دلّت علىٰ ذلك آيتان مباركتان:

إحداهما ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1].

وثانيتهما ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2].

إلّا أنّ الأساس الأوّل لا ينسجم مع مسلّمات الإسلام، فإنّ من المسلّم به في الإسلام أنّ حقّ الحكم لله وحده، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[3]، فليس الحكم ذاتاً لغيره سبحانه، ومن بيده الحكم من المخلوقين يجب أن يكون الله قد أعطاه ذلك.

هذا إضافة إلى أنّ الأخذ برأي الأكثريّة ليس عبارة عن حكم الناس أنفسهم بأنفسهم، بل لو طبّق ذلك حقّاً لكان عبارة عن تحكيم الأكثريّة علىٰ الأقلّيّة، فمن أين جاءت ولاية الأكثرية علىٰ الأقلية؟

والمؤمنون بالديمقراطيّة يجيبون بأنّ الأقلّيّة هي التي وافقت علىٰ تـحكيم من انتخبته الأكثريّة، فليس الناخبون الذين لم يفز منتخبهم قد خسـروا حـقّ الحكم، فإنّ الأقلّيّة والأكثريّة قد توافقوا وتعاقدوا علىٰ تحكيم رأي الأكثريّة.

أقول: إنّ أقلّ ما يرد علىٰ ذلك أنّه ما ذنب من لم يعترف أساساً بهذا القانون،

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٥٩. (٢) س ٤٢ الشورى، الآية: ٣٨.

(٣) س ٦ الأنعام، الآية: ٥٧، و س ١٢ يوسف، الآية: ٤٠ و ٦٧.

ولم يحضر صناديق الرأي اعتراضاً علىٰ تلك الصناديق؟ هل يُخرجون من البلد بحكم الأكثريّة أو يحكمون بحكم منتخَب الأكثريّة؟ وكلا الفرضين يعني تحكّم الأكثريّة عليهم. وهكذا يتجلّى أنّ الديمقراطيّة الغربيّة يستحيل أن تنجو وتخلو من هذه الدكتاتوريّة. ولنا بحث مفصّل في إبطال ولاية الشورى بمعنى الديمقراطيّة في كتابنا أساس الحكومة الإسلاميّة.

وأمّا الأساس الثاني ـ وهو تأسيس الشورى علىٰ أنّ الله تعالىٰ الذي بيده الحكم هو الذي أعطى حقّ الانتخاب للنّاس أنفسهم ـ فهذا ما بحثناه أيضاً مفصّلاً في كتابنا أساس الحكومة الإسلاميّة.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ الآية الشريفة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ بعيدة كلّ البعد عن فكرة ولاية الشورى ووجوب إطاعة رأي الأكثريّة؛ وذلك بقرينة أنّ الله تعالىٰ عطف علىٰ هذه الجملة قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[1] ممّا يدل بوضوح علىٰ أنّ العزم كان بيد رسول الله ﷺ من قبل الله، ولم تكن تحكمه ولاية الشورى أو رأي الأكثريّة.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ فهو الآخر لا يدلّ أيضاً علىٰ ولاية الشورى، وإنّما يعني الاستضاءة بأفكار الآخرين عن طريق التشاور معهم، وهذا غير ولاية الشورى أو تحكيم رأي الأكثريّة، والدليل علىٰ ذلك: أنّ رسول الله ﷺ لو كان يعتقد بأنّ الذي يجب أن يخلفه بعده هو الذي تنتخبه الأكثريّة عن طريق الشورى والإدلاء بالأصوات لكان يجب عليه تثقيف الأُمّة علىٰ شروط الشورى: فما هو سنّ الناخبين؟ وما هو سنّ المنتخبين؟ وهل الانتخاب لأهل الحلّ والعقد أو لذوي الحصافة في العقل المعترف بهم لدى

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٥٩.

المجتمع أو للكلّ؟ وهل الانتخاب يجب أن يكون علىٰ درجة واحدة بالانتخاب المباشر، أو يمكن أن يكون علىٰ مرحلتين: أي أنّ الناس ينتخبون أوّلاً ممثّليهم ثمّ الممثّلون ينتخبون من بيده الحكم؟ وهكذا إلى عشرات الأسئلة، فأمر النبيّ ﷺ دائر في الحقيقة بين إهمال أمر القيادة بعده ممّا يعني تضييع دينه، وهذا ممّا لا يحتمل بشأنه، وبين تعيين الخليفة بالنصّ ـ وهذا ما تدّعيه الشيعة ـ وبين تثقيف الأُمّة علىٰ شروط الشورى، في حين أنّه مات رسول الله ﷺ ولم تكن الأُمّة تعرف شروطها ونُظُمها؛ فإنّ الناس لم يكونوا مسبوقين بالشورى لا قبل رسالته ولا بعدها وحتّى بعد وفاته.

أمّا الأوّل فلأنّ الحاكم في شبه الجزيرة العربيّة كان هو الفوضى والتقاتل والتناحُر، والحاكم في مثل إمبراطوريّة الروم أو إمبراطوريّة الفُرس كانت هي الملوكيّة دون رئاسة الجمهور أو الانتخاب، وأمّا الثاني فلما أشرنا اليه آنفاً من أنّه لم تكن حكومة أبيبكر ولا عمر ولا عثمان عن طريق الانتخاب وتحكيم رأي الأكثريّة.

وقد ذكر أُستاذنا الشهيد الصدر؇ كشاهد علىٰ أنّ خلافة الثلاثة لم تكن بالشورى والانتخاب، ولم يكن هذا هو فهم الأُمّة أو ذهنيّة الجيل الطليعي منها: «أنّ هذا الجيل كان يحتوي علىٰ اتجاهين:

أحدهما: الاتجاه الذي يتزعّمه أهل البيت.

والآخر: الاتجاه الذي تمثّله السقيفة والخلافة التي قامت فعلاً بعد وفاة النبيّ ﷺ.

أمّا الاتجاه الأوّل: فمن الواضح أنّه كان يؤمن بالوصاية والإمامة، ويؤكّد علىٰ القرابة، ولم ينعكس منه الإيمان بفكرة الشورى.

وأمّا الاتجاه الثاني: فكلّ الأرقام والشواهد في حياته وتطبيقه العملي تدلّ

بصورة لا تقبل الشكّ علىٰ أنّه لم يكن يؤمن بالشورى ولم يبن ممارسته الفعليّة علىٰ أساسها، والشيء نفسه نجده في سائر قطاعات ذلك الجيل الذي عـاصر وفاة الرسول الأعظم من المسلمين.

نلاحظ بهذا الصدد للتأكّد من ذلك أنّ أبا بكر حينما اشتدّت به العلّة عهد إلى عمر بن الخطّاب، فأمر عثمان أن يكتب عهده، فكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد أبوبكر خليفة رسول الله إلى المؤمنين والمسلمين. سلام عليكم، إنّي أحمد إليكم الله. أمّا بعد، فإنّي استعملت عليـكم عمـر بـن الخـطّاب، فـاسمعوا وأطيعوا)[١].

ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال: كيف أصبحت يا خليفة رسول الله، فقال: أصبحت مولّياً، وقد زدتموني علىٰ ما بي أن رأيتموني اسـتعملت رجـلاً منكم، فكلّكم قد أصبح وارساً أنفُه، وكلّ يطلبها لنفسه[٢].

وواضح من هذا الاستخلاف وهذا الاستنكار للمعارضة أنّ الخليفة لم يكن يفكّر بعقلية نظام الشورى وأنّه كان يرى من حقّه تعيين الخليفة، وأنّ هذا التعيين يفرض علىٰ المسلمين الطاعة، ولهذا أمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرّد ترشيح أو تنبيه، بل هو إلزام ونصب.

ونلاحظ أيضاً أنّ عمر رأى هو الآخر أنّ من حـقّه فـرض الخـليفة عـلىٰ المسلمين، ففرضه في نطاق ستة أشخاص، وأوكل أمر التعيين إلى الستّة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أيّ دور حقيقي في الانتخاب. وهذا يعني أيضاً أنّ عقليّة نظام الشورى لم تتمثّل في طريقة الاستخلاف التي انتهجها عمر، كما لم

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٣: ٤٢٨ و٤٢٩، ومختصر تاريخ ابن عساكر ١٨: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

(٢) راجع تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤. وتاريخ الطبري ٣: ٤٢٩.

تتمثّل من قبل في الطريقة التي سلكها الخليفة الأوّل، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف: لو أدركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر إليه لوثقت به: سالم مولى أبي حذيفة وأبو عبيدة الجرّاح، ولو كان سالم حيّاً ما جعلتها شورى[١].

وقال أبوبكر لعبد الرحمن بن عوف وهو يناجيه علىٰ فراش الموت: (وددت لو أنّي كنت سألت رسول الله ﷺ لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد)[٢].

وحينما تجمّع الأنصار في السقيفة لتأمير سعد بن عبادة قال منهم قائل: (إن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون... ونحن عشيرته وأولياؤه...، وقالت طائفة منهم: فإنّا نقول إذن: منّا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً)[٣].

وحينما خطب أبوبكر فيهم قال: (كنّا ـ معاشر المسلمين المهاجرين ـ أوّل الناس إسلاماً، والناس لنا في ذلك تبع، ونحن عشيرة رسول الله ﷺ وأوسط العرب أنساباً)[٤].

وحينما اقترح الأنصار أن تكون الخلافة دوريّة بين المهاجرين والأنصار، ردّ أبوبكر قائلاً: (إنّ رسول الله ﷺ لمّا بعث عظم علىٰ العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخالفوه وشاقّوه، وخصّ الله المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه...، فهم أوّل من عبد الله في الأرض...، وهم أولياؤه وعترته وأحقّ الناس بالأمر

(١) راجع طبقات ابن سعد ٣: ٣٤٣. (٢) راجع تاريخ الطبري ٣: ٤٣١.

(٣) راجع تاريخ الطبري ٣: ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ٦: ٧.

بعده، لا ينازعهم فيه إلّا ظالم)[١].

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجّع الأنصار علىٰ التماسك: (أملكوا عليكم أيديكم، إنّما الناس في فيئكم وظلّكم...، فإن أبى هؤلاء فمنّا أمير ومنهم أمير).

فردّ عليه عمر قائلاً: (هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد...، من ذا يخاصمنا في سلطان محمّد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلّا مُدلٍ بباطل أو متجانف لإثُمّ أو متورّط في هلكة).

إنّ الطريقة التي مارسها الخليفة الأوّل والخليفة الثاني للاستخلاف، وعدم استنكار عامّة المسلمين لتلك الطريقة والروح العامّة التي سادت علىٰ الجناحين المتنافسين من الجيل الطليعي ـ المهاجرين والأنصار ـ يوم السقيفة، والاتجاه الواضح الذي بدا لدى المهاجرين نحو تقرير مبدأ انحصار السلطة بهم وعدم مشاركة الأنصار في الحكم، والتأكيد علىٰ المبرّرات الوراثيّة التي تجعل من عشيرة النبيّ ﷺ أولى العرب بميراثه، واستعداد كثير من الأنصار لتقبّل فكرة أميرين، أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، وإعلان أبيبكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن أسفه لعدم السؤال من النبيّ عن صاحب الأمر بعده، كلّ ذلك يوضّح بدرجة لا تقبل الشكّ أنّ هذا الجيل الطليعي من الاُمّة الإسلاميّة ـ بما فيه القطّاع الذي تسلّم الحكم بعد وفاة النبيّ ـ لم يكن يفكّر بذهنيّة الشورى، ولم يكن لديه فكرة محدّدة عن هذا النظام، فكيف يمكن أن نتصوّر أنّ النبيّ مارس عمليّة توعية علىٰ نظام الشورى تشريعيّاً وفكريّاً، وأعدّ جيل المهاجرين والأنصار لتسلّم قيادة الدعوة بعده علىٰ أساس هذا النظام، ثمّ لا نجد

(١) المصدر السابق ٦ : ٨.

لدى هذا الجيل تطبيقاً واقعيّاً لهذا النظام أو مفهوماً محدّداً عنه؟!!»[١].

### التنصيص بآيتي التبليغ والإكمال

ممّا يدل علىٰ أنّ الرسول ﷺ لم يؤكّد علىٰ الشورى بل أكّد علىٰ النصّ من قبل الله تعالىٰ آية التبليغ، وهي قوله عزّ وجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[٢]. فإنّ الآية المباركة واضحة في أنّ ما أُنزل علىٰ الرسول ﷺ والذي تشير إليه هذه الآية مشتمل علىٰ خصوصيّات ثلاث:

**الأُولىٰ** : أنّه كان من الأهمّية بمستوى يوازي أصل الرسالة ولهذا يقول: ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَه**﴾، وليس المقصود بهذه العبارة: إن لم تبلّغ رسالته فما بلّغت تلك الرسالة؛ فإنّها قضيّة بشرط المحمول وبديهيّة لا تحتاج إلى بيان، بل المقصود: إن لم تبلّغ هذا الذي أُنزل إليك فكأنّك لم تبلّغ أصل الرسالة، وما الذي يمكن أن يفترض عِدلاً للرسالة عدا أمر الخلافة والولاية الذي يكون تضييعه مؤدّياً إلى تضييع أصل الدين؟

**الثانية** : أنّ الرسول ﷺ كان يتثاقل من تبليغه، وإلّا لم يكن هناك مورد لهذا التأكيد والتهديد بأنّ عدم إبلاغه يساوي عدم إبلاغ أصل الرسالة. ويا ترىٰ هل تثاقل الرسول ﷺ عن تبليغ حكم الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج أو أيّ حكم آخر؟

**الثالثة** : أنّ تثاقل الرسول ﷺ عن التبليغ كان خوفاً من الناس؛ ولهذا أمّنه

---

(١) التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): ٢٣ ـ ٢٧.

(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٦٧.

الله تعالىٰ عن ذلك بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فيا ترىٰ ما هو الذي كان يوجب هذا التخوّف ويحتاج هذا التأمين من جميع أحكام الإسلام إلّا حكم تعيين الخلافة في من لا يرضى به المنافقون؟ أمّا لو كان الحكم بشأن الخلافة عبارة عن الأمر بالشورى والانتخاب فهذا لم يكن يوجب بشأن إبلاغه أيّ تخوّف، ولم يكن يحتاج إلى تأمين خاصّ.

وعليه فيمكن الاستدلال بهذه الآية المباركة علىٰ أنّ الثابت بشأن الإمامة هو النصّ الخاصّ من الله، وليس الشورى أو الانتخاب أو رأي الأكثريّة.

وممّا يدل علىٰ أنّ التأكيد كان علىٰ النصّ وليس الشورى أو الانتخاب آية الإكمال، وهي قوله تعالىٰ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ووجه الاستدلال: أنّ المشار اليه بكلمة ﴿الْيَوْم﴾ في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ واحد بلا إشكال، والمحتمل فيه أحد أُمور ثلاثة:

الأوّل: أن يكون المشار إليه عصر رسالة الرسولﷺ، وليس يوماً معيّناً كيوم الغدير أو أيّ يوم آخر، وتوضيح ذلك: أنّ الدين الحقيقي كان دائماً هو الإسلام كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾(٢)، فحتّى دين المسيح الحقيقي

---

(١) س ٥ المائدة، الآية: ٣.

(٢) س ٣ آل عمران، الآية: ١٩.

ودين موسى الحقيقي كان هو الإسلام، وكما قال الله تعالىٰ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[1]، إلّا أنّ الاسلام في العهود السابقة كان فيه شيء من النقص نتيجة ما كان يناسب تطبيقه في تلك الأزمنة، ولكن برسالة الرسولﷺ: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ﴾ ـ الذي كان قبل الرسولﷺ ـ ديناً كاملاً برسالة الرسولﷺ.

إلّا أنّ هذا المعنى لا يناسب قوله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾، فإنّ رسالة الرسولﷺ لم تُيئس الكافرين؛ ولهذا أقاموا ضدّها الحروب المدمِّرة والساحقة لكثير من الطرفين.

الثاني: أن يكون المشار إليه يوم إنزال تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به.

وهذا أيضاً غير محتمل؛ وذلك لأنّه:

أوّلاً: إنّ هذه الأحكام ليست في الأهمّية بدرجة ينسب إليها إكمال الدين أو الرضا بسببها لكون الإسلام ديناً.

وثانياً: إنّ هذه الأحكام لم توجب يأس الذين كفروا كما هو واضح.

الثالث: أن يكون المشار إليه يوم تشريع الخلافة؛ إذ به يكمل الدين؛ لأنّه بإهماله يصبح الدين في مهبّ الريح، وليس المقصود تشريع الخلافة بمعنى إنزال فكرة الشورى والانتخاب المؤدّية إلى تعيين الخليفة؛ لأنّ مجرّد إنزال فكرة الشورى والانتخاب لا يوجب يأس الذين كفروا ما لم ينته إلى التعيين العملي؛ لأنّ الكافرين يطمعون عندئذٍ في أن لا تنتهي الشورى إلى وحدة الكلمة أو إلى انتخاب الشخص الحكيم حقيقةً القادر علىٰ حفظ الدين، فينحصر الأمر في كون

---

(١) س ٤١ فصّلت، الآية: ٤٣.

المشار إليه يوم تعيين الخليفة بالنصّ وهو المقصود.

يبقى الكلام في أنّ إقحام هذه الجملة في وسط أحكام الميتة والدم ولحم الخنزير... يكون معناه جعل هذه الجملة في غير محلّها الأصلي، وذلك إمّا يكون بغباء من قبل شخص، أو بحكمة من الله ورسوله كحكمة حفظ الآية من أن يسقطها من لا يرضون بتلك الخلافة، وكم له ـ أي لجعل الآية في غير محلّها المناسب ـ من نظير، ونذكر لذلك النماذج التالية:

الأوّل: آية العدّة التي جعلت العدّة بمقدار أربعة أشهر وعشر وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1] قبل آية جعلها سنة في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، في حين أنّ الأُولى هي الناسخة للثانية دون العكس.

الثاني: آية التطهير[3] التي أُقحمت ضمن آيات نساء النبيّ رغم القطع بعدم ارتباطها بها؛ ذلك لأنّ الاحتمالات البدويّة فيها ثلاثة:

الاحتمال الأوّل: اختصاصها بنساء النبيّ ﷺ.

الاحتمال الثاني: شمولها لنساء النبيّ ﷺ ولعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

الاحتمال الثالث: اختصاصها بعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ٢٣٤. (٢) س ٢ البقرة، الآية: ٢٤٠.

(٣) س ٣٣ الأحزاب، الآية: ٣٣.

والاحتمال الأوّل باطل جزماً بدليل تبدّل اللحن من ضمير الجمع المؤنّث المستعمل في جميع تلك الآيات قبل آية التطهير وبعدها إلى ضمير الجمع المذكّر.

والاحتمال الثاني يستلزم التناقض في داخل تلك الآيات؛ لأنّه من ناحية نرىٰ أنّ لحن تلك الآيات لا يناسب افتراض العصمة لنساء النبيّ ﷺ فإنّ اللحن يقول: ﴿أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ ويقول: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ فيبدو أنّه لا ضمان لكونهنّ جميعاً محسنات أو متّقيات، ومن ناحية أُخرىٰ لا يناسب التطهير في آية التطهير أن يكون مراداً إرادة تشريعيّة؛ لأنّ الإرادة التشريعيّة للتطهير ثابتة لله بشأن جميع البشر ولا مزيّة في ذلك لأهل البيت عليهم السلام، في حين أنّه من الواضح أنّ آية التطهير ترمز إلى مزيّة لأهل البيت عليهم السلام (وتوخياً للاختصار نتجنّب البحث عن أنّها إذن هل هي محمولة علىٰ الإرادة التكوينيّة ولا يستلزم ذلك الجبر، أو علىٰ قسم ثالث من الإرادة التي شرحناها في كتابنا الإمامة والقيادة عن أُستاذنا الشهيد رحمه الله تخلّصاً من احتمال استلزام الجبر؟).

فلكي لا يلزم التناقض ضمن آيات نساء النبيّ ﷺ، ولكي يعقل تبدّل اللحن من ضمير الجمع المؤنّث إلى ضمير الجمع المذكّر في آية واحدة ضمن ما قبلها وما بعدها، يتعيّن الاحتمال الثالث.

إذن فالآية أجنبيّة عمّا قبلها وما بعدها وأُقحمت في غير المقام المناسب لها، سواء كان ذلك بفعل إنسان غافل لدى تنظيم الآيات، أو كان بفعل عزيز حكيم، أو بفعل الرسول ﷺ لحكمة ما كحفظ الآية عن التحريف أو الحذف.

الثالث: قوله تعالىٰ في سورة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ

**اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[١].

فهذه الآيات ـ كما ترىٰ ـ بدأت باعتراف امرأة العزيز بجرمها علىٰ أساس أنّها أصبحت مفاجأة بوضوح الحقّ باعتبار شهادة النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ، فرأت نفسها مفضوحة علىٰ أيّ حال؛ لأنّه قد حصحص الحقّ فاعترفت بقولها: **﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾**، فكأنّ لحن الآية يقتضي: أنّ جملة **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ...﴾** أيضاً من كلامها، إذ قد جاءت بعد ما كان من كلامها يقينا من دون إيذان بانتهاء الكلام، فكأنّها تقول: ذلك ليعلم يوسف أنّي لم أخنه بالغيب، وإن كنت خنتُه أمامه حينما قلت: **﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[٢]، وما أُبرّئُ نفسي من أنّها دعتني إلى الزنا بيوسف **﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

ولكن هذا التفسير لا يمكن أن نحتمل صحّته، فأوّلاً: ما معنى الافتخار بعدم الخيانة بالغيب مع وقوع الخيانة حضوراً واستمرارها لحين الاعتراف؟ وثانياً: قد أفاد السيّد الطباطبائي ﵀[٣] ما يمكن شرحه كالتالي: إنّ صدور هذه المعارف الإلهيّة الراقية من قبل امرأة مشركة تستحي من الصنم ولا تستحي من الله غير معقول، فمن أين تدرك قبل اهتدائها وتربيتها علىٰ يد يوسف ﵇ قبح الخيانة بالغيب، وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين؟ وكيف تعرف معنى ومغزى لكون النفس أمّارة بالسوء الّا بعصمة الله تعالىٰ، وأنّ الله غفور رحيم؟ فهذه المعارف الإلهيّة العظيمة لا يمكن أن تصدر إلّا من بيوت الأنبياء أو المتربّين في مدرسة الأنبياء،

---

(١) س ١٢ يوسف، الآية: ٥١ ـ ٥٣.
(٢) س ١٢ يوسف، الآية: ٢٥.
(٣) تفسير الميزان ١١ : ١٩٩، ذيل تفسير الآية المباركة.

فكيف تنسب إلى عابدة للوثن ومجرمة بحقّ يوسف عليه السلام إجـرام تـوجيه تـهمة قبيحة إليه، ثمّ إجرام إيقاعه بالسجن لذاك الحين؟

إذن لابدّ أن يكون ذاك الكلام ليوسف عليه السلام، وتفسيره ما يلي: قال يوسف عليه السلام: ذلك ليعلم العزيز أنّي لم أخنه بالغيب في امرأته وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين، ثمّ التفت عليه السلام إلى أنّ هذا الكلام قد يعتبر تعظيماً وإجلالاً لنفسه فتدارك ذلك ببيان أنّ كلّ هذا بتوفيق من الله، وما أُبرّئ نفسي بما هي نفس فـإنّ النـفس لأمّـارة بالسوء إلّا بصيانة الله تعالىٰ وهو الغفور الرحيم.

وعليه فالآية جعلت في سياق قد يبادر إلى الذهن معنى غير محتمل، فلتكن آية إكمال الدين من هذا النمط.

* * *

# إثبات إمامة الأئمّة عليهم السلام

## إمامة علي عليه السلام بلا فصل

نبحث فيما يلي عن إمامة علي عليه السلام ونتمسّك لإثباتها ببعض الآيات القرآنية:

### آيتا: التبليغ والإكمال

يمكن الاستدلال بآيتي التبليغ والإكمال لإثبات إمامة عليّ بن أبي طالب عليه السلام بلا فصل بإضافة جملة مختصرة علىٰ ما تقدّم من الاستدلال بهما لإثبات التنصيص وإبطال الشورىٰ، وذلك بأن يقال: لو ثبت بالآيتين أنّ الرسول صلى الله عليه وآله نصّ علىٰ الخليفة بالتعيين والنصب فذاك ليس أحد الثلاثة بإجماع المسلمين؛ لأنّ أحداً من السنّة لم يدّعِ ورود نصّ من قبل الله علىٰ تعيينه إماماً، فينحصر الأمر بما يقوله أحد الجناحين من المسلمين وهم الشيعة من تعيين عليّ عليه السلام إماماً وخليفة بنصّ الرسول صلى الله عليه وآله عن الله في يوم الغدير.

وهذا بقطع النظر عن مسألة تواتر نقل نصّ الغدير شيعةً وسنّةً، ونحن لا نريد أن ندخل في بحث تواتر نصّ الغدير، فليطلب ذلك من الكتب المطوّلة كالغدير

والمراجعات وپيام قرآن المجلّد التاسع وغيرها.

ولا بأس هنا بنقل مقطع من كلام رشيد رضا المفسّر السنّي المعروف في تفسير المنار حيث قال في ذيل آية التبليغ:

(وقد اختلف مفسّرو السلف في وقت نزول هذه الآية، فروى ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن الحسن، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد: ما يدل علىٰ أنّها نزلت في أوائل الإسلام وبدء العهد بالتبليغ العام. وكأنّها علىٰ هذا القول وضعت في آخر سورة مدنيّة؛ للتذكير بأوّل العهد بالدعوة في آخر العهد بها.

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري: أنّها نزلت يوم غدير خم في عليّ بن أبي طالب.

وروت الشيعة عن الإمام محمّد الباقر أنّ المراد بما أُنزل إليه من ربّه النصّ علىٰ خلافة عليّ بعده، وأنّه ﷺ كان يخاف أن يشقّ ذلك على بعض أصحابه فشجّعه الله تعالىٰ بهذه الآية.

وفي رواية عن ابن عباس: أنّ الله أمره أن يخبر الناس بولاية عليّ فتخوّف أن يقولوا: حابى ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فلمّا نزلت الآية عليه في غدير خم أخذ بيد عليّ وقال: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ والِ من والاه وعادِ من عاداه».

ولهم في ذلك روايات وأقوال في التفسير مختلفة، ومنها: ما ذكره الثعلبي في تفسيره: أنّ هذا القول من النبيّ ﷺ في موالاة عليّ شاع وطار في البلاد، فبلغ الحارث بن النعمان الفهري، فأتى النبيّ ﷺ علىٰ ناقته وكان بالأبطح، فنزل وعقل ناقته وقال للنبيّ ﷺ وهو في ملأ من أصحابه: يا محمّد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله، فقبلنا منك ـ ثمّ ذكر سائر أركان الإسلام

وقال ـ: ثمّ لم ترض بهذا حتّى مددت بضبعي ابن عمّك وفضّلته علينا، وقلت: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فهذا منك أم من الله؟ فقال ﷺ: «والله الذي لا إله إلّا هو، هو أمر الله» فولّى الحارث يريد راحلته وهو يقول: اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتّى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ ...﴾[1].

وهذه الرواية موضوعة، وسورة المعارج هذه مكّية، وما حكاه الله من قول بعض كفّار قريش: اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك، كان تذكيراً بقول قالوه قبل الهجرة، وهذا التذكير في سورة الأنفال وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين، وظاهر الرواية أنّ الحارث بن النعمان هذا كان مسلماً فارتدّ، ولم يعرف في الصحابة، والأبطح بمكّة، والنبيّ ﷺ لم يرجع من غدير خم إلى مكّة، بل نزل في منصرفه من حجّة الوداع إلى المدينة)[2].

والآن أُعلّق على بعض المقاطع من كلامه كما يلي:

١ ـ قوله في ذيل التفسير الذي قال: نزلت في أوائل الإسلام: (وكأنّها على هذا القول وضعت في آخر سورة مدنيّة؛ للتذكير بأوّل العهد بالدعوة في آخر العهد بها).

أقول: لو كان المفروض أنّ الآية نزلت في أواخر حياة النبيّ ﷺ بالمدينة لعلّه كان يصح أن يقال: إنّها تذكير في آخر العهد بأوّل العهد، ولكنّي لا أدري ما معنى جعل آية مكّية في سورة مدنيّة للتذكير بأوّل العهد؟ وهل النبيّ ﷺ هو الذي جعل الآية المكّية في سورة مدنيّة ليذكّر نفسه بعهد مكّة، أم جعلها في

---

(١) س ٧٠ المعارج، الآية: ١ ـ ٢.

(٢) تفسير المنار ٦: ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

سورة مدنيّة ليذكّر الناس بعهد مكّة؟ وهل الناس لم يكونوا يقرأونها من حين نزولها في مكّة إلى أن جعلت في سورة مدنيّة فذكّرتهم بأوّل العهد؟

٢ ـ قوله: (وهذه الرواية موضوعة وسورة المعارج هذه مكّية).

أقول: لا أدري لماذا يستنكر فرض تسجيل بعض آيات مدنيّة ضمن سورة مكّية، في حين أنّ هذا مألوف في القرآن الكريم في موارد عديدة؟

٣ ـ قوله: (وما حكاه الله من قول بعض كفّار قريش: اللهمّ إن كان هو الحقّ من عندك، كان تذكيراً بقول قالوه قبل الهجرة، وهذا التذكير في سورة الأنفال، وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين).

أقول: لم يدّع أحد أنّ الله تعالىٰ أنزل بعد غدير خم آية: ﴿**قَالُوا اللهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقّ** ...﴾[1] وإنّما المدّعى: أنّ الحارث بن النعمان، أو أيّ اسم آخر ورد في بعض النقول الأُخرى، طلب بعد غدير خم نزول العذاب علىٰ نفسه، وكان طلبه بتعبير تعلّمه من سورة الأنفال الواردة سابقاً فقال: اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك... .

٤ ـ قوله: (وظاهر الآية أنّ الحارث بن النعمان هذا كان مسلماً فارتدّ، ولم يعرف في الصحابة).

أقول: ولا أدري كيف عرف رشيد رضا أنّه قد علم بجميع صحابة النبيّ ﷺ القريب منهم والبعيد الذين يتجاوزون الآلاف المؤلّفة، فرأى أنّ هذا الاسم لم يكن منهم؟!

٥ ـ قوله: (والأبطح بمكّة، والنبيّ ﷺ لم يرجع من غدير خم إلى مكّة، بل نزل في منصرفه من حجّة الوداع إلى المدينة).

---

(١) س ٨ الأنفال، الآية: ٣٢.

أقول: لا أدري كيف عرف رشيد رضا أنّ المقصود بالأبطح في هذه القصّة ـ والتي لم يرد إلّا في بعض نقولها وليس في جميع النقول ـ هو وادي الأبطح الذي كان بمكّة، في حين أنّ الأبطح والبطحاء اسم لكلّ مَسيل رمليّ، والمناطق المسمّاة بهذا الاسم كثيرة، كما استشهد لذلك سماحة آية الله الشيخ ناصر مكارم في پيام قرآن[1] بقول الشاعر في مراثي أهل البيت عليهم السلام:

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة    فلمّا ملكتم سال بالدّمّ أبطح

مع أنّنا نعلم أنّه لم تسل دماء أهل البيت عليهم السلام في وادي الأبطح في مكّة، بل سالت في العراق: كربلاء والكوفة.

واستشهد أيضاً بقول الشاعر في رثاء الحسين عليه السلام:

وتئنّ نفسيَ للربوع وقد غدا    بيت النبيّ مقطّع الأطناب

بيت لآل المصطفىٰ في كربلا    ضربوه بين أباطح ورواب

وعلىٰ أيّة حال انتهينا إلى أنّ الآيتين المباركتين الراجعتين إلى غدير خم تدل بأنفسهما ـ وبغضّ النظر عن تواتر حديث الغدير ـ علىٰ بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة، وانحصار الحقّ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في عليّ عليه السلام.

## آية : ﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين ﴾

يمكن التمسّك بقوله تعالىٰ: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[2] لإثبات عدم صلاحيّة الخلفاء الثلاثة الأوائل للإمامة.

---

(١) پيام قرآن ٩: ١٩٧.

(٢) س ٢ البقرة، الآية: ١٢٤.

والوجه الابتدائي للاستدلال بهذه الآية علىٰ ذلك أنّه: لا خلاف بين الشيعة والسنّة في أنّهم كانوا يسجدون للأصنام في بداية أمرهم، وقد قال الله تـعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وقد نصّت الآية المباركة علىٰ أنّ عهد الله لا ينال الظالمين.

ويعترض عادة علىٰ ذلك: بأنّ المشتقّ حقيقة في المتلبّس دون ما انـقضى عنه المبدأ، والخلفاء الثلاثة في رأي إخواننا السنّة قد انقضى عنهم مبدأ الظلم.

وقد يجاب علىٰ ذلك: بأنّ عظمة مقام الإمامة وجلالتها قرينة علىٰ استخدام المجاز وجعل المشتقّ مستعملاً في الأعم من المتلبّس والمنقضي عنه المبدأ.

أقول: لو انحصر الإشكال في مسألة انقضاء المبدأ وغضّ النظر عـن نكـتة أخرى، أمكن الجواب عنه: بأنّ الآية شملتهم حين سجودهم للصنم، فإنّهم في ذلك الوقت كانوا متلبّسين بالمبدأ، ودلّت في ذلك الوقت علىٰ أنّهم لا يـنالهم العهد إلى الأبد.

إلّا أنّه يقال في مقابل ذلك: إنّ ظاهر ربط حكم بعنوان هو تـعاصر زمـن الحكم للعنوان، فلو قيل: (قلّد المجتهد العادل) كان ظاهره هو التقليد في زمن الاجتهاد والعدالة، لا في ما بعد أن تحوّل إلى حالة لا يعلم بعد عـلم شـيئاً، أو تحوّل إلى حالة الفسق. ولو قيل: (لا تقلّد الفاسق) فظاهره النهي عن تقليده في وقت فعلية الفسق دون ما بعده.

وهنا أيضاً قد يجاب بأنّ عظمة وجلالة مقام الإمامة قرينة علىٰ رفع اليد عن هذا الظهور.

ولكنّنا نقول هنا شيئاً آخر لا نحتاج معه إلى تلك القرينة؛ وذلك لوجود قرينة

---

(١) س ٣١ لقمان، الآية: ١٣.

أُخرىٰ لا يشوب معها شكّ ولو بمقدار واحد في المئة في أنّ النظر إنّما هو إلى الظالم حتّى بعد زوال ظلمه؛ إذ لو خصّصنا الآية بالظالم في حين ظلمه لزم افتراض أنّ إبراهيم عليه السلام ـ وهو سيّد الأنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كان غبيّاً لا سمح الله إلى حدّ أن يتوقّع من الله تعالىٰ إعطاءه العهد حتّى للظالم في حالة ظلمه فيجعله إماماً حين يظلم، وهذا غير محتمل.

وقد قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير الميزان: «وقد سئل بعض أساتيذنا ـ رحمة الله عليه ـ عن تقريب دلالة الآية علىٰ عصمة الإمام، فأجاب: إنّ الناس بحسب القسمة العقليّة علىٰ أربعة أقسام: من كان ظالماً في جميع عمره، ومن لم يكن ظالماً في جميع عمره، ومن هو ظالم في أوّل عمره دون آخره، ومن هو بالعكس.

وإبراهيم عليه السلام أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة للقسم الأوّل والرابع من ذرّيّته، فبقي قسمان، وقد نفى الله أحدهما وهو الذي يكون ظالماً في أوّل عمره دون آخره، فبقي الآخر وهو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره»[1].

## آية : الولاية

يمكن الاستدلال علىٰ حصر الولاية في أميرالمؤمنين علي عليه السلام دون السابقين عليه بقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[2].

ووجه الاستدلال بهذه الآية المباركة أنّ الآية بالرغم من أنّها لا تقصر عن

---

(١) تفسير الميزان ١ : ٢٧٤.

(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٥٥.

أداء كبرى كلّية وبمصطلح الأُصوليين عن أداء قضيّة حقيقيّة، أو قل: إنّ القرآن يجري مع الزمان مجرى الشمس والقمر، ولكن من الواضح جدّاً أنّها تنظر بطرف جلّي إلى قضيّة خارجيّة وواقعة شخصيّة.

ويتّضح ذلك بالالتفات إلى جملة ﴿وَهُمْ رَاكِعُون﴾ من زاويتين:

الأُولى: ما المقصود بالركوع؟

فقد ينال: إنّ المقصود به الخضوع والانقياد، ولكن التعبير المعروف عن الخضوع والانقياد حتّى في القرآن هو القنوت لا الركوع. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْن﴾[1]، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِين﴾[2]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَة﴾[3]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾[4]، ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّه﴾[5]، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَات﴾[6]، ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ...﴾[7]، ﴿سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُون﴾[8]، ﴿وَقُومُوا لِلّهِ قَانِتِين﴾[9]، ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَار﴾[10]، ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِين﴾[11].

---

(١) س ٣٣ الأحزاب، الآية: ٣١.

(٢) س ٣ آل عمران، الآية: ٤٣.

(٣) س ٣٩ الزمر، الآية: ٩.

(٤) س ١٦ النحل، الآية: ١٢٠.

(٥) س ٤ النساء، الآية: ٣٤.

(٦) س ٣٣ الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٧) س ٦٦ التحريم، الآية: ٥.

(٨) س ٢ البقرة، الآية: ١١٦.

(٩) س ٢ البقرة، الآية: ٢٣٨.

(١٠) س ٣ آل عمران، الآية: ١٧.

(١١) س ٦٦ التحريم، الآية: ١٢.

وعليه فالظاهر أنّ المقصود بالركوع في الآية محلّ البحث هو الركوع المعروف.

الثانية : الواو في قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ واو حاليّة، بمعنى أنّ إيتاءهم للزكاة كان في حالة الركوع وليست عاطفة، وإلّا لكان المفروض أن يقال: ويركعون، لا أن يقال: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الذي يدلّ علىٰ الاستمرار؛ لوضوح أنّ حالة الركوع المعروف ـ أي الحالة الانحنائيّة ـ ليست دائميّة ومستمرّة.

إذن الآية ناظرة إلى قضيّة خارجيّة، وهي ما وقع صدفة واتفاقاً من أنّ التصدّق كان في حالة الركوع، والتاريخ لا يحكي لنا شيئاً من هذا القبيل إلّا بشأن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إذن الولاية له.

نعم روى الفخر الرازي في تفسيره عن عكرمة: أنّ هذه الآية نزلت في أبي بكر[1]، لكن هذا لا يعني أنّ المتصدّق في حالة الركوع كان هو أبا بكر، فإنّهم لا يفسّرون قوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ بمعنى التصدّق في حالة الركوع، أي الانحناء الصلاتي المألوف، بل يفسّرونه بمعنى الطاعة تارة، وبمعنى كونه كناية عن أنّ من شأنهم إقامة الصلاة أُخرىٰ، باعتبار أنّ الركوع جزء من الصلاة شرّفه بالذكر ونحو ذلك. أمّا قصّة التصدّق في حالة الانحناء الصلاتي المعروف فلم يرد في التاريخ إلّا بشأن عليّ عليه السلام.

ولنعم ما روي عن حسّان بن ثابت بشأن عليّ عليه السلام:

وأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً ... زكاةً فدتك النفس يا خير راكع

فأنزل فيك الله خير وَلاية ... وبيّنها في محكمات الشرائع

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٢٦.

**شبهات وردود:**

نذكر فيما يلي بعض الشبهات حول الاستدلال بآية الولاية علىٰ الخلافة بلا فصل مع ردودها:

فقد ذكر الفخر الرازي شبهات[١] في المقام من قبيل:

١ ـ لم لا يجوز أن يكون المراد من لفظ «الوليّ» في هذه الآية: الناصر والمحبّ دون ولاية الأمر؟ وهذا أولى بسياق الآية؛ لما ورد فيما قبلها من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء﴾[٢]؛ ولما ورد من بعدها من قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء...﴾[٣].

أقول: إنّ الولاية بهذا المعنىٰ ثابتة لجميع المؤمنين كما قال الله تعالىٰ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْض...﴾[٤]، ولا ميزة في ذلك للذي تصدّق في حال الركوع.

وأمّا السياق الذي ذكره فهو مقطوع، أمّا ما قبل الآية فسياق قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْض﴾ ـ وهو الوارد في الآية (٥١) ـ يستمرّ إلى آخر الآية (٥٣)، ولم يعلم كون الآية (٥٤) ـ التي هي قبل الآية المقصودة ـ نازلة مع المقطع السابق. وأمّا ما بعد الآية فأيضاً لم يعلم أنّ الآية(٥٦) و(٥٧) نازلة مع المقطع السابق.

---

(١) راجع المصدر السابق : ٢٧ ـ ٣١.

(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٥١.

(٣) س ٥ المائدة، الآية: ٥٧.

(٤) س ٩ التوبة، الآية: ٧١.

٢ ـ ظاهر الآية كون الولاية الثابتة للمؤمنين المذكورين في الآية المقصودة ثابتة في الحال في زمن الرسولﷺ، وهذا لا يكون إلّا بتفسير الولاية بـمعنى النصرة والمؤازرة والحبّ، أمّا بمعنى التصرّف والإمامة فلوكانت فإنّما هي بعد وفاة الرسولﷺ؛ لأنّ عليّاً عليه السلام لم يكن له ولاية التصرّف في زمن الرسولﷺ.

أقول: من الطبيعي والعرفي أنّ الموصي للقيّم بعده يعبّر عنه بالقيّم في حال حياته، فيقول مثلاً: (إنّ فلاناً هو القيّم علىٰ أطفالي) يعني: الذي يشرف عليهم بعد موتي.

٣ ـ لو وافقنا علىٰ أنّ الولاية بمعنى حقّ التصرّف والإمامة بعد الرسولﷺ وليس الآن فلماذا نحملها علىٰ الولاية بعد الرسولﷺ مباشرة؟ فيكفي إشباعاً لهذا المعنى كون الوصاية والإمامة له بعد حين حتّى ولو لم يكن وصيّاً مباشراً، فلتكن الوصاية لعليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد عثمان، ولا تدلّ الآية علىٰ الخلافة المباشرة.

والجواب: ما عرفت من أنّ التعبير عن الوصيّ المباشر بكونه قيّماً أو وليّـاً علىٰ الرغم من كونه كذلك بعد وفاة الموصي أمر عرفي، ولكن ليس الأمر كذلك بالقياس لمن سيكون هكذا بعد برهة من الزمن فاصلة بين زمان وصايته وزمان الوصيّ.

وقد تعرّض سماحة الشيخ ناصر مكارم حفظه الله[1] لبعض شبهات اُخرىٰ للردّ عليها:

الاُولى: كيف يمكن تطبيق الآية علىٰ شخص علـيّ عليه السلام مـع أنّ المـوصول

---

(١) راجع پيام قرآن ٩: ٢٠٧ ـ ٢١٣.

وجميع الضمائر الراجعة اليه وردت بصيغة الجمع؟

والجواب: أنّ هذا الأُسلوب مناسب حينما يشتمل الكلام علىٰ روح القضيّة الحقيقيّة بالرغم من إشارته إلى قضية شخصية من طرف آخر، وكم له من نظير في القرآن كما عدّده في (پيام قرآن) من قبيل:

١ ـ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً﴾[١]، والمذكور في التاريخ أنّ المقصود بالناس هو نعيم بن مسعود.

٢ ـ ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾[٢]، والمذكور في التاريخ أنّها نزلت بشأن عبدالله بن أُبيّ.

٣ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[٣]، وقد ورد أنّهما نزلتا في حاطب بن أبي بلتعة.

٤ ـ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[٤]، والقائل هو عبدالله بن أُبيّ.

٥ ـ ورد في آية المباهلة: ﴿وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ﴾[٥] ولا إشكال في أنّ شأن النزول هي فاطمة الزهراء عليها السلام.

٦ ـ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾[٦] وشأن نزولها في كثير من

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٧٣.
(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٥٢.
(٣) س ٦٠ الممتحنة، الآية: ١ ـ ٢.
(٤) س ٦٣ المنافقون، الآية: ٨.
(٥) س ٣ آل عمران، الآية: ٦١.
(٦) س ٢ البقرة، الآية: ٢٧٤.

الروايات هو عليّ عليه السلام.

٧ ـ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُون...﴾[١]، وقد قالوا: إنّ السائل كان عمرو بن الجموح.

الثانية: كيف يفترض التفات عليّ عليه السلام في أثناء الصلاة إلى السائل وسؤاله في حين أنّ ذلك ينافي حضور القلب، وكونه غارقاً في المناجاة مع الله حتّى اشتهرت قصّة إخراج السهم من رجله وعدم إحساسه بذلك؟

والجواب: أنّ عدم إحساسه بإخراج السهم من رجله في حال الصلاة أمر طبيعي؛ فإنّ الجمال الحقيقي لله سبحانه وجلاله الواقعي اللذين كان عليّ عليه السلام غارقاً فيهما لا يقاسان بالجمال المادّيّ ليوسف عليه السلام الذي دفع صويحباته إلى تقطيع أيديهنّ من دون إحساس بذلك، والفارق في المقام أنّ إجابة السائل أيضاً تعتبر عبادة لله، وحضور القلب في العبادة لا يمنع عليّاً عليه السلام عن هذا الالتفات الذي هو مؤكّد للحضور.

ومن المحتمل أن يكون جواب السبط بن الجوزي عن هذا الإشكال مشيراً إلى ما قلنا، حيث ينقل عنه أنّه قال في الجواب:

يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته ... عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتّى تمكّن من ... فعل الصحاة فهذا أفضل الناس[٢]

الثالثة: من أين جاء عليّ عليه السلام بخاتم باهض الثمن؟ ثمّ ألم يكن لبسه عليه السلام إيّاه إسرافاً؟

والجواب: إنّنا لا ندري كيف ولماذا فرض هذا المعترض أنّ للخاتم سعراً باهضاً؟ وما قيمة رواية مرسلة تفترض أنّ الخاتم كان يعادل خراج الشامات؟

---

(١) س ٢ البقرة، الآية: ٢١٥.

(٢) أنوار المواهب: ١٦٠ ـ ١٦١.

أقول: لعلّ مخترع هذه الرواية تخيّل أنّ عظمة العمل بعظمة قيمته المادّيّة، وتصوّر أنّ اختراع هذه الرواية فيه خدمة لعليّ عليه السلام فتخيّل أنّه أمر حسن، ولم يعرف أنّ الكذب قبيح ولو كان بهذه النيّة، ولم يلتفت إلى ما روي من «أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يُريه الميزان، فلمّا رأى غشي عليه ثمّ أفاق فقال: يا إلهي من الذي يقدر أن يزن بملء كفته حسنات؟ فقال: يا داود، إنّي إذا رضيت عن عبد ملأتها بتمرة»[1]. فالذي صعّد من مستوى تصدّق عليّ عليه السلام في الصلاة لم يكن قيمة الخاتم بل كان هو إخلاصه وخلوص عمله لله، وإلّا فما هي القيمة المادّيّة لأرغفة الخبز التي تصدّق بها أهل البيت عليهم السلام علىٰ مسكين ويتيم وأسير حتّى نزل بشأن ذلك قوله تعالىٰ: **﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾**[2]؟!

---

(١) البحار ٧: ٢٤٧.

(٢) س ٧٦ الإنسان، الآية: ٧ ـ ٢٢.

## إمامة الأئمّة من بعد علي عليهم السلام

لا بأس بالإشارة ولو باختصار إلى الأدلّة علىٰ إمامة الأئـمّة عليهم السلام مـن ولد عليّ بن أبي طالب عليه السلام فنقول:

إنّ مذهب الشيعة الاثني عشريّة ـ زادهم الله شرفاً ـ وما وصلهم متواتراً يداً عن يد بشأن تعداد الأئمّة عليهم السلام وأسمائهم يعدّ من الأُمور الواضحة عندهم، وأُشير كنموذج إلى روايات أُصول الكافي، باب ما جاء في الاثني عشر والنصّ عليهم، وهو الباب (١٢٦) من كتاب الحجة من الجزء الأوّل[١]، وحديث اللوح الوارد فيه وارد أيضاً في كمال الدين للصدوق[٢] في جميع روايات الباب (٢٨) منه فراجع، وهذه الروايات ـ أعني روايات الكافي ـ بعضها مشتملة علىٰ كلّ أسماء الأئمّة وبعضها مشتملة علىٰ بعض أسمائهم كالأمير عليه السلام والحجّة «عجّل الله فرجه».

وقد ورد نظير ذلك لدى السنّة أيضاً، فقد روى سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في كتابه ينابيع المودّة[٣] روايتين مصرّحتين بهذه الأسماء جميعاً:

**الأُولى:** ما رواه عن فرائد السمطين (٢ / ١٣٢ ح ٤٣١) بسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قدم يهوديّ يقال له نعثل(مـعثل خ ل) فـقال: «يـامحمّد، أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبتني عنها أسلمت علىٰ يديك». قال: «سل يا أباعمارة. فقال: يا محمّد، صف لي ربّك». إلى أن قـال:

---

(١) الكافي ١ : ٥٢٥ ـ ٥٣٥. (٢) كمال الدين : ٣٠٨ ـ ٣١٣.

(٣) ينابيع المودّة ٣ : ٢٨١ فصاعداً.

«فأخبرني عن وصيّك من هو؟ فما من نبيّ إلّا وله وصيّ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى يوشع بن نون». فقال: «إنّ وصيّي عليّ بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين».

قال: «يا محمّد، فسمّهم لي». قال: «إذا مضى الحسين فابنه عليّ، فإذا مضى علي فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسىٰ فابنه عليّ، فإذا مضى عليّ فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه عليّ، فإذا مضى عليّ فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجّة محمّد المهدي، فهولاء اثناعشر»، إلى أن قال: «أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله، وأشهد أنّهم الأوصياء بعدك. ولقد وجدت في كتب الأنبياء المتقدّمة وفيما عهد إلينا موسى بن عمران عليه السلام: أنّه إذا كان آخر الزمان يخرج نبيّ يقال له أحمد ومحمّد، هو خاتم الأنبياء لا نبيّ بعده، فيكون أوصياؤه بعده اثني‌عشر»، إلى أن قال: «فهؤلاء الاثناعشر عدد الأسباط».

فقال صلى الله عليه وآله: «أتعرف الأسباط؟» قال: «نعم كانوا اثني‌عشر، أوّلهم لاوي ابن برخيا، وهو الذي غاب عن بني إسرائيل غيبة، ثمّ عاد فأظهر الله به شريعته بعد اندراسها، وقاتل قرسطيا الملك حتّى قتل الملك».

قال صلى الله عليه وآله: «كائن في أُمّتي ما كان في بني إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة، وإنّ الثاني عشر من ولدي يغيب حتّى لا يُرىٰ، ويأتي علىٰ أُمّتي بزمن لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه ولا يبقى من القرآن إلّا رسمه، فحينئذٍ يأذن الله تبارك وتعالىٰ له بالخروج، فيظهر الإسلام به ويجدّده، طوبىٰ لمن أحبّهم وتبعهم، والويل لمن أبغضهم وخالفهم، وطوبى لمن تمسّك بهداهم». فأنشأ نعثل شعراً:

«صلّى الإلّه ذو العلى | عليك يا خير البشر
أنت النبيّ المصطفى | والهاشميّ المفتخر
بكم هدانا ربّنا | وفيك نرجو ما أمر
ومعشر سمّيتهم | أئمّة اثنا عشر
حباهم ربّ العلى | ثمّ اصطفاهم من كدر
قد فاز من والاهمُ | وخاب من عادى الزهر
آخرهم يسقي الظما | وهو الإمام المنتظر
عترتك الأخيار لي | والتابعين ما أمر
من كان عنهم معرضاً | فسوف تصلاه سقر».

الثانية : شبيهة بالأُولى ينقلها عن المناقب عن واثلة بن الأسقع بن قرخاب، عن جابر بن عبدالله الأنصاري في يهوديّ دخل علىٰ رسول الله ﷺ اسمه جندل بن جنادة بن جبير، فروى رواية شبيهة بالأُولى في ذكر الأسماء إلّا أنّها مختصرة فمن أرادها فليراجع المصدر.

ثمّ ذكر رواية ثالثة عن المناقب عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال: جاء يهوديّ من يهود المدينة إلى عليّ كرّم الله وجهه وساق الحديث، إلى أن قال له عليّ: «لهذه الأُمّة بعد نبيّها اثناعشر إماماً لا يضرّهم خلاف من خالفهم». ولكن الحديث لا يصرّح بتمام الأسماء إلّا أنّه يقول في آخره: «أوّلهم أنا وآخرنا القائم المهدي».

وروى القندوزي الحنفي أيضاً في ينابيع المودّة عن كتاب فرائد السمطين لإبراهيم بن محمّد الحمويني الشافعي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه: «إنّ أوصيائي وحجج الله علىٰ الخلق بعدي الاثناعشر، أوّلهم أخي وآخرهم ولدي. قيل: يا رسول الله من أخوك؟ قال: عليّ. قيل: من ولدك؟ قال: المهدي

الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيه ولدي المهدي، فينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلّي خلف ولدي، وتشرق الأرض بنور ربّها ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب[١]».

وقال القندوزي[٢]: وفيه (يعني في فرائد السمطين) عن الأصبغ بن نباتة عن ابن عباس رفعه: «أنا وعليّ والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهّرون معصومون».

وفيه (يعني في فرائد السمطين ٢ / ٣١٣ / حديث ٥٦٣ و ٥٦٤): عن عباية ابن ربعي عن ابن عباس رفعه: «أنا سيّد النبيّين وعليّ سيّد الوصيّين، وإنّ أوصيائي بعدي اثناعشر، أوّلهم عليّ وآخرهم المهدي»[٣].

وورد أيضاً في ينابيع المودّة عن كتاب المناقب بسند له إلى عليّ بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام رواية مفصّلة وفيها: «فنوديت: يامحمّد، أوصياؤك المكتوبون علىٰ سرادق عرشي. فنظرت فرأيت اثني‌عشر نوراً، وفي كلّ نور سطر أخضر عليه اسم وصيّ من أوصيائي، أوّلهم عليّ وآخرهم القائم المهدي»[٤].

وفي المصدر نفسه أيضاً[٥] قال: أخرج أبو المؤيد موفق بن أحمد الخوارزمي بسنده عن أبي سليمان راعي رسول الله، ويذكر شيئاً من رواية المعراج وفيها: «قال: يامحمّد، إنّي اطّلعت علىٰ أهل الأرض اطّلاعة فاخترتك

---

(١) ينابيع المودّة ٣ : ٣٨٣ ـ ٣٨٤ نقلاً عن فرائد السمطين ٢ : ٣١٢، الحديث ٥٦٢.

(٢) المصدر السابق : ٣٨٤.

(٣) المصدر السابق : ٣٨٤.

(٤) المصدر السابق : ٣٧٩.

(٥) المصدر السابق : ٣٨٠ ـ ٣٨١.

منهم، فشققت لك اسماً من أسمائي، فلا أُذكر في موضع إلّا ذكرت معي، فأنا المحمود وأنت محمّد، ثمّ اطلعت الثانية فاخترت منهم عليّاً فسمّيته باسمي، يامحمّد، خلقتك وخلقت عليّاً وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ولد الحسين من نوري، وعرضت ولايتكم علىٰ أهل السماوات والأرض، فمن قبلها كان عندي من المؤمنين ومن يجحدها كان عندي من الكافرين، يا محمّد، لو أنّ عبداً منْ عبيدي عبدني حتّى ينقطع أو يصير كالشنّ البالي ثمّ جاءني جاحداً لولايتكم ما غفرت له، يامحمّد، تحبّ أن تراهم؟ قلت: نعم يا ربّ. قال لي: انظر إلى يمين العرش، فنظرت فإذا عليّ وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمّد بن علي وجعفر بن محمّد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمّد بن علي وعلي بن محمّد والحسن بن علي ومحمّد المهدي بن الحسن كأنّه كوكب درّيّ بينهم، وقال: يامحمّد هؤلاء حججي علىٰ عبادي وهم أوصياؤك، والمهديّ منهم الثائر من قاتل عترتك، وعزّتي وجلالي إنّه المنتقم من أعدائي والممدّ لأوليائي»[١]، أيضاً أخرجه الحمويني.

ونحن لا نتوقع ورود أسماء الأئمّة الاثنيعشر في كتب السنّة بقدر ورودها في كتب الشيعة، ولكنّنا لو ضمننا إليها التصريحات الواردة في كتبهم بكون الخلفاء اثنيعشر من دون ذكر اسم لبلغت رواياتهم عدداً كبيراً، راجع بهذا الصدد كتاب ينابيع المودّة[٢] فقد نقل بهذا المضمون أحاديث كثيرة من كتب أهل السنّة من كتاب جمع الفوائد والبخاري ومسلم وفي بعضها: كلّهم من قريش

---

(١) أخرج تحت الخط هذا الحديث من مقتل الحسين للخوارزمي : ٩٥، الحديث ٢٠٣، ومن فرائد السمطين ٢ : ٣١٩، الحديث ٥٧١.

(٢) ينابيع المودّة ٣ : ٢٨٩ ـ ٢٩٤، الباب ٧٧.

وفي بعضها: كلّهم من بني هاشم.

وقال في ما قال: (ذكر يحيى بن الحسن في كتاب العمدة من عشرين طريقاً في أنّ الخلفاء بعد النبيّ اثناعشر خليفة كلّهم من قريش، وفي البخاري من ثلاثة طرق، وفي مسلم من تسعة طرق، وفي أبي داود من ثلاثة طرق، وفي الترمذي من طريق واحد، وفي الحميدي من ثلاثة طرق).

ونَقَل عن بعض المحقّقين أنّه قال: (إنّ الأحاديث الدالّة علىٰ كون الخلفاء بعده اثني‌عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أنّ مراد رسول الله من حديثه هذا الأئمّة الاثناعشر من أهل بيته وعترته؛ إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث علىٰ الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثني‌عشر، ولا يمكن أن يحمل علىٰ الملوك الأُمويّة لزيادتهم علىٰ اثني‌عشر ولظلمهم الفاحش، إلّا عمر بن عبدالعزيز... ولا يمكن أن يحمل علىٰ الملوك العبّاسيّة لزيادتهم علىٰ العدد المذكور ولقلّة رعايتهم الآية: **﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾**[1]، وحديث الكساء، فلابدّ أن يحمل هذا الحديث علىٰ الأئمة الاثني‌عشر من أهل بيته وعترته؛ لأنّهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلّهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله، وكانت علومهم عن آبائهم متّصلة بجدّهم وبالوراثة واللدنّية، كذا عرّفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق)[2].

وعلىٰ الرغم من كلّ هذا يقول بعضهم: إنّ الأحاديث السنيّة بالذات لا تحصرهم في اثني‌عشر.

---

(١) س ٤٢ الشورىٰ، الآية: ٢٣.

(٢) وأيضاً بإمكانك أن تراجع بهذا الصدد كتاب ينابيع المودّة ٢: ٣١٤ فصاعداً، الباب ٥٦، المودّة العاشرة في عدد الأئمّة وأنّ المهدي منهم.

وقد ردّ علىٰ ذلك السيّد سامي البدري في كتابه شبهات وردود قائلاً:

(روى البخاري عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «يكون بعدي اثنا عشر أميراً... كلّهم من قريش».

وفي رواية لمسلم: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة كلّهم من قريش»[1].

وفي رواية: «لا تضرّهم عداوة من عاداهم»[2].

وفي رواية: «يكون لهذه الأُمّة اثناعشر قيّماً لا يضرّهم من خذلهم كلّهم من قريش»[3].

وفي رواية مسروق قال: سأل رجل عبدالله بن مسعود قال له: يا أبا عبدالرحمن، هل سألتم رسول الله كم يملك هذه الأُمّة من خليفة؟ فقال عبدالله: سألناه فقال: «اثنا عشر عدّة نقباء بني إسرائيل»[4].

وفي رواية أُخرىٰ: «يكون بعدي من الخلفاء عدّة أصحاب موسى»[5].

وفي رواية أُخرىٰ: «كلّهم تجتمع عليه الأُمّة»[6].

قال ابن كثير: وقد روي مثل هذا عن عبدالله بن عمر وحذيفة وابن عبّاس[7].

---

(١) خرّجه تحت الخط من جامع الأُصول لابن أثير ٤ : ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) خرّجه تحت الخط من فتح الباري ١٦ : ٣٣٨.

(٣) خرّجه تحت الخط من كنز العمّال ١٣ : ٢٧.

(٤) خرّجه تحت الخط من مسند أحمد ١ : ٣٩٨ ـ ٤٠٦، ومستدرك الحاكم ٤ : ٥٠١، وفتح الباري ١٦ : ٣٣٩، ومجمع الزوائد ٥ : ١٩٠، وكنز العمّال ١٣ : ٢٧.

(٥) خرّجه تحت الخط من البداية والنهاية لابن كثير ٦ : ٢٤٨، وكنز العمال ١٣ : ٢٧.

(٦) خرّجه تحت الخط من سنن أبي داود ٢ : ٤٢٣.

(٧) خرّجه تحت الخط من البداية والنهاية ٦ : ٢٤٨.

أقول: وقد روى مثله الهيثمي في مجمع الزوائد عن الطبراني في الأوسط والكبير، والبزار عن أبي جحيفة[١].

ويتبيّن من ذلك أنّ حديث الاثني عشر عند السنّة لا تنحصر روايته بالصحابي جابر بن سمرة، بل يرويه صحابة آخرون ذكرت الكتب السنّية الميسّرة فعلاً أربعة منهم إلى جانب جابر بن سمرة)[٢].

وقال السيّد نذير الحسني في كتابه دفاع عن التشيّع:

(تسالم الفريقان علىٰ هذه النظريّة الاثني عشريّة التي نطق بها لسان رسول الله ﷺ، وإليك جملة من المصادر التي نقلت هذا الحديث:

١ ـ صحيح البخاري: ج ٤، ص ١٦٤، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف.

٢ ـ صحيح مسلم: ج ١٢، ص ٢٠٢، و ج ١٣، ص ٣١٩، دار الكتب العلميّة بيروت.

٣ ـ سنن الترمذي: ج ٤، ص ٥٠١.

٤ ـ سنن أبي داود: ج ٤، ص ١٠٦، رقم ٤٢٧٩ ـ ٤٢٨١.

٥ ـ مسند أحمد: ج ٥، ح ٩٠ و ٩٣ و ٩٧ و ١٠٠ و ١٠٦ و ١٠٧.

٦ ـ المعجم الكبير للطبراني: ج ٢، ص ٢٣٨، رقم ١٩٩٦.

٧ ـ مستدرك الحاكم: ج ٣، ص ٦١٨.

٨ ـ حلية الأولياء: ج ٤، ص ٣٣٣.

٩ ـ البداية والنهاية: ج ١، ص ١٥٣.

١٠ ـ الحاوي للفتاوي: ج ٢، ص ٨٥.

---

(١) خرّجه تحت الخط من مجمع الزوائد ٥ : ١٩٠.

(٢) شبهات وردود: ١٢٤ ـ ١٢٥.

١١ ـ مشكاة المصابيح للتبريزي: ج ٣، ص ٣٢٧، رقم ٥٩٨٣.

١٢ ـ السلسلة الصحيحة للأنباري: حديث رقم ٣٧٦.

١٣ ـ كنز العمّال: ج ١٢، ص ٣٢، ح ٣٣٨٤٨ و ٣٣٨٥٨ و ٣٣٨٦١.

١٤ ـ فرائد السمطين: ج ٢، ص ١٤٥، ح ٤٢.

١٥ ـ ينابيع المودّة: ج ٣، ص ١٠٤، ب ٧٧.

١٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١٢، ص ٢٠١.

١٧ ـ شرح ابن الجوزيّة لسنن أبي داود: ج ١١، ص ٣٦٣، رقم ٤٢٥٩.

١٨ ـ عون المعبود، شرح سنن أبي داود: ج ١١، ص ٣٦٢، رقم ٤٢٥٩.

١٩ ـ فتح الباري: ج ١٣، ص ٢١١.

كلّ هذه المصادر وغيرها خرّجت ولادة النظريّة الاثني عشريّة من لسان رسول الله ﷺ، ومن كتب الفكر الإسلامي المعتمدة، ومن أراد أن يستوعب هذا الحديث بكلّ أبعاده فليراجع إحقاق الحقّ[1]، حيث استعرض المؤلّف ما ورد في كتب العامّة لهذا الحديث، ثُمّ ذكر الصحابة الراوين له)[2].

ونختم نقل روايات الخلفاء الاثني عشر هنا بنقل عبارة للصدوق ﵀ في كمال الدين قال ﵀: (قال بعض الزيديّة: إنّ الرواية التي دلّت علىٰ أنّ الأئمّة اثناعشر قول أحدثه الإماميّة قريباً وولّدوا فيه أحاديث كاذبة.

فنقول ـ وبالله التوفيق ـ: إنّ الأخبار في هذا الباب كثيرة، والمفزع والملجأ إلى نقلة الحديث. وقد نقل مخالفونا من أصحاب الحديث نقلاً مستفيضاً من حديث عبدالله بن مسعود ما حدثنا به أحمد بن الحسن القطّان المعروف بأبي

---

(١) خرّجه تحت الخط هكذا: إحقاق الحق ١٣ : ١ ـ ٤٨.

(٢) الدفاع عن التشيّع : ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

عليّ بن عبد ربّه الرازي، وهو شيخ كبير لأصحاب الحديث قال: حدّثنا أبو يزيد محمّد بن يحيى بن خلف بن يزيد المروزيّ بالريّ في شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وثلاث مئة، عن إسحاق بن إبراهيم الحنظليّ، ـ في سنة ثمان وثلاثين ومئتين ـ المعروف بإسحاق بن راهويه عن يحيى بن يحيىٰ، عن هشام عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: بينا نحن عند عبدالله بن مسعود نعرض مصاحفنا عليه إذ قال له فتىً شابّ: هل عهد إليكم نبيّكم صلى الله عليه وآله كم يكون من بعده خليفة؟ قال: إنّك لحدث السنّ، وإنّ هذا شيء ما سألني عنه أحد من قبلك، نعم عهد إلينا نبيّنا صلى الله عليه وآله أنّه يكون من بعده اثناعشر خليفة بعدد نقباء بني إسرائيل.

وقد أخرجت بعض طرق هذا الحديث في هذا الكتاب، وبعضها في كتاب النصّ علىٰ الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام بالإمامة.

ونقل مخالفونا من أصحاب الحديث نقلاً ظاهراً مستفيضاً من حديث جابر ابن سمرة ما حدّثنا به أحمد بن محمّد بن إسحاق الدينوري ـ وكان من أصحاب الحديث ـ قال: حدّثني أبو بكر بن أبي داود، عن إسحاق بن إبراهيم بن شاذان، عن الوليد بن هشام، عن محمّد بن ذكوان، قال: حدّثني أبي عن أبيه، عن ابن سيرين، عن جابر بن سمرة السوائي، قال: كنّا عند النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: «يلي هذه الأُمّة اثناعشر». قال: فصرخ الناس فلم أسمع ما قال، فقلت لأبي ـ وكان أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله منّي ـ: ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فقال: قال: «كلّهم من قريش، وكلّهم لا يرى مثله».

وقد أخرجت طرق هذا الحديث أيضاً. وبعضهم روى: «اثناعشر أميراً»، وبعضهم روى: «اثناعشر خليفة». فدلّ ذلك علىٰ أنّ الأخبار التي في يد

الإماميّة عن النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام بذكر الأئمّة الاثني عشر أخبار صحيحة)[١].

وللاستفادة من هذا التواتر لحديث حصر الأئمّة في اثني عشر طريقان:

**الأوّل** : إنّ هذا العدد لا يمكن تطبيقه إلّا علىٰ نظريّة الشيعة الإماميّة الاثني عشرية، فمثلاً لا يمكن تطبيقه علىٰ الخلفاء الأوائل بعد رسول الله ﷺ فإنّهم أربعة وليسوا اثني عشر، ولا علىٰ خلفاء بني أُميّة لأنّهم أكثر من اثني عشر، ولا علىٰ الخلفاء العبّاسيّين لأنّهم أيضاً أكثر من اثني عشر، ولا علىٰ مذهب الكيسانيّة لأنّ الإمامة عندهم ختمت بمحمّد بن الحنفيّة فهم أربعة، ولا علىٰ مذهب الزيديّة لأنّ آخرهم عندهم زيد بن عليّ ولم يبلغوا اثني عشر، وهكذا.

**الثاني** : أن نضمّ ذلك إلى الأدلّة التي نصّت علىٰ أنّ السبيل إلى الله إنّما هم أهل البيت عليهم السلام، ويصبح عندئذٍ من الواضح أنّ العدد الاثني عشر الذين هم كلّهم من أهل البيت عليهم السلام هم المقصودون بروايات الاثني عشر، وهم ليسوا إلّا هؤلاء المعروفين لدى الشيعة الإماميّة، ويخرج بذلك من لم يكن من أهل البيت.

وأوّل ما دل علىٰ أنّ السبيل إلى الله هم أهل البيت عليهم السلام هو مجموع ثلاث آيات من القرآن الكريم تدلّ علىٰ حصر السبيل إلى الله بخطّ أهل البيت عليهم السلام:

**الأُولى** : قوله تعالىٰ: ﴿**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[٢]، فهذه الآية لا يمكن أن تكون من الآيات التي تحبّذ صلة الرحم ومودّة كلّ أحد لقرباه

---

(١) كمال الدين : ٦٧ ـ ٦٨.

وإذا أردت نقل الشيعة لروايات اثني عشر أميراً أو خليفة أو نحو ذلك ـ بعضها بذكر أسمائهم وبعضها الآخر بدونها ـ فهي لا تعدّ ولا تحصىٰ. وبإمكانك أن تراجع كنموذج لذلك كتاب البحار للمجلسي رحمه الله ج ٣٦ ب ٤١ من أبواب فضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وتواريخ أحواله، وهو باب معقود لذكر نصوص الرسول ﷺ علىٰ الأئمّة عليهم السلام: ٢٢٦ ـ ٣٧٣.

(٢) س ٤٢ الشورى، الآية: ٢٣.

هو؛ إذ لا يعقل افتراض ذلك أجراً للرسول صلى الله عليه وآله. فهنا يقال: إنّ المقصود قربى الرسول صلى الله عليه وآله.

الثانية : قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[١]، فكأنّ الآية تقول: إنّ المودّة في القربى التي سألتكم إيّاها بعنوان الأجر هي في الحقيقة لكم ولصالحكم وليست لي.

الثالثة : قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[٢]، فيبدو من هذه الآية المباركة أنّ الأجر الذي طلبه منهم وهو المودّة في القربى لم يكن إلّا ليكون ذلك سبيلاً لهم إلى الله سبحانه، وهنا ورد في دعاء الندبة استنتاج أنّهم عليهم السلام هم السبيل إلى الله فقال بعد استعراض الآيات الثلاث: «فكانوا هم السبيل إليك، والمسلك إلى رضوانك».

ولنعم ما قال الشيخ الأُزري رحمه الله بشأن عائشة مشيراً إلى آية القربي:

حفظت أربعين ألف حديث ... ومن الذكر آيةً تنساها

ونضيف إلى الآيات التي عرفت دلالتها علىٰ أنّ السبيل إلى الله لهذه الأُمّة هم أهل بيت الرسول عليهم السلام الروايات المتواترة الدالّة علىٰ ذلك، وعلىٰ رأسها الروايات المتواترة الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال ما مضمونه: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا أبداً»[٣]. وقد ورد في عدد منها: «لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»، وفي بعضها: «قد نبّأني

---

(١) س ٣٤ سبأ، الآية: ٤٧.

(٢) س ٢٥ الفرقان، الآية: ٥٧.

(٣) راجع بهذا الصدد البحار ٢٣: ١٠٦ ـ ١١٨، الباب ٧ من أبواب جمل أحوال الأئمّة الكرام عليهم السلام ودلائل فضائلهم، وهو باب فضائل أهل البيت عليهم السلام والنصّ عليهم جملة، وكتاب ينابيع المودّة ١: ٩٥ ـ ١٠٦، فصل حديث الثقلين.

اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض». ومن الطريف ما ورد في إحداهما: أنّه سُئل زيد بن أرقم من بعد ما روى الرواية: (من أهل بيته نساؤه؟!) قال: «لا اَيم الله، إنّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثمّ يطلّقها فترجع إلى أبيها وقومها، وأهل بيته صلى الله عليه وآله أهله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده».

وتؤيّد هذه الروايات روايات: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح: من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق» وهي أيضاً مستفيضة[1].

وطريقة الاستدلال بهذه الروايات هي عين طريقة الاستدلال بآيات القربى المشار إليها، أي أنّنا نقول: إنّ مقتضى الجمع بين روايات حصر السبيل إلى الله في أهل البيت وروايات أنّ الأئمّة اثناعشر هو: أنّ أئمّة الحقّ متّصفون بكونهم من أهل البيت عليهم السلام، وأنّ عددهم اثناعشر، ولا يوجد اثناعشر موصوفون بكونهم من أهل البيت إلّا من قالت الشيعة بإمامتهم.

وبهذا العرض اتّضح إنّ روايات حصر الأئمّة في اثني‌عشر بمجموعها الواردة لدى الشيعة والسنّة فوق حدّ الإحصاء والتواتر.

### الروايات التي قد توهم أنّ الأئمّة ثلاثةعشر ومناقشتها:

توجد في مقابل ما عرفناه من روايات الحصر في اثني‌عشر ـ التي هي فوق حد الإحصاء ـ أخبار آحاد نادرة قد تُوهم أنّ الأئمّة ثلاثة عشر، وهي خمس روايات واردة في الكافي[2]، نذكرها مع الردّ عليها:

---

(١) راجع بهذا الصدد البحار ٢٣: ١١٩ ـ ١٢٥، وينابيع المودّة ١: ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) الكافي ١: ٥٣١ ـ ٥٣٤، الباب ١٢٦ من كتاب الحجّة الحديث ٧ و ٨ و ٩ و ١٧ و ١٨، وكُرّر الحديث السابع بشيء من الفرق في السند تحت رقم ١٤.

أوّلاً: ـ الحديث السابع من الباب ـ عن محمّد بن يحيي، عن عبدالله بن محمّد الخشّاب ـ ولا ذكر له في كتب الرجال ـ عن ابن سماعة، عن عليّ بن الحسن بن رباط، عن ابن أُذينة، عن زرارة قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الاثناعشر الإمام من آل محمّد عليهم السلام كلّهم محدّث من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله ومن ولد عليّ، ورسول الله وعليّ عليه السلام هما الوالدان».

ولا يخفى أنّ ظاهر العبارة ليس هو إرادة أنّ الأئمّة اثناعشر كما أراد البعض تفسيرها بذلك، وإنّما ظاهرها أنّهم اثناعشر، وأنّهم من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ، فكأنّ عليّاً عليه السلام كرسول الله صلى الله عليه وآله خارج من دائرة الأئمّة، وهو ورسول الله صلى الله عليه وآله والدان للأئمّة.

وقد حمله المجلسي رحمه الله في مرآة العقول[1] علىٰ التغليب، أي بما أنّ أكثرهم ما عدا واحداً من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام عبّر عنهم بتعبير: «كلّهم محدّث من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ».

وهذا الحديث روي مرّة أُخرىٰ في الكافي تحت رقم (١٤) عن أبي علي الأشعري، عن الحسن بن عبيدالله ـ ولعلّ الصحيح: الحسين بن عبيدالله ـ عن الحسن بن موسى الخشّاب[2]، عن عليّ بن سماعة، عن عليّ بن الحسن بن رباط، عن ابن أُذينة عن زرارة، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: الاثناعشر الإمام من آل محمّد كلّهم محدّث من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وولد عليّ بن أبي طالب عليه السلام فرسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام هما الوالدان».

---

(١) مرآة العقول ٦ : ٢٢٣.

(٢) قال النجاشي عنه: (من وجوه أصحابنا مشهور كثير العلم والحديث).

وقال السيّد نذير الحسني[١]: نقل المفيد هذه الرواية ـ في كتاب الإرشاد ج ٢ ص ٣٤٧ ـ بهذا الشكل: «الاثناعشر الأئمّة من آل محمّد كلّهم محدّث: عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأحد عشر من ولده، ورسول الله وعليّ هما الوالدان».

وقال الصدوق رحمه الله في الخصال وفي العيون: حدّثنا محمّد بن علي ماجيلويه رضي الله عنه قال: حدّثنا محمّد بن يعقوب الكليني قال: حدّثنا أبو علي الأشعري عن الحسين بن عبيدالله، عن الحسن بن موسى الخشّاب، عن علي بن سماعة، عن عليّ بن الحسن بن رباط، عن أبيه، عن ابن أُذنية، عن زرارة بن أعين قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: «اثناعشر إماماً من آل محمّد عليهم السلام كلّهم محدثون بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام منهم»[٢]. إذن هذا يؤيّد نسخة الكافي الواصلة للشيخ المفيد رحمه الله.

ثانياً: ـ الحديث الثامن من الباب ـ عن محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن مسعدة بن زياد، عن أبي عبدالله، ومحمّد بن الحسين، عن إبراهيم عن أبي يحيى المدائني، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري في حديث طويل جاء فيه: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ لهذه الأُمّة اثني عشر إماماً هدىً من ذريّة نبيّها، وهم منّي».

قال السيّد البدري في كتاب شبهات وردود[٣]: (وقد روى مضمون هذا الخبر النعماني في كتاب الغيبة، والصدوق في إكمال الدين: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) الدفاع عن التشيّع: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) الخصال: ٤٨٠، الباب ١٢، الحديث ٤٩، وراجع عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٥٦ ـ ٥٧، الباب ٦، الحديث ٢٤.

(٣) شبهات وردود: ٩٤.

قال: «إنّ لهذه الأُمّة اثني عشر إمام هدى وهم منّي» بدون «من ذرّية نبيّها») وبه يرتفع التشويش في العبارة.

ثالثاً: ـ الحديث التاسع من الباب ـ عن محمّد بن يحيى، عن محمّد بن الحسين، عن ابن محبوب، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، عن جابر ابن عبدالله الأنصاري قال: «دخلت علىٰ فاطمة عليها السلام وبين يديها لوح فيه أسماء الأوصياء من ولدها، فعددت اثني عشر آخرهم القائم عليه السلام، ثلاثة منهم محمّد وثلاثة منهم عليّ». فقوله: «من ولدها» يوهم أنّه من ولدها اثناعشر، فاذا أُضيفوا إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام كانوا ثلاثة عشر.

ولو تمّت النسخة لحُملت علىٰ التغليب كما مضى، ولكن الشأن في تماميّة النسخة؛ لأنّ الصدوق رحمه الله روى الرواية نفسها بالسند نفسه من دون هذا التشويش حيث قال: حدّثنا أحمد بن محمّد بن يحيى العطّار رضي الله عنه قال: حدّثني أبي عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب، عن الحسن بن محبوب، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: «دخلت علىٰ فاطمة عليها السلام وبين يديها لوح فيه أسماء الأوصياء، فعددت اثني عشر آخرهم القائم، ثلاثة منهم محمّد وأربعة منهم علي عليهم السلام»[1].

وروى أيضاً: حدّثنا الحسين بن أحمد بن إدريس رضي الله عنه قال: حدّثنا أبي عن أحمد بن محمّد بن عيسى وإبراهيم بن هاشم جميعاً عن الحسن بن محبوب، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، عن جابر بن عبدالله الأنصاري وذكر النصّ نفسه[2].

---

(١) كمال الدين: ٣١١ ـ ٣١٢، الباب ٢٨، الحديث ٣.

(٢) المصدر السابق: ٣١٣، الحديث ٤.

وذكر السند الثاني وبالنصّ نفسه أيضاً في عيون أخبار الرضا[١].

رابعاً: ـ الحديث السابع عشر من الباب ـ عن محمّد بن يحيى، عن محمّد بن أحمد، عن محمّد بن الحسين، عن أبي سعيد العصفر[٢]، عن عمرو بن ثابت، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي واثني عشر من ولدي وأنت يا عليّ زرّ الأرض، يعني أوتادها وجبالها، بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثناعشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم يُنظروا».

وهنا ذكر المجلسي رحمه الله في مرآة العقول[٣] احتمال أن يكون المقصود بـ«اثني عشر» فاطمة وأحد عشر من ولدها؛ إذ لم يذكر في هذا الحديث كونهم أئمّة، وإنّما ذكر كونهم رزّ الأرض ـ من: رزّ الباب، أي أصلح عليه الرزّة، وهي حديدة يدخل فيها القفل. ورزّ الشيء في الشيء: أثبته ـ أو زرّ الأرض بتقديم الزاي وكسره، من زِرّ الدين، يعني: قوامه باعتبار أنّ الزِرّ عظم صغير تحت القلب وهو قوامه.

وقال المجلسي رحمه الله: (روى الشيخ في كتاب الغيبة بسند آخر عن عمرو بن ثابت، عن أبي الجارود مثله، وفيه: «إنّي وأحد عشر من ولدي» وهو أظهر)[٤].

خامساً: ـ الحديث الثامن عشر من الباب بالإسناد نفسه ـ عن أبي سعيد رفعه عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من ولدي اثناعشر نقيباً نجباء محدّثون مفهّمون، آخرهم القائم بالحقّ، يملأها عدلاً كما ملئت جوراً».

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٤٧، الباب ٦، الحديث ٧.

(٢) في الكافي: العصفوري، والظاهر أنّه خطأ من الناسخ.

(٣) مرآة العقول ٦: ٢٣٢.

(٤) المصدر السابق.

وهنا جعل المجلسي﵀ في مرآة العقول[١] احتمال كون المقصود فاطمة وأحد عشر من ولدها بعيداً؛ باعتبار أنّ كلمة النقيب تقترب من معنى كلمة الإمام، ولكن يأتي هنا بوضوح الاحتمال الآخر وهو احتمال التغليب.

وعلىٰ أيّة حال فلنغضّ النظر عن التوجيهات الماضية ونقول: لو تمّ بعض هذه الأخبار لكان خبراً واحداً نادراً في مقابل ما مضى من أخبار الاثني‌عشر التي كانت فوق حدّ الإحصاء.

والحديث عن إمامة الأئمّة﵈ طويل، وقد رمت هنا الاختصار الكثير، وإنّي أُحوّل أنظار القرّاء الكرام إلى مطالعة الكتب الطوال.

❊ ❊ ❊

---

(١) المصدر السابق : ٢٣٣.

# ظهور دولة العدل في آخر الزمان

نتحدّث مختصراً حول ظهور دولة العدل في آخر الزمان التي يملأ الله بها الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، فنقول: إنّ القرآن الكريم صريح في ذلك:

قال الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]، وقال عزّ وجلّ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2].

فهي آية واحدة نزلت مرّتين: مرّة في سورة التوبة، وأُخرىٰ في سورة الصفّ، تصرّح بأنّ الله تعالىٰ سيُظهر هذا الدين علىٰ الدين كلّه رغم المشركين. ومن الطريف أنّها في كلا الموردين وقعت بعد آية تتكلّم عن إرادة القوم إطفاء نور الله بأفواههم، ولكنّ الله يريد تتميم النور، مع فرق بسيط في التعبير بين الموردين في هذه الآية ومن دون أيّ فرق بينهما في الآية التي هي محل الشاهد، ولا إشكال ولا ريب في أنّ إظهار دين الإسلام علىٰ كلّ الأديان وفي جميع أرجاء الأرض لم يتمّ حتّى الآن، فهذا إخبار قطعيّ عن وقوع ذلك في

(١) س ٩ التوبة، الآية: ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) س ٦١ الصف، الآية: ٨ ـ ٩.

آخر الزمان بمشيئة الله عزّ وجلّ.

ويمكن عطف آية ثالثة علىٰ هاتين الآيتين وهي قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[1].

وقد تعطف علىٰ الآيات المباركات آية رابعة وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُون﴾[2].

والاستشهاد بها يتوقّف علىٰ استظهار أنّ المقصود بإرث العباد الصالحين للأرض إرثهم لها في هذه الدنيا لا في الآخرة، ولو بقرينة: أنّ الأرض في عالم الآخرة ستكون أرضاً أُخرىٰ غير هذه الأرض بدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَات﴾[3].

أمّا الآيات الأُولىٰ فتبدو صريحة في النظر إلى دار الدنيا؛ لأنّ صدر الآية وهو قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ لا إشكال في كونه راجعاً إلى هذه الدنيا، فكذلك تكملته بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾، بل إنّ غلبة دين علىٰ دين لا يتصوّر لها معنى في عالم الجزاء، وإنّما يتجلّىٰ معناها في عالم محاربة الأديان وفعّاليّتها وهو هذه الدنيا.

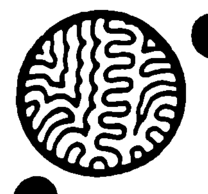
بقي في المقام أمر واحد نشير إليه، وهو أنّ الروايات عندنا بالنسبة لما بعد عصر ظهور الحجّة عجّل الله تعالىٰ فرجه منقسمة إلى ثلاث طوائف في أنّه هل تبدأ بعد ذلك رجعة الأئمّة من جديد واحداً بعد آخر؟ أو يخلفهم مهديّون ـ علىٰ حدّ تعبير بعض الروايات ـ من أولادهم؟ أو يطول عمر الحجّة عليه السلام إلى ما قبل القيامة بأربعين يوماً؟ والله أعلم حيث يجعل رسالته.

---

(١) س ٤٨ الفتح، الآية: ٢٨.

(٢) س ٢١ الأنبياء، الآية: ١٠٥.

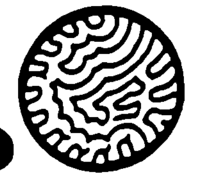
(٣) س ١٤ إبراهيم، الآية: ٤٨.




الفصل الرابع

# البرزخ

- الموت.
- تجرّد النفس ومغايرتها للجسم.
- بقاء النفس بعد الموت.
- مصير النفس في البرزخ بين الموت والبعث.
- فلسفة البرزخ.
- ختم الكلام.

# المـوت

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

قيل لمولانا الباقرعليه السلام ما الموت؟ قال عليه السلام: «هو النوم الذي يأتيكم كلّ ليلة، إلّا أنّه طويل مدّته لا ينتبه منه إلّا يوم القيامة، فمن رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره، ومن أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره، فكيف حال فرح في النوم ووجل فيه، هذا هو الموت فاستعدّوا له»[2].

وعن مولانا الباقرعليه السلام أيضاً قال: «ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه، وصار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإذا أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس، وإذا أذن الله في ردّ الروح أجابت النفس الروح، وهو قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ فمهما رأت في ملكوت السماوات فهو ممّا له تأويل، وما رأت في ما بين السماء والأرض

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) البحار ٦ : ١٥٥.

فهو ما يخيّله الشيطان ولا تأويل له»[١].

الرواية الثانية التي تلوناها عليك تفصل بين مصطلح النفس ومصطلح الروح، فكأنّ الروح قصد بها ما قد يسمّى بالروح النباتية أو بالروح الحيوانية، وبها تتمّ تغذية البدن ونموّه، والروح بهذا المعنى لا تنفصل عن البدن بمجرّد النوم؛ ولذا ترىٰ النائم يتغذّى جسمه بالطعام الذي دخل معدته قبل النوم وينمو جسمه، وتنقسم قوّة الطعام وتتوزّع علىٰ جميع أجزاء بدنه كما يتمّ ذلك في يقظته، وكذلك أثر الدواء الذي دخل المعدة أو العضلة أو الوريد يعمل عمله في النوم كما يعمل في اليقظة، ودوران الدم يبقى ساري المفعول في النوم، في حين أنّ الموت يفصل بين البدن وبين كلّ هذه الأُمور.

أمّا النفس فهي التي تنفصل عن البدن في حالة النوم، واشتراك النوم مع الموت يكون في ذلك، فلئن كان مركز تدبير الجسم من ناحية النموّ والتغذّي هي الروح والتي هي أمر مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات فمركز الإرادة والعواطف والعلم هي النفس؛ ولذا ترىٰ أنّ هذه الأُمور كلّها تنفصل عن الجسم بالنوم كما تنفصل بالموت.

والفهم الظاهري لنا عن الموت أنّه عبارة عن مجرّد الانفصال بين البدن والنفس أو الروح؛ ولهذا يرى الإنسان العادي أو الساذج أنّ الموت أمر عدمي، ولكنّ القرآن يصرّح بكونه أمراً وجودياً، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور**﴾[٢]. ولعلّ خير تعبير يوضّح لأفهامنا القاصرة معنى وجودية الموت بالمقدار الذي يتحمّله عقلنا قوله

---

(١) مجمع البيان في تفسيره في ذيل الآية الشريفة.

(٢) س ٦٧ الملك، الآية: ٢.

تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾، فكأنّ الجانب العدمي للموت عبارة عن القضاء علىٰ الروح النباتية في الجسم، ولكن الجانب الوجودي له عبارة عن توفّي الله تعالىٰ للنفس، وليس هذا قضاءً علىٰ النفس أو إعداماً لها، بل قبضه سبحانه وتعالىٰ إيّاها هو أمر وجودي.

ولا تنافي بين نسبة التوفّي ـ وهو الأخذ أو الأخذ التامّ الكامل ـ إلى الله تعالىٰ تارة كقوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وإلى ملك الموت أُخرىٰ كقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[(١)]، وإلى الملائكة ثالثة كقوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[(٢)]، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِين﴾[(٣)]، ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُون﴾[(٤)]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾[(٥)]، فإنّ ملك الموت رسول الله سبحانه وتعالىٰ، والملائكة رسل ملك الموت وأعوانه.

ولا فرق في هذه النتيجة ـ وهي اشتمال الموت علىٰ ما يشتمل عليه النوم أيضاً من الجانب الوجودي، وهو توفّي الله سبحانه وتعالىٰ وقبضه للنفس إليه ـ بين أن نختار أيّ الوجهتين في أصل ائتلاف النفس مع البدن، فإنّ هناك وجهتي نظر في تصوير ائتلافهما ـ بعد وضوح أنّه ليست نسبة النفس إلى البدن كنسبة

---

(١) ﴿وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون﴾ س ٣٢ السجدة، الآية: ١٠ ـ ١١.

(٢) س ٤٧ محمّد، الآية: ٢٧.

(٣) س ١٦ النحل، الآية: ٣٢.

(٤) س ٦ الأنعام، الآية: ٦١.

(٥) س ٦ الأنعام، الآية: ٩٣.

سائق العربة إلى العربة أو نسبة الهواء إلى الجلد، فالإخراج في قوله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾ لا يقصد به إلّا الفصل الذي يختلف معناه باختلاف فرض تصوير الوصل وبمناسبته ـ:

فالتصوير الأوّل: هو التصوير القائل بأنّ الله تعالىٰ قد خلق النفس الإنسانية منفصلة عن البدن، ثُمّ جعل البدن تحت سلطانها، فالنفس هي التي تحمل البدن وليس العكس. وتشهد لذلك روايات أنّ الله خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام[١]. وتشهد لذلك شهادة الذين يدّعون امتلاك الموت الإرادي ويرون أحياناً أجسادهم منفصلة عن أنفسهم، والله العالم بحقيقة الحال.

والتصوير الثاني: هو التصوير القائل بأنّ امتلاك الإنسان للنفس ليس إلّا تطوّراً جديداً له بحسب التكامل الذي يتمّ له بقدرة الله في الرحم خلال ما يسمّىٰ بمرحلة ولوج الروح والمعبّر عنها في القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين﴾[٢].

وقد اختار الشيخ السبحاني ـ حفظه الله ـ التصوير الثاني مستدلّاً بهذه الآية المباركة التي عبّرت عن مرحلة ما يسمّى بنفخ الروح بـ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَر﴾، أي أنشأنا الإنسان خلقاً جديداً، فلم يفترض أنّ النفس كانت مخلوقة من قبل وسلّطت علىٰ البدن بل افترض أنّ إنشاءه ـ وهو يعني إيجاده ـ كان بعد تكامل النطفة ضمن المراحل السابقة التي أشارت إليها الآية المباركة[٣].

---

(١) راجع البحار ٦١، الباب ٤٣ من كتاب السماء والعالم.

(٢) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين﴾. س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٢ ـ ١٤.

(٣) راجع منشور جاويد ٤ : ٢١٧ ـ ٢١٨.

أقول: وقد تشهد لذلك آية الذرّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1]؛ إذ لو كانت الأرواح في عالم الذرّ مخلوقة قبل الأبدان لما قال: أخذهم من ظهور بني آدم بل ولا من ظهر آدم عليه السلام، فيبدو أنّ المقصود هو الأخذ من ظهور الآباء وهو أخذ تدريجي بتدرّج خلق الأفراد، فكأنّ كلّ أحد يؤخذ منه الميثاق في بداية وجوده، وهو بأحد شكلين:

إمّا بأخذ الميثاق الصريح الذي بقي أثره فينا علىٰ الرغم من نسياننا إيّاه، وذلك الأثر هو فطرية التوحيد، فكان ذلك كافياً في إتمام الحجة علينا، ولم تلزم لغوية أخذ الميثاق.

وإمّا بأن يكون معنى أخذ الميثاق هو جعل التوحيد في الفطرة ابتداءً.

وعلىٰ أيّة حال فكلا هذين المسلكين في تصوير الائتلاف بين الروح والبدن ـ المختلف فيه بين أصحابنا من قديم الأيام ـ مشتركان في نهاية تواجُدنا في هذه الدنيا، وهو أنّ الله تعالىٰ يقبض الروح أو النفس كما يقبضها في عالم النوم بفرق أنّه مع الموت يقترن ذلك بانتهاء الحياة النباتية التي هي مصبّ النموّ والتغذّي وتوليد المثل ـ وأقصد بذلك توليد أمثال الخلايا المستهلكة ـ ومع النوم لا يوجد شيء من هذا القبيل.

وبعد أن أشارت الآية المباركة التي بدأنا بها الحديث إلى هذا الأمر خُتمت بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولعلّ ﴿ذَلِكَ﴾ يشير إلى آيات النفس التي تظهر بواسطة النوم.

وملخّص ما نفهمه بفهمنا القاصر أنّ الماديّين الذين غفلوا عن الإحساس

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ١٧٢.

بالنفس الذي هو إحساس لا غبار عليه ـ كما يتجلّى ذلك ضمن بيان بعض البراهين العقلية التي سوف نشير إليها إن شاء الله ـ كأنّ السبب في غفلتهم كان عبارة عن أنّ الإحساسات الظاهرية الخمسة المعروفة للإنسان ـ من الشمّ والسمع والذوق والرؤية واللمس ـ إنّما تحصل له بسبب الحواسّ الخمس التي كلّها مادّيّة وجسمانية، وهي: الأنف والأُذن واللسان والعين والجسد، فأدّى ذلك إلى أن غابت عنهم النفس البشرية التي هي فوق المادّة، وتخيّلوا أنّ الإنسان عبارة عن هذه البشرة وهذا الجسم، وأن لا شيء غير المادّة، ولكن النوم الذي سلّطه الله علىٰ العباد كافٍ لرفع هذا الغبش عن البصائر لمن هو ذو بصيرة؛ لأنّ الحواسّ الخمس التي أوجبت الخلط في الذهن والغفلة عن النفس المجرّدة كلّها متعطّلة في حالة النوم، ومع ذلك يكون للنائم نوع إحساس وشعور في عالم الرؤيا حتّىٰ ولو فرض وهماً بحتاً؛ فلعدم وجود ما أوجب الغفلة عن تجرّد النفس، قد يعي الإنسان بسبب ما رآه في عالم النوم من رؤىً قد يستذكرها مفصّلاً ويدركها وجدانه الذي يحسّ بالنفس المجرّدة، أضف إلى ذلك الرؤى الصادقة بالذات التي ينحصر تفسيرها بالارتباط الغيبي المجرّد عن المادّة بمستقبلٍ آتٍ أو بحال غائب عن الإحساس.

فهذا شيء من آيات النفس البشرية في عالم الرؤيا التي قد يشير إليها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

# تجرّد النفس ومغايرتها للجسم

إنّ النفس مجرّدة عن المادّة ومغايرة للجسم، والدليل على ذلك زائدا على ما عرفته من الدليل النقلي القطعي في القرآن، وما عرفته من دلالة الرؤى الصادقة، مجموعة من الأدلة العقلية نشير فيما يلي إلى بعضها:

**الأوّل ـ وحدة الأنا :**

فقد ثبت علميّاً أنّ خلايا الجسم تتبدّل تماماً خلال سبع سنين تقريباً، فالذي عمّر سبعين سنة قد تبدّل بكلّ خلاياه عشر مرّات تبدّلاً تامّاً، فكيف لو فرضنا أحداً عمّر آلاف السنين، ومع ذلك يحسّ بوجدانه بوحدة الأنا من أوّل عمره إلى آخره، وليس هذا إلّا عبارة عن الإحساس الوجداني بالنفس المجرّدة عن المادّة.

ولا ينافي ذلك ما ثبت علمياً أيضا من أنّه لو هلك قسم من المخّ بحادث اصطدام ونحوه لم يعوّض بنموّ الباقي في المستقبل؛ فإنّ هذا ليس إلّا من قبيل أنّ من قطعت يده لا يعوّض بيد جديدة بنموّ أو تبدل باقي خلاياه الجسمية، فتوليد كلّ خليّة من خلايا المخّ لمثلها لا يكون إلّا بتدريج لا يتخلّله فراغ. أمّا لو فرغ المخ عن قسم من أقسامه باصطدام أو إقصاء جراحي مثلاً فخلاياه الأُخرى لا تملأ فراغ الخلايا التي أُقصيت؛ لأنّ كلّ خلية من خلايا المخ إنّما تنتج مثلها وفي محلّها بالتبادل التدريجي، وما تلف لم يكن كالباقي ولا في محلّ الباقي، فالحقيقتان العلميتان ليستا متعارضتين إطلاقاً، إذن لا شك ـ انطلاقاً من منطق العلم الحديث ـ في أنّ جميع الخلايا المادّية في الجسم

تتحوّل وتتبدّل بالتدريج، في حين أنّ الإحساس بوحدة الأنا إحساس وجداني لا يقبل الشك، ولهذا نرىٰ أنّ من قطعت يده أو رجله مثلاً لم ينقص عنده شيء من الأنا إطلاقا، في حين أنّه نقص شيء من جسمه، وممّا كان يحمل الروح النباتية والنموّ والتغذّي وتوليد المثل من الخلايا. وممّا يوُضّح إدراك الإنسان بوجدانه وحدة الأنا بالرغم من تبدّل المادّة الجسمية عنده بمرّات عديدة هو أنّ الإنسان يُدين بوجدانه الخائن والمجرم حتّى بعد مضيّ مئة سنة أو أكثر أو أقلّ علىٰ زمان الخيانة والجريمة، ويحكم عليه بحقّ القصاص والمجازاة، وهذا لا يكون إلّا بسبب إدراك الوجدان لوحدة النفس، ولولا النفس لم يكن معنى للحكم بحقّ القصاص والمجازاة بعد تبدل الجسم بكامل خلاياه لمرّات عديدة، فيجب علينا إمّا أن ننكر كلّ الوجدانيات ونصبح مجرّد شكّاكين سوفسطائيّين، أو نعترف باستقلال الأنا عن كامل البدن.

**الثاني ـ تجرّد العلم والعواطف والإرادة :**

نحن نحسّ بالوجدان بتجرّد علمنا وإرادتنا وعواطفنا كالحبّ والبغض، ولا ينافي ذلك تلازماً بين هذه الأُمور ونقوش أو تموّجات أو نحو ذلك في المخّ المادّي نتيجةً للتفاعل الموجود بين النفس والجسم مادامت العلاقة بينهما موجودة والارتباط بينهما محفوظاً، فتلك التبدّلات المخّية إمّا هي مقدّمات لتحقّق العلم والعواطف والإرادة في النفس، وإمّا هي نتائج لتلك، ولا ينافي ذلك تجرّد العلم والعواطف والإرادة، وعندئذٍ نقول: من الواضح أنّ هذه الأُمور بحاجة إلى مصبّ مجرّد، ولا يمكن أن يكون مصبّها الجسم الذي لا مسانخة بينه وبينها، وهذا ما يجعلنا نجد بوضوح نفسنا المجرّدة عن الموادّ، وأعني بذلك الأنا.

**الثالث ـ استحالة انطباق الكبير علىٰ الصغير :**

لو رأينا أرضاً زاهرة تضمّ آلاف الأمتار بأشجارها ونباتاتها وأوراقها وأزهارها وفواكهها وطيورها، وأغصان الأشجار وروائع الأوراد والثمار وغرف شاهقات ومسابح صافية، فنحن نحسّ بوجداننا بحضور مساحة هندسيّة لدينا وبأحجام معينة وسعةٍ طريفة محدّدة، وليس هذا عبارة عن الإحساس بالعين المادّية للمساحة الخارجة عن نفوسنا، والكائنة في محل منفصل عنّا بفاصل أمتار أو أكثر؛ إذ قد بطلت لدى العلماء نظريّة حصول الرؤية بخروج أشعة من العين ووقوعها علىٰ المرئيات الخارجية، وكيف يكون إدراكنا للمرئيات عبارة عن الإدراك المباشر للواقع والحقيقة في حين أنّ الرؤية قد تنفصل عن زمان وجود المرئي، كما في نجم تفتّت وانتهى ثُمّ وصلنا شعاعه الذي تحرّك عنه إلينا بعد آلاف السنين ممّا يبرهن علىٰ أنّ عملية الرؤية ليست مجرّد اتّصال بين الأشعة الصادرة من العين وبين الجسم الخارجي، بل هي وصول أشعة الجسم الخارجي إلى العين ولو بعد انعدام المرئي بآلاف السنين، وعليه فعملية الرؤية بقدر ما هي قضيّة مادّية هي انطباع لأشعّة المرئي في الجهاز العصبيّ المادّي الخاصّ بالباصرة المادّية، وهي صغيرة إلى حدّ يمكن انطباقها علىٰ عدسة العين أو علىٰ الجهاز العصبي أو علىٰ المخّ، ويستحيل أن تمتلك سعة الجسم الخارجي أو المساحة الخارجية وحجمها؛ لاستحالة انطباق الكبير علىٰ الصغير، أمّا المدرَك لنا في وقت الرؤية والمتمتّع بالحجم الهندسي والمساحة الواسعة المناسبة للعين المرئية فليس إلّا أمراً مجرّداً عن المادّة، ومنطبعاً في محلّ غير مادّي وهي النفس، كي لا يلزم انطباق الكبير المادّي علىٰ

الصغير المادّي[١]، ثُمّ تبقى الصورة الفكرية الموسّعة عن تلك المناظر بعد إغماض العين عنها مدّة في الذهن بقدر ما تسمح لها الذاكرة، وهي ما زالت صورة مجرّدة بدليل سعتها الهندسية، وأيضا تحتاج إلى محلّ غير مادّي كي تكون متركّزة ومستوطنة فيه، وليس ذلك إلاّ النفس البشريّة أيضاً.

والخلاصة أنّنا من حقّنا أن نتساءل عن موطن ارتكاز هذا الشكل الواسع ذي الأبعاد الهندسيّة الفسيحة، فهل يعقل أن يكون في محلّ مادّي ضيّق؟ وهل هذه الصورة عبارة عن نقوش أو تغيّرات ضئيلة ضيّقة في المخّ أو العصب أو العدسة مثلا؟ أم كيف انطبق أمر مادّي واسع علىٰ مكان مادّي ضيّق؟! أفلا يعني هذا أنّ صورة هندسيّة واسعة مجرّدة من المادّة تمركزت في نفس غير مادّيّة، وفي ذهننا البشري الفارغ عن الضيق المادّي، أو قل: في الأنا المجرّد؟! وهكذا نجد مرّة أُخرىٰ الأنا المستقلّ عن المادّة وهي النفس الإنسانية حقّاً.

نكتفي بذكر هذا المقدار من الأدلّة العقليّة علىٰ تجرّد النفس وإن كان البحث الفلسفي في ذلك أوسع ممّا ذكرناه بكثير.

❊ ❊ ❊

(١) راجع آخر كتاب فلسفتنا، بحث الإدراك في مفهومه الفلسفي.

# بقاء النفس بعد الموت

يقع البحث عن أنّ موت الجسم بمعنى فناء الروح النباتية فيه ممّا يوجب فساده وتعفّنه وتفسّخه، هل يوجب فناء تلك النفس، أو أنّها تبقى حيّة بعد موت الجسم؟

القرآن صريح في الثاني كما مضى من قوله تعالىٰ: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...**﴾[1]، والمفروض بنا حين نتحدث عمّا بعد الموت أنّنا فرغنا عن إثبات التوحيد والنبوّة والقرآن.

والاعتبار العقلي أيضا يدعم بقاء النفس؛ لأنّ الله تعالىٰ خلق الغرائز الأصيلة في الإنسان لتسييره في الطريق الذي أُريد له، أو للتوفيق بين غرائزه وبين ما أُريد له. فمثلاً من الغرائز الأصيلة في الإنسان: شهوة الأكل والشرب لتسييره إلى حفظ بقائه بهما، وشهوة الجنس الملحّة لتسييره إلى ما أُريد له من التوالد وحفظ جنسه من الانقراض ما دامت الدنيا باقية؛ ولعلّ أشدّ الغرائز الأصيلة علىٰ الإطلاق في الإنسان ـ أو من أشدّها ـ هي غريزة حبّ البقاء، فلولا أنّ الإنسان خلق للبقاء لا للفناء لما أُودعت فيه هذه الغريزة.

أضف إلى ذلك دليلاً آخر علىٰ البقاء وهو مجموع حكم العقل بضرورة عالم الآخرة والجزاء من ناحية، وحكمه باستحالة إعادة المعدوم من ناحية أُخرىٰ، فلو فرضنا فناء النفس بموت البدن وبانعدام الروح النباتية فيه ـ وهي روح النموّ وتوالد الخلايا والتغذّي ـ لما أمكن إرجاعها، ولو لم يمكن إرجاعها استحال له

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٤٢.

الدخول في الآخرة، واستحالة ذلك توجب محذورين عقليين يبدو من القرآن الكريم الإصرار علىٰ التنبيه عليهما:

المحذور الأوّل: أن يكون خلق الإنسان عبثاً؛ فإنّ المفروض بنا أنّنا قد فرغنا من إثبات وجود الله وعلمه وحكمته، وعندئذٍ نقول: كلّ من تقدّم في السنّ في هذه الدنيا يعلم بالتجربة أنّ الحياة الدنيا ـ وبغضّ النظر عن عالم الآخرة ـ إن هي إلّا مجموعة آمال تتبخّر، وآلامٍ تغلب علىٰ اللذائذ، وفجائع تؤلم القلب وشيء من اللهو واللعب: ﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

ولو قايس كلّ واحد منّا في ساعة وفاته بين أن يكون لم يولد ولم يمض عليه كلّ ما مضى، أو يكون قد ولد ومضى عليه كلّ ما كان وها هو الآن يفنى وينعدم وينهدم كلّ ما بنى وقد تحطّمت أكثر آماله، وسيبقى أولاده يعانون في حياتهم شبيها بما عانى هو، وينتهون إلى ما انتهى إليه هو وافترضنا عدم الإيمان بعالم آخر، لرجّح أغلب الناس ـ إن لم يكن جميعهم ـ الأوّل علىٰ الثاني ولو كانوا في ملكهم كسليمان بن داود، فكيف بالناس الاعتياديين والمحرومين الذين أدركوا بالحسّ والوجدان وبشكل واسع مغزى كلمة ﴿فَتَشْقَى﴾[2] التي أوحاها الله تعالىٰ في أوّل يوم إلى أبينا آدم؟! أفلا يعني كلّ هذا أنّ خلقنا في أوّل يوم كان عبثاً؟

ولو طالعنا حياة حيوان قصير العمر يلتهي بتنفّس أيام وانتاج عدد من بني جنسه ثُمّ يموت وينعدم ألا نحسّ بتفاهة حياته ودناءة عالَمه؟ أو ليست حياتنا

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) إشارة إلي قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾. س ٢٠ طه، الآية: ١١٧.

كحياته بفرق امتداد في الزمن مئة مرّة مثلاً، وما هو بمزحزحنا من الفناء أن نعمّر ألف سنة، وبفرق أنّ آلامنا تفوق آلامه بكرّات المرّات؟ أفلا ترىٰ أنّ هذا العبث لا ينتهي إلّا بأن يجد الإنسان طعم الحياة الحقيقية في عالم الآخرة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[١]؟

ثُمّ إنّ الإنسان هو أرقىٰ موجود سخّرت له السماوات والأرض والأفلاك والأملاك والهواء والطيور والحيتان والبهائم والطاقات وسائر النعم، ومع كلّ هذا نرىٰ أنّ الشقاء والتعب لا ينفصلان عن أحد في الغالبية العظمى ـ علىٰ الأقل ـ إن لم يكن في الكلّ، فهل كان كلّ هذا عبثاً ولعباً من المولى سبحانه وتعالىٰ؟!

وتنبيه القرآن الكريم علىٰ هذا الوجه قد ورد متكرّراً كقوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢]. اُنظر كيف ربط الله سبحانه وتعالىٰ نفي العبث بالرجوع إليه، يعني لولا المعاد لكان خلقكم عبثاً، بل وردت هذه الآية في أعقاب آيات الجزاء من الثواب والعقاب حيث قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ

---

(١) س ٢٩ العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٢) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١١٥.

سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(١).

٢ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(٢).

٣ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(٣).

وفي هذه الآية ترىٰ أيضا أنه أعقب ذكر خلق السماوات والأرض بالحق لا باللعب بالتذكير بالمعاد.

٤ ـ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(٤).

وفي هذه الآيات أعقب الله تعالىٰ نفي ترك الإنسان سدىً بذكر القيامة من ناحية، وجعل كلّ هذا تعقيباً علىٰ ذكر الموت وأنّ الموت رجوع إلى الله تعالىٰ من ناحية أُخرىٰ؛ حيث قال سبحانه قبل هذه الآيات: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ *

---

(١) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٠١ ـ ١١٥.

(٢) س ٢١ الأنبياء، الآية: ١٦ ـ ١٨.

(٣) س ١٥ الحجر، الآية: ٨٥.

(٤) س ٧٥ القيامة، الآية: ٣٦ ـ ٤٠.

وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[١].

٥ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[٢].

٦ ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٣].

٧ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤].

وقد ورد في الحديث عن محمّد بن عمارة عن أبيه قال: سألت الصادق جعفر بن محمّدعليه السلام فقلت له: لِمَ خلق الله الخلق؟ فقال: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سدىً، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلّفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرّة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد»[٥].

وورد أيضاً في الحديث: «قال رجل لجعفر بن محمّدعليه السلام: يا أباعبدالله، إنّا خلقنا للعجب! قال: وما ذاك الله أنت[٦]؟ قال: خلقنا للفناء؟ فقال: مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء، وكيف تفنى جنّة لا تبيد ونار لا تخمد؟! ولكن قل إنّما نتحوّل من

---

(١) س ٧٥ القيامة، الآية: ٢٦ ـ ٣٦.
(٢) س ٣٨ ص، الآية: ٢٧.
(٣) س ٤٤ الدخان، الآية: ٣٨ ـ ٤٠.
(٤) س ٣ آل عمران، الآية: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٥) البحار ٥ : ٣١٣، الباب ١٥ من أبواب العدل، الحديث ٢.
(٦) الظاهر أن الصحيح: لله أنت.

دار إلى دار»(١).

المحذور الثاني: لو كان الموت نهايةً للإنسان فأين عدل الله؟

إنّ الحديث عن المعاد مترتّب علىٰ الفراغ من الأُصول الأَوّليّة أي التوحيد والعدل والنبوّة والتكليف، ومن حقّنا أن نستفيد من تلك الأُصول الأَوّليّة لإثبات الأصل الأخير، وعليه نقول: إنّ عدل الله سبحانه وتعالىٰ ـعلىٰ ما يبدو لنا ـ يقتضي حقّانيّة المعاد لوجهين:

أحدهما : الجزاء علىٰ الأعمال، فصحيح أنّ مبدأ المالكيّة والمملوكيّة الحقيقيتين قد لا يُبقي في بعض مراحل الفهم العرفاني مجالاً لاستحقاق الأجر، ولكن مبدأ الاثنينيّة ـولو علىٰ مستوى الوجود الأصيل والوجود التعلّقي بحسب ما ثبت فلسفيّاً ـ يقتضي الأجر، ولا يحتمل بشأنه ـوهو تعالىٰ غنيّ علىٰ الإطلاق ـ التخلّف عن ذلك، ومن الواضح ضيق الدنيا عن هذا الجزاء، ولا سيّما بالقياس إلى المستويات الراقية من أنواع الفداء والإيثار والتضحية والطاعة، وبالمستوى المناسب لشأنه جلّ جلاله، لا المستوى المناسب لنا نحن العبيد

---

(١) المصدر السابق، الحديث ٣.

وقد يقال: لو كان خلق الآخرة لأجل إخراج خلق الدنيا عن العبث فلم لم يقتصر الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ خلق الآخرة دون أن يجعلنا نمرّ علىٰ شقاء الدنيا؟ أفليست الحياة الأُخرويّة التي هي الحَيَوان بعيدة عن العبث واللغو؟ فلو كنّا مخلوقين للآخرة وكان بدؤنا فيها لما كان ذلك عبثا.

والجواب: لم يشأ الله سبحانه لنا أن نقتصر علىٰ السعادة المادّيّة عن طريق العيش في جنّة عرضها السماوات والأرض، بل شاء لنا أيضاً ما هو أكبر من ذلك، ألا وهو الكمال الروحي الذي يستحيل حصوله إلّا علىٰ أساسين: الاختيار والاختبار، فخلق الدنيا لأجل هذين الأمرين.

الخسيسين. أضف إلى ذلك أنّ خلف الوعد القطعي القرآني بمكافأة المؤمنين والمطيعين يقبح عليه تعالىٰ، فيعتبر لوناً من مخالفة العدل.

ثانيهما: إنّ خلق الله جلّ جلاله للعالم وللبشر وللحياة ـ بكلّ ما تزخر بها من أنواع القدرة والاختيار اللذين قامت عليهما مختلف مصاديق العدل والظلم ـ استلزم وقوع الظلم والطغيان من قبل الطغاة علىٰ المظلومين من دون حدّ. وها نحن نشهد هذه الأيام الاستكبار العالمي الذي أثبت بظلمه لأفغانستان ولفلسطين وللعراق وغيرها فقدانه لأقلّ ذرّة من الوجدان والإنسانية، فهل يبقى ذلك بدون تدارك من قبل الحَكَم العدل؟! بل حتّىٰ المصائب والمحن والآلام التي لا تطاق ممّا يقع علىٰ بعض الناس من جرّاء الطبيعة والحياة والأسباب التكوينية، لا نحتمل بشأنه تعالىٰ تركها دون مكافأة فضلا عن ألوان الظلم والطغيان، وعالمنا هذا يضيق عن كلّ هذه المكافآت فلابدّ من عالم آخر يستحيل الوصول إليه لو كان الموت فناءً للنفس؛ وذلك لاستحالة إعادة المعدوم.

ونكتة العدل هذه قد أصرّ القرآن الكريم علىٰ الإشارة إليها في عديد من الموارد بشكل محرّك للوجدان البشري، وموقظٍ إيّاه من السبات نحو قوله تعالىٰ:

١ ـ **﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾**[(١)] علماً بأنّ الآية وردت من بعد الإشارة إلى عذاب الآخرة ونعيمها بقوله تعالىٰ: **﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِين...﴾**.

---

(١) س ٦٨ القلم، الآية: ٣٥ ـ ٣٦.

٢ ـ ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[1].

ومن الطريف في هذه الآية المباركة أنّها متصلة بآية الدليل الأوّل، أعني لزوم العبث في خلق الدنيا، حيث وردت الآية هكذا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[2].

٣ ـ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

وهذه الآية أيضا كما ترىٰ جمعت بين لفت النظر إلى نكتة العدل والجزاء، ولفته إلى أنّه لولا ذلك لما كان خلق السماوات والأرض بالحقّ، بل كان باطلاً وعبثاً.

وهناك اعتبار عقليّ آخر يؤيّد فكرة وجود محكمة العدل الإلهية في يوم القيامة، وهو: أنّنا نرىٰ هنا أنّه لم يُترك كلّ إنسان إلّا وزوّد بمحكمة إلهيّة بين جنبيه، تحكم وتقضي له وعليه بنور الله عزّ وجلّ، ألا وهو الوجدان، اللهمّ إلّا المجرمين الذين أطفؤوا نور وجدانهم بأيديهم بكثرة الإجرام، فكيف يترك هذا العالم المليء بالظلم والطغيان من ناحية، وبالتضحية والفداء والإيثار من ناحية أُخرىٰ، من دون محكمة إلهيّة لا تقبل الخطأ ولا الدجل ولا تدع شكّاً في النفس

---

(١) س ٣٨ ص، الآية: ٢٨.

(٢) س ٣٨ ص، الآية: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) س ٤٥ الجاثية، الآية: ٢١ ـ ٢٢.

تماماً كالمحكمة الصغيرة الموجودة هنا مع كلّ إنسان؟ وواضحٌ أنّ محكمة من هذا النمط لهذا العالم الكبير غير موجودة في الحياة الدنيا، أفلا يعني كلّ هذا أنّ هذه المحكمة هي المعبّر عنها في قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[1]؟

* * *

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ١٣ ـ ١٤.

# مصير النفس في البرزخ بين الموت والبعث

لا سبيل لنا إلى فهم مصير النفس البشريّة المجرّدة عن الجسم والباقية بعد موته ـ كما تقدّم البحث عن ذلك ـ إلّا بالأدلّة النقلية من الكتاب والسنّة، والمستفاد منها أُمور:

## ١ ـ الثواب والعقاب البرزخيّان

صرّح الكتاب الكريم في بعض أقسام الأموات بالمجازاة البرزخية لهم ثواباً أو عقاباً:

أمّا ما دلّ من الكتاب على الثواب فمن قبيل الآيات التالية:

١ ـ **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[1]. فهذه الآية صريحة بشأن الشهداء بتمتّعهم بثواب الله وفضله في عالم البرزخ، وبالرزق الذي يحتمل فيه أن يكون معنوياً بحتاً منسجماً مع تجرّد النفس الذي دلّنا عليه العقل كما مضى، ويحتمل فيه أن يكون له حظّ بسيط شفّاف من المادّية بأن يفترض أنّ النفس تحلّ في عالم البرزخ ببدن مثاليّ وقالب لطيف مشابه لقالب البدن في هذه الدنيا، والله أعلم بالحقيقة.

٢ ـ **﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا**

---

(١) س ٣ آل عمران، الآية: ١٦٩ ـ ١٧١.

مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون﴾[1]. وبالرغم من أنّ محلّ الشاهد هو قوله تعالىٰ: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين﴾ لكنني وجدت نفسي مضطرّاً لنقل هذا المقطع بكامله؛ كي تتّضح صراحة الآية في المطلوب.

والقصّة التي تشير إليها هذه الآيات حسب ما هو المشهور لدىٰ المفسّرين هي قصة رجل يسمّىٰ حبيب النجّار، والدليل علىٰ أنّ قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ...﴾ راجع إلى ما بعد استشهاده لدى تكذيب قومه إيّاه، وبلحاظ ما بعد موته مباشرة وليس بلحاظ عالم القيامة، هو قوله تعالىٰ بعد إخباره عن دخوله الجنّة: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ ...﴾، فإنّ هذا واضح في ارتباطه بالدنيا وبعد موته، فكأنّ الله تعالىٰ يقول بعد أن استشهد الرجل: لم نكن بحاجة في إهلاك قومه إلى إنزال جند من السماء تهلكهم، ولم يكن من عادتنا ذلك، بل كفتهم صيحة واحدة لإهلاكهم وإخمادهم فكأنّهم لم يكونوا. إذن فهذا صريح في أنّ الأمر يخصّ ما بعد استشهاد الرجل ولا يرجع إلى يوم القيامة، فالآية إخبار عن دخوله الجنّة فور استشهاده، وهذا لا يكون إلّا عبارة عن جنّة البرزخ.

وأمّا ما دلّ من الكتاب علىٰ العقاب فمن قبيل الآيات التالية:

١ ـ ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب﴾[2]. فهذه الآية صريحة في عذاب

---

(١) س ٣٦ يس، الآية: ٢٠ ـ ٢٩.

(٢) س ٤٠ غافر، الآية: ٤٥ ـ ٤٦.

البرزخ؛ بدليل أنّها فصّلت بالأخير بين عذاب القيامة والعذاب الأوّل حيث قالت: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ويبدو من الآية المباركة أنّ عذاب البرزخ أهون من عذاب القيامة لشاهدين:

أحدهما : ذيل الآية وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

ثانيهما : تخصيص عرضهم علىٰ النار في البرزخ بالغدوّ والعشيّ مع إطلاق إدخالهم العذاب يوم تقوم الساعة.

وقد يشهد لذلك أيضاً كلمة العرض، فكأنّهم لا يدخلون النار حتّىٰ في الغدوّ والعشي وإنّما يُعرَضون عليها.

إلّا أنّ الذي يبدو لي أنّ العرض هنا من قبيل قولهم: عرضهم علىٰ السيف، بمعنى قتلهم بالسيف لا بمعنى مجرد إراءتهم إيّاه. ويشهد لهذا التفسير قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾[١]، فإنّ حمله علىٰ الإخبار عن المستقبل المحقّق الوقوع خلاف الظاهر، فيبدو أنّ عالم البرزخ ليس مجرد عالم إراءة الأُمور بل فيه جنّة حقيقية ورزق حقيقي ونار حقيقية، وهذا يؤيد احتمال أنّ النفس البشرية ترتبط في البرزخ ببدن برزخي وبمستوى رقيق من مستويات المادّة، والله أعلم بحقيقة الحال.

٢ ـ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٢]، فالذي يظهر لنا من هذه الآية المباركة أنّ عذاب الهون يكون بعد إخراج الأنفس مباشرة والملائكة يبشّرون الظالم به في

---

(١) س ٧١ نوح، الآية: ٢٥.
(٢) س ٦ الأنعام، الآية: ٩٣.

حالة سكرات الموت.

٣ ـ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١].

## هل الثواب أو العقاب البرزخيّان يعمّان جميع المؤمنين أو الفاسقين؟

قد ورد[٢] في الروايات ما يدلّ بإطلاقه علىٰ أنّ الثواب أو العقاب يعمّان في البرزخ جميع المؤمنين والفاسقين، ولا يختصّ بالذين محضوا الإيمان محضاً أو محضوا الكفر محضاً، من قبيل:

١ ـ ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النار»[٣].

٢ ـ ما عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنّة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون: ربّنا أقم الساعة لنا

---

(١) س ٨ الأنفال، الآية: ٥٠.

(٢) قد يدّعى دلالة بعض الآيات علىٰ إطلاق الثواب والعقاب في البرزخ لكلّ الناس من قبيل قوله تعالىٰ في سورة الواقعة (الآية: ٨٣ ـ ٩٤): ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ بدعوى أنّ ظاهرها ثبوت الثواب والعقاب فور خروج الروح، أو أنّ الرَوح والريحان للبرزخ، وجنّة نعيم للآخرة، ونزل من حميم للبرزخ، وتصلية جحيم للآخرة، إلّا أنّ كلّ هذا غير واضح لدينا.

(٣) البحار ٦ : ٢١٨.

وأنجز لنا ما وعدتنا وألحق آخرنا بأوّلنا»[١].

٣ ـ ما عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة تعارف وتساءل، فإذا قدمت الروح علىٰ الأرواح يقول: دعوها فإنّها قد أفلتت من هول عظيم. ثُمّ يسألونها: ما فعل فلان وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيّاً. ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك. قالوا: قد هوى هوى»[٢].

٤ ـ ما عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن أرواح المؤمنين فقال: «في حجرات في الجنّة، يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون: ربّنا أقم الساعة لنا وأنجز لنا ما وعدتنا وألحق آخرنا بأوّلنا»[٣].

إلّا أنّ عدداً من الروايات وردت بشأن المساءلة في القبر، تنصّ علىٰ أنّه لا يسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً والآخرون يلهى عنهم من قبيل:

١ ـ ما رواه أبو بكر الحضرمي قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «لا يسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً والآخرون يلهون عنهم»[٤].

٢ ـ رواية عبدالله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال: «إنّما يسأل في قبره من محض الإيمان محضاً والكفر محضاً، وأمّا ما سوى ذلك فيلهى عنهم»[٥].

٣ ـ صحيحة محمّد بن مسلم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «لا يسأل في القبر إلّا

---

(١) الكافي ٣: ٢٤٤، كتاب الجنائز، باب آخر في أحوال المؤمنين، الحديث ٢.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٤) الكافي ٣: ٢٣٥، باب المسألة في القبر من كتاب الجنائز، الحديث ١.

(٥) المصدر السابق، الحديث ٢.

من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً»[١].

ونحوها غيرها[٢].

وربما يقال: إنّ القرآن الكريم قد أيّد هذه الفكرة؛ حيث صرّح في عدّة موارد بأنّ الكفّار يرون في يوم القيامة أنّهم لم يلبثوا إلّا قليلاً، كساعة من النهار أو يوم أو عشرة أيام، في حين أنّهم لو كانوا في العذاب في عالم البرزخ ولم يكونوا في سبات لأحسّوا بثقل العذاب وطوله، ولما تخيّلوا أنّهم ما لبثوا إلّا قليلاً.

والآيات التي تصرّح بعدم إحساسهم بشيء وبتخيّل عدم مرور الزمان عليهم عديدة من قبيل:

**١ ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾**[٣].

**٢ ـ ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**[٤].

**٣ ـ ﴿وَقَالُوا ءَإِذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُل كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾**[٥].

**٤ ـ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ**

---

(١) المصدر السابق: ٢٣٦، الحديث ٤.

(٢) راجع نفس الباب.

(٣) س ٢٠ طه، الآية: ١٠٢ ـ ١٠٤.

(٤) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١١٢ ـ ١١٤.

(٥) س ١٧ الإسراء، الآية: ٤٩ ـ ٥٢.

فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُون﴾[١].

فهذه الآيات كلّها واضحة في أنّهم كانوا في سبات، ولم يحسّوا بثقل العقاب وبمرور الزمان، أي أنّهم كانوا قبل ذلك في حالة من قبيل حالة الذي أماته الله مئة عام ثُمّ أحياه، أو من قبيل حالة أصحاب الكهف في منامهم؛ إذ ورد نظير هذا التعبير في هاتين القصّتين:

ففي القصّة الأُولى قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ...﴾[٢]. فهذا طبعاً لم يكن المفروض به أن يمرّ بالإحساس بالحياة البرزخية، ولم يحسّ بشيء؛ لأنّه كان في سبات فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وفي القصّة الثانية قال الله تعالىٰ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِـي الْكَـهْفِ سِـنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَـداً * وَكَـذَلِكَ بَـعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...* وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾[٣]. فهؤلاء كانوا في سبات النوم؛ ولهذا لم يحسّوا بالزمان. فالذي يبدو أنّ عـالم البـرزخ أيضا تكون له في الغالب هكذا حالة، فيقول الكافرون في يوم القيامة: لم نلبث إلّا يوماً أو ساعة أو عشرة أيّام.

إلّا أنّ الظاهر هو أنّ تفسير هذه الآيات الراجعة إلى عالم البعث بهذا النحو غير صحيح؛ لأنّها تنظر إلى الكفّار والمجرمين، ومتيقّنها هم الذين محضوا الكفر

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ٥٥ ـ ٥٧. (٢) س ٢ البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٣) س ١٨ الكهف، الآية: ١١ ـ ١٢ و ١٩ و ٢٥.

محضاً، وقد عرفت أنّهم المتيقّن ممّن لهم عذاب البرزخ، كما أنّ الذين محضوا الإيمان محضاً هم المتيقّن ممّن يتنعّمون بثواب البرزخ، وإلّا فأين ذهبت آية عدّ الشهداء أحياءً عند ربّهم يرزقون، أو آية عذاب قوم فرعون في البرزخ؟! وعليه فالظاهر أنّ نظر تلك الآيات الدالّة علىٰ حالة السبات في ما قبل البعث ليس إلى عالم البرزخ، بل النظر إلى ما بين النفختين المتعلّقتين بيوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُون**﴾[١]، والذي يظهر من إطلاق الآية المباركة هو أنّ الصعق الذي يحصل علىٰ أساس النفخة الأُولى يشمل كلّ من في السماوات والأرض بما فيهم الذين ماتوا قبلاً وانتقلوا إلى البرزخ، كما روي ذلك عن الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبدالله عليه السلام: «قال السائل: أفيتلاشىٰ الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باقٍ؟ قال: بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذلك تبطل الأشياء وتفنى فلا حسّ ولا محسوس، ثُمّ أُعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها، وذلك أربع مئة سنة يسبت فيها الخلق، وذلك بين النفختين»[٢].

ويؤيّد فكرة السبات بين النفختين قوله سبحانه وتعالىٰ بشأن الكفّار في يوم القيامة: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيل**﴾[٣]. فتصوّر أنّ الموتين عبارة عن فقداننا للروح حينما كنّا جماداً وعن موتنا في آخر حياتنا الدنيوية، والحياتين عبارة عن حياتنا في الدنيا وبعثنا يوم القيامة، يبدو أنّه تصوّر ساذج؛ لأنّنا قبل الحياة الدنيا لم نمت وإنّما كنّا عادمين الحياة من أوّل الأمر، وهذا لا يصدق عليه عنوان الإماتة. فالظاهر أنّ

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) كنز الدقائق ١١ : ٣٣٧ نقلاً عن الاحتجاج : ٣٥٠، وانظر البحار ٦ : ٢١٧.

(٣) س ٤٠ غافر، الآية: ١١.

المقصود بالموتين موتنا في آخر حياة الدنيا وموتنا لدى النـفخة الأُولى، وأنّ المقصود بالحياتين حياتنا في الدنيا وبعثنا لدى النفخة الثانية، فهذه الآية أيضاً داعمة لفكرة السبات بين النفختين.

أقول: فالمقصود بالآيات التي تحكي عن لسان الكفّار في يوم البعث: أنّهم ما لبثوا إلّا ساعة أو زمناً يسيراً ليست هي الإشارة إلى عالم البرزخ كي ينافي الثواب والعقاب البرزخيين الثابتين بآيات أُخرىٰ، بل هي الإشارة إلى السبات الواقع بين النفختين.

وبهذا يتضح معنىً معقول للاستثناء الوارد في الآية الكريمة عـن الصـعق؛ حيث قالت: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّه﴾**، وتوضيح الكلام في ذلك يبدأ بسؤال عن هذا الاستثناء حيث يقال: كيف يستثنى بعض من الموت؟ أفليس الموت ثابتاً للكلّ؟ ومن هنا جاء الجواب في بعض التفاسير بأنّ هذا استثناء لبعض الملائكة الذين يتأخّر موتهم عن المرّة الأُولى لنفخ الصور كإسرافيل صاحب الصور أو كملك الموت قابض الأرواح. أمّا بناءً علىٰ التفسير الذي قلناه فلا حاجة إلى أصل هذا السـؤال؛ لأنّ مـن لا يصعق يمكن أن يكون من أرواح عالم البرزخ التي ماتت قـبلاً، فـليس هـذا استثناءً من الموت، ويؤيّد ذلك ما ورد من تفسير المستثنون بـالشهداء الذيـن قتلوا في سبيل الله[1].

وهنا نرجع إلى ما كنّا فيه من انقسام الروايات إلى قسمين:

فمنها ما قد يستظهر منه عموم الإحساس بالحياة البرزخية لجميع الأموات.

ومنها ما يستفاد منه اختصاص السؤال في القبر بمن محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً والآخرون يلهىٰ عنهم، فـلو فسّـر الإلهـاء بـالإلهاء

---

(١) كنز الدقائق ١١ : ٣٣٥ نقلاً عن مجمع البيان.

حتّىٰ عن الثواب والعقاب والإحساس بالحياة البرزخيّة وقع التعارض بين الطائفتين.

وهناك ما يمكن أن يفترض شاهد جمع بين الطائفتين من قبيل صحيح ضريس الكناسي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك، ما حال الموحّدين المقرّين بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله من المسلمين المذنبين الذين يموتون وليس لهم إمام ولا يعرفون ولايتكم؟ فقال: أمّا هؤلاء فإنّهم في حفرهم لا يخرجون منها، فمن كان له عمل صالح ولم يظهر منه عداوة فإنّه يخدّ له خدّاً إلى الجنّة التي خلقها الله بالمغرب، فيدخل عليه الروح في حفرته إلى يوم القيامة حتّىٰ يلقى الله فيحاسبه بحسناته وسيّئاته، فإمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار، فهؤلاء الموقوفون لأمر الله. قال: وكذلك يفعل بالمستضعفين والبله والأطفال وأولاد المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم، وأمّا النصّاب من أهل القبلة فإنّه يخدّ لهم خدّاً إلى النار التي خلقها الله في المشرق، فيدخل عليهم اللهب والشرر والدخان وفورة الحميم إلى يوم القيامة، ثُمّ بعد ذلك مصيرهم إلى الجحيم»[1].

فلعلّ هذه الرواية تشهد علىٰ أنّ الذين عبّرت عنهم بتعبير: «فهؤلاء الموقوفون لأمر الله» هم اُولئك الذين عبّرت عنهم الروايات السابقة بتعبير: «يلهىٰ عنهم»، فليس المقصود بالإلهاء عنهم نفي إحساسهم بالحالة البرزخيّة نهائيّاً، بل المقصود هو تركهم من دون سؤال من ناحية، ومن دون إخراج الروح من القبر إلى جنّة البرزخ أو نار البرزخ من ناحية اُخرىٰ، بل يدخل عليهم روح في حفرتهم من جنّة البرزخ ويُتركون هكذا إلى يوم القيامة، ثُمّ يحاسَبون هناك بحسابهم، فإمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار.

---

(١) البحار ٦: ٢٨٦، باب جنّة الدنيا ونارها، الحديث ٧ نقلاً عن تفسير عليّ بن إبراهيم، وانظر البحار ٦: ٢٨٩، نفس الباب، الحديث ١٤ نقلاً عن الكافي، وانظر أيضاً الكافي ٣: ٢٤٧، باب جنّة الدنيا من كتاب الجنائز، الحديث ١.

## ٢ ـ البدن المثالي

إنّ المستفاد من بعض روايات البرزخ هو أنّ النفس تتعلّق بعد سلب البدن الدنيوي عنها بقالب مثالي يشبه القالب المادّي البحت، فتتعارف النفوس فيما بينها بذلك القالب، وبسببه يكون لها حظّ من المادّيّة ليست كمادّيّة البدن المفهومة لدينا هنا، ويتحقّق بذلك أخذ الحيّز والحلول في المكان والتحرّك وما إلى ذلك، ويجري لها ما يجري من الثواب والعقاب أو السؤال والجواب عن طريق القالب المثالي.

وكأنّ الثواب التامّ أو العقاب التامّ للنفس يتوقّف علىٰ امتلاك البدن المادّي التامّ، وبسلب البدن المثالي عنها بالنفخة الأُولى ينسلب عنها ما كان لها من الثواب والعقاب البرزخيين، وببعثها النهائي بالنفخة الثانية وإرجاع البدن المادّي البحت إليها في يوم القيامة يتحقّق لها الثواب التامّ أو العقاب التامّ.

وممّا يدلّ علىٰ هذا البدن المثالي أو القالب البرزخي صحيحة أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك، يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال: لا، المؤمن أكرم علىٰ الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير، ولكن في أبدان كأبدانهم»[١]، ومعتبرة أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّا نتحدّث عن أرواح المؤمنين أنّها في حواصل طيور خضر ترعى في الجنّة وتأوي إلى قناديل تحت العرش، فقال: لا، إذن ما هي في حواصل طير. قلت: فأين هي؟ قال: في روضة كهيئة الأجساد في الجنّة»[٢].

---

(١) الكافي ٣: ٢٤٤، باب آخر في أرواح المؤمنين من كتاب الجنائز، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٥، الحديث ٧.

## ٣ـ ضغطة القبر

إنّ ضغطة القبر هي أوّل شدّة من شدائد البرزخ علىٰ ما يبدو من بعض الأخبار، ففي الحديث عن الصادقعليه‌السلام عن أبائهعليهم‌السلام عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: «ضغطة القبر للمؤمن كفّارة لما كان منه من تضييع النعم»[١].

وفي حديث آخر: «إنّه ليس من مؤمن إلّا وله ضمّة»[٢].

وفي حديث آخر عن عبدالله بن سنان عن الصادقعليه‌السلام «قال: أُتي رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله فقيل له: إنّ سعد بن معاذ قد مات. فقام رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وقام أصحابه معه، فأمر بغُسل سعد وهو قائم علىٰ عضادة الباب، فلمّا أن حنّط وكفّن وحمل علىٰ سريره تبعه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله بلا حذاء ولا رداء، ثُمّ كان يأخذ يمنة السرير مرّة ويسرة السرير مرّة حتّىٰ انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله حتّىٰ لحّده وسوّى اللبن عليه وجعل يقول: ناولوني حجراً، ناولوني تراباً رطباً يسدّ به ما بين اللبن، فلمّا أن فرغ وحثا التراب عليه وسوّى قبره قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: إنّي لأعلم أنّه سيبلى ويصل البلى إليه، ولكن الله يحبّ عبداً إذا عمل عملاً أحكمه. فلمّا أن سوّىٰ التربة عليه قالت أُمّ سعد: يا سعد، هنيئاً لك الجنّة! فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله: يا أُمّ سعد، مَهْ لا تجزمي علىٰ ربّك! فإنّ سعداً قد

(١) البحار ٦ : ٢٢١، الباب ٨ من أبواب الموت وما يلحقه إلى وقت البعث، الحديث ١٦.

(٢) المصدر السابق، الحديث ١٩.

أصابته ضمّة. قال: فرجع رسول الله ﷺ ورجع الناس فقالوا له: يا رسول الله، لقد رأيناك صنعت علىٰ سعد ما لم تصنعه علىٰ أحد، إنّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء. فقال ﷺ: إنّ الملائكة كانت بلا رداء ولا حذاء فتأسّيت بها. قالوا: وكنت تأخذ يمنة السرير مرّة ويسرة السرير مرّة. قال: كانت يدي في يد جبرئيل آخذ حيث يأخذ. قالوا: أمرت بغسله وصلّيت علىٰ جنازته ولحّدته في قبره ثُمّ قلت: إنّ سعداً قد أصابته ضمّة! قال: فقال ﷺ: نعم إنّه كان في خلقه مع أهله سوء»[١].

وفي حديث آخر عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ قال: فقال: نعوذ بالله منها، ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر! إنّ رقيّة لمّا قتلها عثمان وقف رسول الله ﷺ علىٰ قبرها فرفع رأسه إلى السماء، فدمعت عيناه وقال للناس: إنّي ذكرت هذه وما لقيت فرققت لها واستوهبتها من ضمّة القبر. قال: فقال: اللهمّ هب لي رقيّة من ضمّة القبر. فوهبها الله له...»[٢].

وفي صحيحة يونس قال: سألته عن المصلوب يعذّب عذاب القبر؟ قال: فقال: «نعم إنّ الله عزّ وجلّ يأمر الهواء أن يضغطه»[٣].

وهناك روايات كثيرة تبيّن أُموراً تقتضي رفع ضمّة القبر عن الميّت من قبيل:

١ ـ ما ورد عن الصادق عليه السلام: «من مات ما بين زوال الشمس يوم الخميس إلى زوال الشمس من يوم الجمعة أعاذه الله تعالىٰ من ضغطة القبر»[٤].

٢ ـ ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من قرأ سورة النساء في كلّ جمعة أمن

---

(١) المصدر السابق: ٢٢٠، الحديث ١٤.

(٢) الكافي ٣: ٢٣٦، باب المسألة في القبر من كتاب الجنائز، الحديث ٦.

(٣) المصدر السابق: ٢٤١، الحديث ١٦. (٤) سفينة البحار: «قبر».

ضغطة القبر»[١].

٣ ـ ما ورد عن الصادق عليه السلام: «من قرأ (ن والقلم) في فريضة أو نافلة أعاذه الله إذا مات من ضمّة القبر»[٢].

٤ ـ ما ورد في صحيحة منصور بن حازم: «من حجّ أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً»[٣].

وقال المرحوم الشيخ عبّاس القمي رحمه الله في سفينة البحار في مادّة النجف: «من خواصّ تربته إسقاط عذاب القبر، وترك محاسبة منكر ونكير للمدفون هناك كما وردت به الأخبار الصحيحة عن أهل البيت عليهم السلام».

قال رحمه الله: «وروي عن القاضي بن بدر الهمداني الكوفي ـ وكان رجلاً صالحاً ـ قال: كنت في جامع الكوفة ذات ليلة، وكانت ليلة مطيرة، فدقّ باب مسلم جماعة ففتح لهم، وذكر بعضهم أنّ معهم جنازة فأدخلوها وجعلوها علىٰ الصفّة التي تجاه مسلم بن عقيل عليه السلام، ثمّ إنّ أحدهم نعس فرأى في منامه قائلاً يقول لآخر: ما تبعثر[٤] حتّىٰ نبصر هل لنا معه حساب؟ وينبغي أن نأخذه منه عَجَلاً قبل أن يتعدّى الرصافة فما يبقى لنا معه طريق. فانتبه وحكى لهم المنام فقال: خذوه عَجَلاً. فأخذوه ومضوا به في الحال إلى المشهد الشريف»[٥].

وورد بشأن المؤمن بمذهب أهل البيت عليهم السلام عن الصادق عليه السلام: «إذا حيل بينه وبين الكلام أتاه رسول الله صلى الله عليه وآله ومن شاء الله[٦]، فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله عن يمينه

---

(١) المصدر السابق. (٢) المصدر السابق.

(٣) البحار ٩٩: ٢٠، الباب ٢ من أبواب الحجّ والعمرة، الحديث ٧٤.

(٤) بعثر: نظر وفتّش. (٥) سفينة البحار ٨: ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٦) كأنّه كناية عن أمير المؤمنين عليه السلام وحذف الاسم للتقيّة.

والآخر عن يساره، فيقول له رسول الله ﷺ: أمّا ما كنت ترجو فهو ذا أمامك، وأمّا ما كنت تخاف منه فقد أمنت منه. ثُمّ يُفتح له باب إلى الجنّة فيقول: هذا منزلك من الجنّة، فإن شئت رددناك إلى الدنيا ولك فيها ذهب وفضّة. فيقول: لا حاجة لي في الدنيا. فعند ذلك يبيضّ لونه ويرشح جبينه و...، فإذا خرجت النفس من الجسد فيعرض عليها كما عرض عليها وهي في الجسد، فتختار الآخرة، فتغسّله في من يغسّله وتقلّبه في من يقلّبه، فإذا أُدرج في أكفانه ووضع علىٰ سريره خرجت روحه تمشي بين أيدي القوم قُدُماً، وتلقاه أرواح المؤمنين يسلّمون عليه ويبشّرونه بما أعدّ الله له جلّ ثناؤه من النعيم، فإذا وضع في قبره رُدّ إليه الروح إلى وَرِكَيه ثُمّ يسأل عمّا يعلم، فإذا جاء بما يعلم فتح له ذلك الباب الذي أراه رسول الله ﷺ، فيدخل عليه من نورها وضوئها وبردها وطيب ريحها».

قال قلت: جعلت فداك فأين ضغطة القبر؟ فقال: «هيهات ما علىٰ المؤمنين منها شيء، والله إنّ هذه الأرض لتفتخر علىٰ هذه فتقول: وطأ علىٰ ظهري مؤمن ولم يطأ علىٰ ظهرك مؤمن. وتقول له الأرض: والله لقد كنت أُحبّك وأنت تمشي علىٰ ظهري، فأمّا إذا وُلّيتك فستعلم ما أصنع بك فتفسح له مدّ بصره»[١].

## ٤ ـ ارتباط أهل البرزخ بنا

يبدو أنّ عالم البرزخ باعتبار وسطيّته بين عالم الدنيا وعالم الآخرة ليس منقطعاً تمام الانقطاع عن عالم الدنيا، فقد يصل أهل البرزخ شيء من عالمنا وإن

---

(١) أُنظر الكافي ٣: ١٢٩ ـ ١٣٠، باب ما يعاين المؤمن والكافر من كتاب الجنائز، الحديث ٢.

كنّا نحن لانحسّ بوصول شيء إلينا من عالمهم:

فأوّلاً: قد تتفق لمن انتقل إلى البرزخ إمكانية زيارة أهله، كما دلّت علىٰ ذلك صحيحة حفص بن البختري عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «إنّ المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحبّ ويستر عنه ما يكره، وإنّ الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره ويستر عنه ما يحبّ، قال: ومنهم من يزور كلّ جمعة، ومنهم من يزور علىٰ قدر عمله»[(١)].

وثانياً: قد يسمعون صوتنا حينما نكون قريبين من مكان تواجدهم، كما قد يُفهم ذلك من كلام عليّ عليه السلام وقد رجع من صفّين فأشرف على القبور بظاهر الكوفة: «يا أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فَرَط سابق ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سُكنت، وأمّا الأزواج فقد نُكحت، وأمّا الأموال فقد قُسّمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟» ثُمّ التفت إلى أصحابه فقال عليه السلام: «أما لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم: أنّ خير الزاد التقوىٰ»[(٢)].

وقد روى في تفسير پيام قرآن[(٣)] عن رسول الله صلى الله عليه وآله حينما ألقوا أجساد المشركين في معركة بدر في البئر أنّه صلى الله عليه وآله وقف إلى جنب البئر وقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً؟ فإنّي وجدت ما وعدني ربّي حقّاً»، قالوا: يا رسول الله هل يسمعون؟ قال صلى الله عليه وآله: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن اليوم لا يجيبون».

وفي البحار عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه وقف علىٰ قليب بدر ـ يعني بئر بدر ـ فقال

---

(١) الكافي ٣: ٢٣٠، باب أنَّ الميت يزور أهله من كتاب الجنائز، الحديث ١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ١٣٠.

(٣) پيام قرآن ٥ : ٤٥٧.

للمشركين الذين قتلوا يومئذ وقد اُلقوا في القليب: «لقد كنتم جيران سوء لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثُمّ اجتمعتم عليه فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدني ربّي حقّاً»، فقال له عمر: يا رسول الله ما خطابك لهام قد صديت ـ أي ماتت ـ؟ فقال صلى الله عليه وآله له: «مَهْ يا بن الخطاب، فوالله ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع الحديد إلّا أن أعرض بوجهي هكذا عنهم»[1].

وتشهد لذلك روايات التلقين بعد الدفن أيضاً[2].

وكذلك ورد في زيارة القبور عن الصادق عليه السلام: «إذا زرتم موتاكم قبل طلوع الشمس سمعوا وأجابوكم، وإذا زرتموهم بعد طلوع الشمس سمعوا ولم يجيبوكم»[3].

وثالثاً: وصول شيء من الثواب إليهم من هذه الدنيا علىٰ ما نطقت به العديد من رواياتنا[4]، كصحيح الحلبي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته فهي تجري بعد موته، وصدقة[5] مبتولة لا تورث، أو سنّة هدى يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له»[6]، ورواية معاوية بن عمار قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما يلحق الرجل بعد موته؟ فقال: سنّة يعمل بها بعد موته فيكون له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أُجورهم شيء، والصدقة الجارية تجري من بعده،

---

(١) البحار ٦: ٢٥٤ ـ ٢٥٥، الباب ٨ من أبواب الموت وما يلحقه إلى وقت البعث.

(٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٠١ ـ ٢٠٣، الباب ٣٥ من الدفن.

(٣) سفينة البحار: «قبر».

(٤) وسائل الشيعة ١٩، الباب ١ من الوقوف والصدقات.

(٥) كأنها عطف تفسير.

(٦) المصدر السابق: ١٧٢، الحديث ٢.

والولد الطيّب يدعو لوالديه بعد موتهما، ويحجّ ويتصدّق ويعتق عنهما ويصلّي ويصوم عنهما، فقلت: أُشركهما في حجّتي؟ قال: نعم»[١].

فالذي يبدو من مجموعة الأخبار التي أشرنا إليها ضمن هذه الأُمور الثلاثة التي عددناها لارتباط أهل البرزخ بنا يـؤدّي بـنا إلى القـطع نـتيجة التـواتـر المعنوي، أو الاستفاضة المعنوية بأنّ هناك شيئاً من الاتّصال بين عالمنا وعالم البرزخ وإن كان الإحساس به من طرف واحد أي من طرفهم، أمّا من طرفنا فلا يوجد لنا إحساس بذلك، اللهمّ إلّا لأولياء الله الذين هم من أهل الكرامات.

* * *

(١) المصدر السابق: ١٧٢ ـ ١٧٣، الحديث ٤.

# فلسفة البرزخ

ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أنّه قال: «فإنّ الغاية أمامكم، وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم، تخفّفوا تلحقوا، فإنّما ينتظر بأوّلكم آخِركم»[1]. وفي خطبة أُخرىٰ: «فإنّ الناس أمامكم وإنّ الساعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا تلحقوا، فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم»[2].

وخلاصة الكلام في المقام: أنّ الدنيا خلقت لفسح المجال للبشر إلى سلّم الكمال، وإخراجه لما فيه بالقوّة إلى الفعل، وبالتالي يستفيد من كماله هو في عالم الآخرة، وعالم الجزاء الكامل هو عالم ما بعد نفخ الصور، أمّا عالم البرزخ فالذي يتبادر إلى أذهاننا القاصرة والعاجزة عن إدراك حقائق الأُمور بشأنه هو أحد تصوّرات ثلاثة:

إمّا الاحتياج إليه للتدرّج في الانتقال من هذا العالم إلى عالم الآخرة بوصفه واجداً لبعض خصائص هذا العالم وبعض خصائص عالم الآخرة، فكأنّ الإنسان في الغالب لا يستطيع العيش في ذاك العالم الذي يختلف تماماً عن عالمه إلّا بعد المرور بعالم وسط بين العالمين.

وإمّا افتراض أنّ عالم البرزخ وإن كان لا يوجد للإنسان فيه تكامل كبير؛ لأنّ محلّ التكامل وموطن الامتحان للإنسان ـ كي يرىٰ هل يختار سبيل التكامل أو الانحطاط ـ إنّما هي الدنيا، ولكن لا ينافي ذلك وجود شيء من

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٦٧.

التكامل للإنسان المؤمن في عالم البرزخ.

وإمّا الاحتياج إليه لأجل أنّ تحطّم هذه الدنيا وتحقّق يوم القيامة يكون دفعة واحدة، أي إنّ قيامة الجميع متقارنة وليست تدريجية فلابدّ للسابقين في الموت من انتظار اللاحقين، ويتمّ ذلك بواسطة عالم البرزخ.

وهذه الفرضيات الثلاث ليست متنافية، فيمكن صدق الكلّ.

والعبارة التي بدأنا الحديث بنقلها عن أمير المؤمنين عليه السلام دلّت على الاحتمال الثالث حيث قال عليه السلام: «فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم».

وقد عرفت أنّ العبارة متكرّرة مرّتين في نهج البلاغة، مرّة في الخطبة: (٢١)، وأُخرى في الخطبة: (١٦٧) بتغيير يسير، والتغيير إنّما هو في صدر العبارة لا في المقطع الذي كان هو محل الشاهد.

والشريف الرضي رحمه الله حينما نقل العبارة الأُولى قال: إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله بكلّ كلام لمال به راجحاً وبرز عليه سابقاً، فأمّا قوله عليه السلام: «تخفّفوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة وأنقع نطفتها[١] من حكمة.

وقد وردت الإشارة في بعض الروايات إلى ما جعلناه الاحتمال الثاني، وهي رواية حفص قال: «سمعت موسى بن جعفر عليهما السلام يقول لرجل: أتحبّ البقاء في الدنيا؟ فقال: نعم. فقال: ولم؟ قال: لقراءة قل هو الله أحد. فسكت عنه، فقال له بعد ساعة: يا حفص، من مات من أوليائنا وشيعتنا ولم يحسن القرآن علّم في

---

(١) النطفة: ما صفا من الماء. أُنظر مجمع البحرين ٥: ١٢٥، وكتاب العين ٧: ٤٣٦. وما أنقع هذا الماء أي: ما أرواه من عطش.

قبره ليرفع الله به من درجته؛ فإنّ درجات الجنّة علىٰ قدر آيات القرآن، يقال له: إقرأ وارق، فيقرأ ثمّ يرقى. قال حفص: فما رأيت أحداً أشدّ خوفاً علىٰ نفسه من موسى بن جعفر عليه السلام ولا أرجأ الناس منه، وكانت قراءته حزناً فإذا قرأ فكأنّه يخاطب إنساناً»[١].

أمّا الاحتمال الأوّل فلم أرَ نصّاً يدلّ عليه، إلّا أنّه حدسٌ يحدس.

❊ ❊ ❊

(١) الكافي ٢: ٦٠٦، باب فضل حامل القرآن من كتاب فضل القرآن، الحديث ١٠.

# ختم الكلام

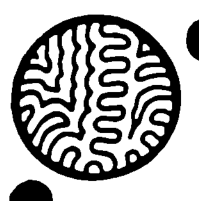
وهنا نختم حديثنا عن البرزخ بذكر هذه الرواية عن سعيد بن المسيّب قال: كان عليّ بن الحسين صلوات الله عليه يعظ الناس ويزهّدهم في الدنيا ويرغّبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كلّ جمعة في مسجد الرسول ﷺ، وحفظ عنه وكتب، كان يقول: «أيّها الناس، اتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه ترجعون، فتجد كلّ نفس ما عملت في هذه الدنيا من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء، تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسه. ويحك ابن آدم الغافل وليس بمغفول عنه! ابن آدم، إنّ أجلك أسرع شيء إليك، قد أقبل نحوك حثيثاً يطلبك ويوشك أن يدركك، وكأن قد أُوفيت أجلك وقبض الملك روحك وصرت إلى منزل وحيداً فردّ إليك فيه روحك، واقتحم عليك فيه ملكاك: منكر ونكير لمساءلتك وشديد امتحانك، ألا وإنّ أوّل ما يسألانك عن ربّك الذي كنت تعبده، وعن نبيّك الذي أُرسل إليك، وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوه، وعن إمامك الذي كنت تتولّاه، ثُمّ عن عمرك في ما أفنيته؟ ومالك من أين اكتسبته؟ وفي ما أتلفته؟ فخذ حذرك وانظر لنفسك، وأعدّ للجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار، فإن تك مؤمناً تقيّاً عارفاً بدينك متّبعاً للصادقين موالياً لأولياء الله لقّاك الله حجّتك، وأنطق لسانك بالصواب فأحسنت الجواب، فبشّرت بالجنّة والرضوان من الله والخيرات الحسان، واستقبلتك الملائكة بالروح

والريحان، وإن لم تكن كذلك تلجلج لسانك ودحضت حجّتك، وعميت عن الجواب، وبشّرت بالنار، واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم[١]. فاعلم ابن آدم : إنّ من وراء هذا ما هو أعظم وأفظع وأوجع للقلوب يوم القيامة، ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود...»[٢].

---

(١) إلى هنا ورد في البحار ٦ : ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

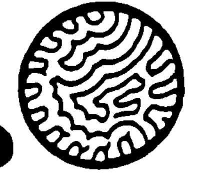
(٢) والحديث طويل، أُنظر البحار ٧٨ : ١٤٣ ـ ١٤٦.






# المعاد

- ١ ـ نفخة الصور الأُولىٰ.
- ٢ ـ نفخة الصور الثانية والمعاد الجسماني.
- ٣ ـ الحساب.
- ٤ ـ سوق الكفّار والمؤمنين إلى مثواهم الأخير.
- خاتمة في الشفاعة.
- ختامه مسك.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

يظهر لنا من هذه الآيات المباركات تسلسل مراحل يوم القيامة إلى أربع مراحلٍ نذكرها واحدة بعد أُخرىٰ، وبعد ذلك نتعرّض إلى مسألة الأعراف.

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٨ ـ ٧٥.

# ١ ـ نفخة الصـور الأُولـىٰ

المرحلة الأُولى لمراحل عالم الآخرة أو يوم القيامة هي نفخة الصور الأُولى، وقد مرّ بنا استظهار كونها مرحلة الموت الثانية للبشر، فالموت الأوّل عبارة عن موت البدن الدنيوي ومع بقاء النفس أو الروح حيّة حسّاسة تحسّ بعالم البرزخ وما فيه من ثواب أو عقاب، والموت الثاني عبارة عن موت الروح أو النفس لا بمعنى الفناء المطلق الذي يوجب فلسفياً استحالة إعادتها، بل بمعنى الوقوع في حالة السبات الكامل وانتهاء ثواب البرزخ أو عقابه أو أيّ إحساس فيه، ويستثنىٰ من هذا السبات من شاء الله كالشهداء.

والظاهر أنّ هذا هو المقصود بالصعق في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ﴾(١)، كما أنّ الظاهر أنّ هذا هو المقصود بالموتة الثانية التي صرّح بها القرآن الكريم في موردين:

أحدهما: قوله تعالىٰ عن لسان الكفّار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾(٢).

ثانيهما: قوله تعالىٰ عن لسان المؤمنين بعد أن يسكنوا الجنّة ويشرفوا علىٰ جهنّم ليخاطب كلّ واحد منهم صاحبه الذي سكن النار: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾(٣)،

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٨.
(٢) س ٤٠ غافر، الآية: ١١.
(٣) س ٣٧ الصافّات، الآية: ٥٥ ـ ٥٧.

وهنا يقول الله تعالىٰ عن لسان المؤمنين ضمن خطابهم هذا للكفّار والمشركين: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1].

وهذا البحث بحاجة فلسفيّاً إلى إثبات الثنائية بين النفس والبدن وإثبات تجرّد النفس، وقد مرّ كلّ هذا في ضمن الأبحاث السابقة فلا حاجة إلى إعادته.

* * *

(١) س ٣٧ الصافّات، الآية: ٥٨ ـ ٥٩.

# ٢ ـ نفخة الصـور الثانية والمعاد الجسماني

المرحلة الثانية لمراحل عالم الآخرة أو يوم القيامة هي نفخ الصور الثانية: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١]، وبها يتمّ أمران: أحدهما: إنهاء السبات للنفس واستعدادها للثواب والعقاب، وثانيهما: إعادة البدن أيضاً، ويسمّى هذا بالمعاد الجسماني، والبحث الفلسفي المرتبط بهذه المرحلة بحثان:

أحدهما: إثبات بقاء النفس أو الروح. وهذا ما مرّ في ضمن الأبحاث السابقة، ولا حاجة إلى الإعادة.

ثانيهما: إبطال استبعاد المعاد الجسماني والذي هو صريح القرآن.

والواقع أنّ الاستبعاد الذي قد يؤدّي إلى إنكار المعاد الجسماني في أقوى وجوهه أحد أمرين:

### ١ ـ شبهة الآكل والمأكول:

إنّ شبهة الآكل والمأكول مبنيّة علىٰ تخيّل اشتراط رجوع كلّ من الآكل والمأكول بكامل بدنه، في حين أنّ النسبة بين بدن الآكل وبدن المأكول تكون عادة عموماً من وجه.

ولكن لا مبرّر لاشتراط رجوع كلّ منهما بكامل بدنه السابق ولا دليل علىٰ ذلك، فبإمكانه سبحانه وتعالىٰ إرجاع قسم من موادّ البدن وتنميتها أو صياغتها

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٨ ـ ٦٩.

إلى بدن كامل للآكل وبدن كامل للمأكول، والأدلّة اللفظية لم تدلّنا علىٰ أكثر من ذلك، بل بالإمكان تصوير ذلك حتّىٰ لو فرضت وحدة بدنهما بأن يصبح تمام بدن الآكل هو تمام بدن المأكول، علىٰ أنّ هذا الفرض مجرّد وهم وخيال.

**٢ ـ شبهة لزوم رجوع ما بالفعل إلى القوّة:**

إنّ شبهة لزوم رجوع ما بالفعل إلى القوّة من المعاد الجسماني قائمة علىٰ أساس تصوّر أنّ الموت كمال للإنسان باعتبار تحوّله بذلك من مرحلة شوب المادّة إلى مرحلة التجرّد البحت، وأنّ خلق الله سبحانه وتعالىٰ إيجاد لما يتحرّك بالحركة الجوهرية من النقص إلى الكمال، فما معنى رجوع الكامل مرّة أُخرىٰ إلى النقص؟! وهل يعقل رجوع ما تكامل بخروج القوّة إلى الفعل إلى القوّة مرّة أُخرىٰ؟!

ولعلّ هذه الشبهة أقوى فلسفيّاً من الشبهة الأُولى.

إلّا أنّ هذه الشبهة أيضاً لا محلّ لها؛ فإنّ الموت لو كان عبارة عن تحوّل البدن إلى مستوى التجرّد، وكان التجرّد الكامل للإنسان بالموت بمعنى أنّ الإنسان أصبح بكلّ مراتبه مجرّداً بعد أن كان مزيجاً من مرتبة المادّة ومرتبة الروح أو النفس، لكان لهذه الشبهة مجال، ولكن هذا باطل بدليلين:

**الأوّل:** إحساسنا بأنّ البدن لم يتحوّل بحركة جوهرية إلى الروح أو النفس، وإنّما انفصل عن الروح أو النفس وأصبح فاسداً.

**الثاني:** ما مضى سابقاً من بعض البراهين علىٰ تجرّد الأنا وبها تثبت أيضاً بساطته، ولهذا نرىٰ أنّ الأنا لا ينقسم إلى قسمين أو عدّة أقسام بمجرّد تقطيع البدن إلى قطعتين أو عدّة قطعات، فالبدن إذن ليس جزءاً من الأنا أو مرتبةً منه وإنّما هو أمانة من قبل الله تعالىٰ بيد الأنا كي يكون في خدمته، والموت عبارة

عن تجريد الأنا من الأمانة التي أُعطيت إيّاه، والإحياء عبارة عن إرجاع الأمانة إليه مرّة أُخرىٰ.

والغفلة عن هذه النكتة هي التي جعلت المجرمين لا يتوقّعون أن يُختم علىٰ أفواههم وتكلّم الله أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[١]؛ ولهذا يعترضون في يوم القيامة علىٰ أعضائهم كما يتحدّث عنهم القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٢]. أمّا بعد الالتفات إلى هذه النكتة فيصبح إمكان شهادة الجلود والأعضاء لله علىٰ الإنسان من الواضحات؛ فإنّ البدن مخلوق مطيع لله يجعله الله تعالىٰ في خدمة النفس حينما يريد، ويسلخه عن خدمتها حيناً آخر.

وبالالتفات إلى هذه النكتة ينعدم تماماً الإشكال الذي عرفته علىٰ المعاد الجسماني.

### العقليّة الماديّة المستبعدة للمعاد الجسماني :

بعد ما اتضح بطلان الشبهتين المتقدّمتين في المعاد الجسماني يبقى مجرّد استبعاد المعاد الجسماني، وهذا الاستبعاد ينتج من العقليّة المادّية التي يصعب عليها تصوّر إعادة الحياة بعد الموت، وهي تكون بأحد شكلين:

**الأوّل** : العقلية التي قد لا تفهم الحياة إلّا بمعنى الروح النباتية التي تنعدم بالموت، ويستبعد الإنسان المادّي إيجادها مرّة أُخرىٰ من الجسم الذي مات.

---

(١) إشارة إلى الآية ٦٥ من سورة ٣٦ يس.

(٢) س ٤١ فصّلت، الآية: ٢١.

الثاني: العقلية التي قد يكون لها نوع تصوّر إجمالي عن النفس، ولكنها تستبعد علىٰ أيّة حال إرجاعها إلى الجسم الذي مات.

ومن هنا نرىٰ القرآن الكريم قد أعدّ تنظيرين في آياته لتقريب المعاد: أحدهما أنسب بالردّ علىٰ العقلية الأُولى، والثاني أنسب بالردّ علىٰ العقلية الثانية.

أمّا ما يناسب الردّ علىٰ العقلية الأُولى فهو التنظير بالأرض والأشجار والنباتات التي تموت في الخريف والشتاء، وتحييٰ مرّة أُخرىٰ في الربيع، وذلك من قبيل قوله تعالىٰ:

**١ ـ ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾**[1].

**٢ ـ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوج﴾**[2].

**٣ ـ ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُون﴾**[3].

**٤ ـ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾**[4].

**٥ ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾**[5].

**٦ ـ ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُور﴾**[6].

---

(١) س ٣٠ الروم، الآية: ٥٠.
(٢) س ٥٠ ق، الآية: ١١.
(٣) س ٣٠ الروم، الآية: ١٩.
(٤) س ٢٢ الحج، الآية: ٥ و ٦.
(٥) س ٤١ فصّلت، الآية: ٣٩.
(٦) س ٣٥ فاطر، الآية: ٩.

٧ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾(١).

وأمّا ما يناسب الردّ علىٰ العقلية الثانية فهو تنظير إرجاع النفس إلى الجسد بنفخها في الجسد أوّل مرّة، من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(٢).

٢ ـ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم﴾(٣).

٣ ـ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِر﴾(٤).

٤ ـ ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ ءَإِذا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾(٥).

## إثبات المعاد الجسماني :

قد يدّعي بعض ـ علىٰ العكس تماماً من شبهات المنكرين ـ أنّ العقل يدرك ضرورة المعاد الجسماني؛ لأنّ الإنسان لا يتكامل إلّا بجنبتيه: جنبة النفس وجنبة البدن، وسواءٌ فسّرناهما بمعنى شخصية واحدة مركّبة من المادّة وما فوق

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ٥٧.
(٢) س ٧٥ القيامة، الآية: ٣٧ ـ ٤٠.
(٣) س ٣٦ يس، الآية: ٧٨ ـ ٧٩.
(٤) س ٨٦ الطارق، الآية: ٥ ـ ٨.
(٥) س ١٩ مريم، الآية: ٦٦ ـ ٦٧.

المادّة، أو بمعنى شخصية واحدة ذات مرتبتين، أو بمعنى أنّ الجسم جُعل في خدمة النفس، لا إشكال في أنّ النفس تصل إلى نبذة مهمّة من اللذائذ أو الآلام عن طريق البدن، فلكي يكتمل الثواب والعقاب في يوم القيامة لابدّ من إرجاع هذا الائتلاف الذي كان محفوظاً بينهما في الدنيا في يوم القيامة[١].

إلّا أننا لا نعير أهميّة لهذا البيان إلّا بمقدار افتراضه اعتباراً عقلياً ولا يصل إلى مستوى البرهان.

والمهم عندنا في إثبات المعاد الجسماني هو تصريح القرآن الكريم به بشكل لا يقبل الشكّ أبداً، وذلك في آيات كثيرة منتشرة في القرآن، من قبيل قوله تعالىٰ:

١ ـ **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم﴾**[٢].

٢ ـ **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه﴾**[٣].

ومن الطريف الإشارة الموجودة في هذه الآية إلى قدرة الله علىٰ إعادة ما هو من أطرف شيء في جسم الإنسان، ألا وهي خطوط البنان التي لا يشبه فيها إنسان إنساناً آخر علىٰ الإطلاق.

٣ ـ **﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُور﴾**[٤].

٤ ـ **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُون﴾**[٥].

---

(١) راجع پيام قرآن ٥ : ٣٣٤ ـ ٣٣٥.
(٢) س ٣٦ يس، الآية: ٧٨ ـ ٧٩.
(٣) س ٧٥ القيامة، الآية: ٣ ـ ٤.
(٤) س ٢٢ الحج، الآية: ٧.
(٥) س ٣٦ يس، الآية: ٥١.

ونحو هاتين الآيتين ممّا يشهد للخروج من القبر، فإنّ هذا إشارة إلى خروج البدن.

٥ ـ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾(١).

٦ ـ ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾(٢).

٧ ـ ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾(٣).

ونحو هذه الآيات الثلاث ممّا يشهد للخروج من التراب، فإنّ هذا إشارة إلى خروج البدن.

٨ ـ الآيات التي تجعل النشور في يوم القيامة من قبيل إحياء النباتات والأراضي في الربيع من بعد موتها في الخريف، وقد مضى بعضها، ومن الواضح أنّ هذا إحياء للمادّة.

٩ ـ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٤).

١٠ ـ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥).

١١ ـ ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٦).

فإنّ هذه الآيات صريحة في الثنائية بين أنفسهم وأبدانهم في يوم القيامة، وشهادة أعضائهم علىٰ أنفسهم آنذاك، وهذا لا يكون إلّا بمعاد الجسم.

---

(١) س ٢٠ طه، الآية: ٥٥.

(٢) س ٧١ نوح، الآية: ١٧ ـ ١٨.

(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ٢٥.

(٤) س ٣٦ يس، الآية: ٦٥.

(٥) س ٢٤ النور، الآية: ٢٤.

(٦) س ٤١ فصّلت، الآية: ٢٠ ـ ٢١.

# ٣ ـ الحساب

المرحلة الثالثة لمراحل عالم الآخرة أو يوم القيامة هي مرحلة الحساب وهي تتمثّل في الكتاب والشهادة والميزان:

## الكتاب

إنّ الآية التي بدأنا بها الحديث عن المعاد أشارت بعد ذكر النفختين إلى وضع الكتاب، وقد تكرّرت الإشارة إلى الكتاب في آيات أُخرىٰ أيضاً كقوله تعالىٰ: **﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾**(١).

وقيل: إنّ الكتُب في يوم القيامة ثلاثة أو أكثر(٢):

**أوّلها وأشهرها على الألسن عندنا:** الكتاب المخصوص بكلّ أحد، وقد نصّ عليه القرآن في بعض الآيات ولعلّه الظاهر من مثل:

١ ـ قوله تعالىٰ: **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾**(٣).

قيل: إنّ العرب كانوا يتفاءلون ويتطايرون ببعض أقسام الطير، فلعلّ الآية الكريمة أشارت إلى خرافية هذه العقيدة بالنسبة للطيور، وأنّ الطير اليُمن أو الشؤم إنّما هو عملك، وهو ملتزم بعنقك ولا ينفكّ منك حتّىٰ يخرجه الله تعالىٰ

---

(١) س ١٨ الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) راجع پيام قرآن ٦ : ١١٠ ـ ١١١.

(٣) س ١٧ الإسراء، الآية: ١٣ ـ ١٤.

في يوم القيامة كتاباً منشوراً، ويكون الكتاب واضحاً جليّاً غير قابل للإنكار أو النقاش، وغير محتاج إلى القراءة والتفسير من قبل شخص آخر، بل أنت تقرأه وتحاسب نفسك به، وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، ونظيره ما جعله الله في الدنيا بين جنبيك ـ وإن لم يكن بذلك المستوى من الوضوح ـ من قوّة الذاكرة من ناحية، والضمير أو الوجدان من ناحية أُخرىٰ، فهما بمجموعهما يُقرئانك كثيراً من جزئيّات أعمالك، ويحاسبانك عليها ولا ترىٰ لنفسك سبيلاً إلى الإنكار.

وفي الحديث عن خالد بن نجيح عن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة دُفع إلى الإنسان كتابه ثُمّ قيل له: اقرأ. قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: إنّ الله يذكّره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلّا ذكره كأنّه فعله تلك الساعة، ولذلك قالوا: ﴿**يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾»[1].

والكلمة التي تشدّد في الآية المباركة التشويش والحزن والأسى علىٰ الذهن هي كلمة ﴿**يَلْقَاهُ مَنشُوراً**﴾؛ إذ يوجد فيها احتمال كون المقصود منشوراً بالنشر العلني، فيوجب الفضيحة علىٰ الملأ بسيئات أعمالنا إلّا من رحم الله، حيث ينهتك السر المرخى علينا في هذه الدنيا، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ**﴾[2].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[3].

قيل: إنّ الرقيب يقصد به ملك اليمين، والعتيد يقصد به ملك الشمال، ولكن الأقوى القول الآخر وهو أنّهما وصفان لكلّ واحد منهما، فكلّ واحد منهما

---

(١) البحار ٧: ٣١٥، الباب ١٦ من أبواب المعاد وما يتبعه ويتعلّق به، الحديث ١٠.

(٢) س ٨٦ الطارق، الآية: ٩ ـ ١٠. (٣) س ٥٠ ق، الآية: ١٧ ـ ١٨.

يراقب الإنسان وأعماله، وكلّ واحد منهما جاهز للتسجيل والتثبيت.

وروي عن جابر عن الباقر عليه السلام قال: «سألته عن موضع الملكين من الإنسان قال: ها هنا واحد وها هنا واحد. يعني عند شدقيه»[١].

وعن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «اعلموا عباد الله أنّ عليكم رصداً من أنفسكم وعيوناً من جوارحكم وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج»[٢].

وورد في الحديث: «إنّ صاحب اليمين أمير علىٰ صاحب الشمال، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، وإذا عمل سيّئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين: أمسك. فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر الله كتبت له سيّئة واحدة»[٣].

وفي دعاء كميل: «فَأَسْأَلُكَ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي قَدَّرْتَهٰا، وَبِالْقَضِيَّةِ الَّتِي حَتَمْتَهٰا وَحَكَمْتَهٰا وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أَجْرَيْتَهٰا: أَنْ تَهَبَ لِي فِي هٰذِهِ اللَّيْلَةِ وَفِي هٰذِهِ السّٰاعَةِ كُلَّ جُرْمٍ أَجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ قَبِيحٍ أَسْرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ أَوْ أَعْلَنْتُهُ، أَخْفَيْتُهُ أَوْ أَظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتَ بِإِثْبٰاتِهٰا الْكِرٰامَ الْكٰاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ مٰا يَكُونُ مِنِّي وَجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوٰارِحِي، وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِن وَرٰائِهِمْ، وَالشّٰاهِدَ لِمٰا خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَه».

---

(١) البحار ٥ : ٣٢٢، الباب ١٧ من أبواب العدل، الحديث ٤. والشدق: زاوية الفم من باطن الخدّين.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

(٣) البحار ٥ : ٣٢١، الباب ١٧ من أبواب العدل.

٣ ـ قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾**(١).

يحتمل أن يكون المقصود بالحفظ حفظ الأعمال، ويحتمل أن يكون المقصود الحفظ من الآفات كما يفهم من قوله تعالىٰ: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ﴾**(٢)، وعلىٰ الاحتمال الثاني فنفس الملائكة الحفظة للإنسان من الآفات والعثرات هم الكاتبون أيضا للأعمال.

وفي الحديث عن إسحاق بن عمّار قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أخبرني بأفضل المواقيت في صلاة الفجر. فقال: مع طلوع الفجر، إنّ الله تعالىٰ يقول: **﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾**(٣) يعني صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فإذا صلّى العبد الصبح مع طلوع الفجر اُثبتت له مرّتين، أثبتها ملائكة الليل وملائكة النهار»(٤)، وهذا يعني أنّ ملائكة الليل وملائكة النهار تتعاقبان في وقت الفجر، وكلّ منهما تثبّت ما ترىٰ، وبالتالي تثبّت صلاة الصبح التي تؤدّىٰ في أوّل وقتها مرّتين. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ ملائكة الليل تصعد وملائكة النهار تنزل عند طلوع الفجر، فأنا اُحبّ أن تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار صلاتي»(٥).

٤ ـ قوله تعالىٰ: **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا**

---

(١) س ٨٢ الانفطار، الآية: ١٠ ـ ١٢.

(٢) س ١٣ الرعد، الآية: ١١.

(٣) س ١٧ الإسراء، الآية: ٧٨.

(٤) البحار ٥ : ٣٢١، الباب ١٧ من أبواب العدل، الحديث ٢، وانظر الوسائل ٤: ٢١٢، الباب ٢٨ من أبواب المواقيت، الحديث ١.

(٥) أُنظر وسائل الشيعة ٤: ٢١٣ ـ ٢١٤، الباب ٢٨ من أبواب المواقيت، الحديث ٣.

دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾[١].

وقد ورد عن عبدالله بن غسيل الملائكة حنظلة تفسير هذه الآية: بأنّ من أُوتي كتابه بيمينه تكتب له سيئاته في ظهر الكتاب فلا يطّلع عليها غيره، ويثق بأنّ المكشوف للناس كلّه حسنات؛ ولهذا يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهْ﴾[٢].

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً﴾[٣].

ويظهر من قوله تعالىٰ: ﴿حِسَاباً يَسِيراً﴾ أنّ المحاسبة علىٰ السيّئات لابدّ منها ولو كان صاحبها من المؤمنين ومن المغفورين له، إلّا أنّ الحساب سيكون عندئذٍ حساباً يسيراً وبلطف ومغفرة.

ويظهر من الجمع بين هذه الآية والآية السابقة أنّ الذي يؤتىٰ كتابه وراء ظهره هو الذي يؤتى كتابه بشماله، ولا نعلم هل هذا يعني أنّ المجرم هو الذي يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره بعمد والتفات، خجلاً ممّا في الكتاب وحذراً من الفضيحة باطّلاع الناس علىٰ ما في الكتاب؟ أو يعني أنّ الله تعالىٰ قد شدّ شماله بوراء ظهره؟ أو أنّ رأسه قد ركّب بالشكل الذي يكون وجهه إلى جهة ظهره؟ نعوذ بالله من كلّ ذلك.

ثانيها: الكتاب الجامع لكلّ أُمّة؛ فكأنّ هناك كُتباً بعدد الأُمم من الناس ومن غير الكتب الشخصية، وقيل: إن هذا يستفاد من بعض الآيات كقوله تعالىٰ:

---

(١) س ٦٩ الحاقّة، الآية: ١٩ ـ ٢٩. (٢) پيام قرآن ٦ : ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) س ٨٤ الانشقاق، الآية: ٧ ـ ١٢.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾[(١)].

وكلمة الاستنساخ توحي إلى أذهاننا أحد معنيين:

إمّا أخذ النسخة من أعمالنا شبيهاً بصور التلفاز، أو الإشعاعات النوريّة التي تنفصل عن أجسامنا وتبقى تتحرّك وتنفذ حتّىٰ بعد فرض انعدام الجسم. وإمّا جمع الآثار التي تخلّف أعمالنا في ما حوالينا شبيهاً بطبعة بصمات الأصابع، وآثار كلّ الانصدامات التي تتحقّق بين أجسامنا وما حوالينا، بل وحتّىٰ التي تتحقّق بين الهواء ومخارج الحروف في حالة النطق، وكلّ هذا يؤخذ فيه بعين الاعتبار ضيق نظرنا وقصور تصوّراتنا عن النفوذ إلى أكثر ممّا هو محصور في عوالم الحسّ الدنيوي لنا.

وقد يضاف إلى تصوّر الكتاب لكلّ أُمّة تصوّر كتاب لمجموع الأبرار، وكتاب آخر لمجموع الفجّار استلهاماً من قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُوم﴾[(٢)]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُون﴾[(٣)].

ثالثها: كتاب عامّ لجميع الناس، وهذا ما قد يستظهر من مثل قوله تعالىٰ في الآية التي بدأنا بها حديث المعاد: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَاب﴾[(٤)]، أو آية سورة الكهف: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[(٥)]، أو قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِين﴾[(٦)].

---

(١) س ٤٥ الجاثية، الآية: ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) س ٨٣ المطفّفين، الآية: ٧ ـ ٩.
(٣) س ٨٣ المطفّفين، الآية: ١٨ ـ ٢١.
(٤) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٩.
(٥) س ١٨ الكهف، الآية: ٤٩.
(٦) س ٣٦ يس، الآية: ١٢.

# الشهادة

إنّ المقدار المشار إليه من الشهود في القرآن الكريم أُمور عديدة من قبيل:

١ ـ الله جلّ جلاله.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُون﴾[١].

٢ ـ الأنبياء عليهم السلام.

قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً﴾[٢]، وقد احتمل في هذه الآية المباركة تفسيران:

أحدهما: أنّ كلّ نبيّ هو شهيد علىٰ أُمّته، والمرجع لاسم الإشارة في قوله ﴿عَلَى هَـؤُلاء﴾ هم أُمّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولعلّ وجه شهادة النبيّ علىٰ أُمّته رغم غيابه الظاهري عنهم بعد موته هو عرض أعمال الأُمّة عليه في كلّ أُسبوع أو أقلّ أو أكثر، أو لعلّ له حضوراً في الأُمّة حتّىٰ بعد موته بمستوى لا ندركه نحن.

ثانيهما: أنّ كلّ نبيّ شهيد علىٰ أُمّته، ونبيّنا صلى الله عليه وآله شاهد علىٰ الأنبياء بحضور له في مستوى الرسالة والنبوّة لا ندركه نحن، فيكون المرجع لاسم الإشارة هم الأنبياء.

ويظهر من بعض الآيات أنّ محاسبة كلّ أُمّة يكون بإشراف نبيّها قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ

---

(١) س ١٠ يونس، الآية: ٤٦.

(٢) س ٤ النساء، الآية: ٤١.

لَا يُظْلَمُون﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾[٢].

٣ ـ الملائكة.

قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد﴾[٣].

٤ ـ الأعضاء والجلود.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُون﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾[٦].

وقد ورد في بعض الأحاديث: «إذا جمع الله الخلق يوم القيامة دفع إلى كلّ إنسان كتابه، فينظرون فيه فينكرون[٧] أنّهم عملوا من ذلك شيئاً، فيشهد عليهم الملائكة، فيقولون: يا ربّ، ملائكتك يشهدون لك. ثُمّ يحلفون أنّهم لم يعملوا من ذلك شيئاً وهو قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُم﴾[٨]،

---

(١) س ١٠ يونس، الآية: ٤٧.

(٢) س ٣٩ الزمر، الآية: ٦٩.

(٣) س ٥٠ ق، الآية: ٢٠ ـ ٢٣.

(٤) س ٢٤ النور، الآية: ٢٤.

(٥) س ٤١ فصّلت، الآية: ٢٠ ـ ٢٢.

(٦) س ٣٦ يس، الآية: ٦٥.

(٧) أي: بعضهم.

(٨) س ٥٨ المجادلة، الآية: ١٨.

فإذا فعلوا ذلك ختم علىٰ ألسنتهم، وينطق جوارحهم بما كانوا يكسبون»[(١)].

وهنا يأتي سؤال وهو: أنّ الذي ينكر ما شهدت عليه الملائكة ويكذّبهم ينكر ما شهدت عليه الأعضاء أيضا ويكذّبها، فأيّ فرق بينهما؟

ولكن الواقع أنّنا لا نعلم بالدقّة طريقة شهادة الشهود ومنها شهادة الجوارح، فلربّ بعض الشهادات أوضح من بعض وأبعد من قابلية الإنكار، كما هو الحال في هذه الدنيا من قبيل ما نرىٰ من أنّ شهادة الصورة التلفازية أبعد عن قبول الإنكار من شهادة البيّنة العادلة، فلعلّ الأعضاء والجلود تبرز مثلاً ضمن شهادتها الآثار التكوينية الّتي خلّفت الأعمال فيها، فيتجلّى الأمر بشكل يصبح أبعد عن الإنكار.

وورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «... وليست تشهد الجوارح علىٰ مؤمن، إنّما تشهد علىٰ من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطىٰ كتابه بيمينه...»[(٢)].

٥ ـ الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[(٣)].

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام سأله أبو كهمس: «يصلّي الرجل نوافله في موضع أو يفرّقها؟ قال: لا بل هاهنا و هاهنا، فإنّها تشهد له يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) البحار ٧: ٣١٢، الباب ١٦ من أبواب المعاد، الحديث ٣.

(٢) البحار ٧: ٣١٨، الباب ١٦ من أبواب المعاد، الحديث ١٤، والكافي ٢ : ٣٢.

(٣) س ٩٩ الزلزال، الآية: ٤ ـ ٥.

(٤) البحار ٧: ٣١٨، الباب ١٦ من أبواب المعاد، الحديث ١٥.

وفي صحيحة معاوية بن وهب قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة. فقلت: كيف يستر عليه؟ قال: يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه. ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب. فيلقى الله حين يلقاه، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[١].

وقد اُلحق في الروايات بهؤلاء الشهود الخمسة شاهدان آخران:

أحدهما: الأئمّة المعصومون عليهم السلام، ففي الحديث عن سماعة قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً**﴾[٢] قال: نزلت في اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله خاصّة، في كلّ قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد صلى الله عليه وآله شاهد علينا»[٣].

وعن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالىٰ طهّرنا وعصمنا وجعلنا شهداء علىٰ خلقه وحجّته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا لا نفارقه ولا يفارقنا»[٤].

ثانيهما: الزمان. ففي الحديث عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ النهار إذا جاء قال: يابن آدم، اعمل في يومك هذا خيراً أشهد لك به عند ربّك يوم القيامة، فإنّي لم آتك في ما مضى ولا آتيك في ما بقي. وإذا جاء الليل قال مثل ذلك»[٥].

---

(١) البحار ٧: ٣١٧ ـ ٣١٨، الباب ١٦ من أبواب المعاد، الحديث ١٢، وانظر الكافي ٢: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٢) س ٤ النساء، الآية: ٤١.

(٣) الكافي ١: ١٩٠، الباب ٩ من كتاب الحجّة، الحديث ١.

(٤) المصدر السابق: ١٩١، الحديث ٥.

(٥) البحار ٧: ٣٢٥، الباب ١٦ من أبواب المعاد، الحديث ٢٢.

# الميزان

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يِظْلِمُون﴾[٢].

وورد في الحديث: «بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم واضع رأسه في حجر عائشة قد أغفىٰ إذ سالت الدموع من عينها، فقال: ما أصابك؟ ما أبكاك؟ قالت: ذكرت حشر الناس، وهل يذكر أحد أحداً؟ فقال لها: يحشرون حفاة عراة. وقرأ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾[٣] لا يذكر فيها أحداً عند الصحف، وعند وزن الحسنات والسيّئات»[٤].

وروي «أنّ داود عليه السلام سأل ربّه أن يُريه الميزان، فأراه كلّ كفّة كما بين المشرق والمغرب، فغشي عليه ثُمّ أفاق فقال عليه السلام: الهي، من الذي يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود، إنّي إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة»[٥].

إنّ أصل وجود الميزان في محكمة عدل الله في يوم القيامة ممّا لا شكّ فيه؛ لأنّه صرّح به القرآن، ولكن كيفيّة الميزان ليست واضحة تمام الوضوح، فقد

---

(١) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) س ٧ الأعراف، الآية: ٨ ـ ٩.

(٣) س ٨٠ عبس، الآية: ٣٧.

(٤) البحار ٧: ٢٤٥، الباب ١٠ من أبواب المعاد.

(٥) پيام قرآن ٦ : ١٧٢.

يتبادر إلى أذهاننا ـ نتيجة أُنس الذهن بالموازين المادّيّة في دار الدنيا ـ ميزان كموازيننا، وقد تناسب ذلك فكرة تجسّم الأعمال، وعليه أيضاً بعض الروايات، إلّا أنّ المعنى الأصلي للميزان أعمّ وأوسع من ذلك؛ لأنّه المقياس الذي يؤخذ به قياس الأشياء، فميزان الحرارة مثلاً في هذه الدنيا يختلف حاله عن ميزان الأمتعة، وميزان مستوى الفهم والعقل أو قوّة الذاكرة أو غير ذلك يختلف بعضها عن البعض الآخر.

وقد ورد في الأخبار لتشخيص ميزان يوم القيامة ميزانان معنويّان وكلّ واحد منهما قابل للتطابق مع الآخر:

أحدهما: أشخاص معيّنون يعتبرون مقاييس أو تعتبر أعمالهم مقاييس، فيوزن العاملون أو الأعمال بهم أو بأعمالهم.

ففي الحديث: «سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ قال: الموازين الأنبياء والأوصياء عليهم السلام»[1]، وفي حديث آخر قال عليه السلام: «الرسل والأئمّة من آل بيت محمّد عليهم السلام»[2]، وعن ابن عباس: «الموازين الأنبياء والأولياء»[3]، وفي رواية أُخرىٰ: «نحن الموازين القسط»[4]، وقد ورد في زيارة إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «اَلسَّلامُ عَلىٰ ميزانِ الأَعْمالِ، وَمُقَلِّبِ الأَحْوالِ، وَسَيْفِ ذِي الْجَلالِ، وَساقِي السَّلْسَبيلِ الزُّلالِ»[5].

ثانيهما: العدل، فقد روي عن هشام بن الحكم: أنّ من أسئلة الزنديق من

---

(١) البحار ٧: ٢٥١، وانظر الكافي ١: ٤١٩، وتفسير البرهان ٣: ٦١.

(٢) تفسير البرهان ٣: ٦١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كنز الدقائق ٥: ٤١ نقلاً عن تفسير الصافي.

(٥) راجع مفاتيح الجنان، الزيارة الأُولى من الزيارة المطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام.

الصادق عليه السلام قوله: فما معنى الميزان؟ قال عليه السلام: «العدل». قال: فما معناه في كتابه: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُه﴾؟ قال: «فمن رجح عمله»[١].

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وأمّا قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ فهو ميزان العدل، يؤخذ به الخلائق يوم القيامة، يدين الله تبارك وتعالىٰ الخلق بعضهم من بعض بالموازين»[٢].

ولا تنافي بين الطائفتين؛ فإنّ المعصومين عليهم السلام هم مظهر العدل الحقيقي الكامل، فكونهم ميزاناً للأعمال يساوق كون العدل ميزاناً للأعمال وبالعكس.

هذا وقد ورد في بعض الأخبار اختصاص الميزان بأهل الإسلام، فقد ورد في الحديث عن إمامنا زين العابدين عليه السلام: «اعلموا عباد الله، أنّ أهل الشرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدواوين، وإنّما يحشرون إلى جهنّم زمراً، وإنّما نصب الموازين ونشر الدواوين لأهل الإسلام»[٣].

## الأُمور التي تثقّل الميزان:

نختم حديثنا عن الميزان بالإشارة إلى أُمور ورد في الأحاديث أنّها تثقّل الميزان:

١ ـ حسن الخلق بمعنى حسن المداراة مع الناس.

فقد ورد عن إمامنا زين العابدين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما يوضع في

---

(١) البحار ٧: ٢٤٩ نقلاً عن الاحتجاج. (٢) البحار ٧: ٢٥٠.

(٣) الكافي ٨: ٧٥، كتاب الروضة، موعظة لعليّ بن الحسين عليه السلام.

ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[١].

٢ ـ الصلاة علىٰ محمّد ﷺ وآله.

ففي صحيح محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة علىٰ محمّد وآل محمّد، وإنّ الرجل لتوضع أعماله في الميزان فتميل به، فيخرج ﷺ الصلاة عليه، فيضعها في ميزانه، فيرجح به»[٢].

٣ ـ حبّ أهل البيت عليهم السلام.

فقد ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: حبّي وحبّ أهل بيتي نافع في سبعة مواضع أهوالهنّ عظيمة: عند الوفاة، وفي القبر، وعند النشور، وعند الكتاب، وعند الحساب، وعند الميزان، وعند الصراط»[٣].

* * *

(١) البحار ٧: ٢٤٩. (٢) الكافي ٢: ٤٩٤.

(٣) البحار ٧: ٢٤٨، الباب ١٠ من أبواب المعاد.

# ٤ ـ سوق الكفّار والمؤمنين إلى مثواهم الأخير

المرحلة الرابعة لمراحل عالم الآخرة أو يوم القيامة هي مرحلة سوق الكفّار والمؤمنين إلى مثواهم الأخير: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً...﴾[1]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً...﴾[2].

وعمدة البحث في هذه المرحلة الخلود، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذ﴾[3].

ونحن إنّما بدأنا حديثنا في الخلود بهذه الآية المباركة دون باقي آيات الخلود؛ لأنّها الآية التي قد يتوهّم أنّها ضدّ الخلود، فلابدّ من بحث فيها يرفع هذا التوهّم.

وسبب التوهّم واضح، وهو الاستثناء الموجود من الخلود بلحاظ أهل النار وبلحاظ أهل الجنّة، وهو استثناء مشيئة الربّ تعالىٰ، فقد يخطر بالبال أنّ هذا الاستثناء يعني اقتطاعاً زمنيّاً في آخر الأمر، وهذا يعني عدم الخلود.

ومن هنا قد يفترض أنّ هذه الآية لا علاقة لها بيوم القيامة؛ كي لا تنافي

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٧١.
(٢) س ٣٩ الزمر، الآية: ٧٣.
(٣) س ١١ هود، الآية: ١٠٣ ـ ١٠٨.

الخلود في الجنّة والنار الأُخرويتين، فهي راجعة إلى عالم البرزخ.

إلّا أنّ هذا بعيد غاية البعد؛ لأنّ الصفات التي ذكرت في صدر الآية كلّها صفات يوم القيامة، وهي أنّه يوم مجموع له الناس، وأنّه يوم مشهود، وأنّ الله تعالىٰ يؤخّره لأجل معدود، وأنّه يأتي في المستقبل فلا تكلّم نفس إلّا بإذنه، ومن الواضح أنّ هذه الصفات لا علاقة لها بعالم البرزخ.

أمّا قوله تعالىٰ: **﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾** فلا يشهد لرجوع الأمر إلى عالم البرزخ؛ لأنّ السماوات والأرض موجودتان في يوم القيامة أيضا ولو بعد التبديل كما قال الله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾**(١).

وأمّا الجواب الحقيقي عن أصل الإشكال فهو: أنّ الاستثناء هنا لم يكن بمعنى الاقتطاع الزمنيّ، وإنّما هو مجرّد تعليق علىٰ مشيئة الله تعالىٰ والذي هو ثابت في كلّ شيء، والشاهد علىٰ ذلك قوله عزّوجلّ بالنسبة لأهل الجنّة بعد الاستثناء المذكور: **﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾**، فلو كان هناك فناء لأهل الجنة أو للجنّة لم يكن العطاء غير مجذوذ.

وهذه القرينة وإن جاءت بعد الاستثناء بلحاظ أهل الجنّة، ولم ترد في الآية المباركة بلحاظ أهل النار قرينة مماثلة ولكن وحدة السياق أبطلت الدلالة علىٰ عدم الخلود في الآيتين.

ثُمّ إنّ استثناء المشيئة قد ورد أيضاً في القرآن في مورد آخر بشأن أهل النار، وذلك في سورة الأنعام، قال الله تعالىٰ: **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ**

---

(١) س ١٤ إبراهيم، الآية: ٤٨.

حَكِيمٌ عَليم﴾[1].

والجواب هنا أيضاً نفس الجواب، فإنّ الظاهر أنّ المقصود هو استثناء المشيئة فحسب والذي هو ثابت في كلّ شيء، وليس الاستثناء الزمني.

كما يحتمل هنا أيضاً ـ ولو ضعيفاً ـ إشارة الكلام إلى المؤمنين الفسقة الذين سينجون من النار بالشفاعة.

وقد يشكّك في أصل معنى الخلود فيقال: إنّ الخلود لا يعني الدوام الأبدي؛ لأنّه قد يستعمل بمعنى المكث الطويل.

إلّا أنّني لا أظن أنّ صراحة الخلود في معنى الدوام التامّ أقلّ من صراحة مثل كلمة الأبد، أمّا استعماله في المكث الطويل فليس إلّا بقرينة، كما هو الحال في كلّ مجاز، وكما هو الحال في كلمة الأبد أيضاً فيقال مثلاً: إنّ فلاناً سجن من قبل الحكومة سجناً مؤبّداً، والمقصود بذلك ليس إلّا السجن الطويل المدّة، كما هو مصطلح اليوم، أو مدى العمر بقرينة أنّه ليس في الدنيا شيء مؤبّد؛ لأنّ أصل الدنيا غير مؤبّدة، ولأنّ عمر الإنسان غير مؤبّد فسينتهي السجن لا محالة.

ولو وقع الإصرار علىٰ عدم ظهور كلمة الخلود في الدوام الكامل بدعوى أنّه يستعمل في كلا المعنيين: الخلود والمكث الطويل، فالتصريح بالأبد أو الدوام أو نحو ذلك وارد في القرآن بشأن أهل الجنّة وبشأن أهل النار في موارد عديدة:

أمّا بشأن أهل الجنة فمن قبيل:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَة﴾[2].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلا﴾[3].

---

(١) س ٦ الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٢) س ٤ النساء، الآية: ٥٧.

(٣) س ٤ النساء، الآية: ١٢٢.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْـفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾(١).

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيم﴾(٢).

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾(٣).

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾(٤).

٧ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾(٥).

٨ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾(٦).

٩ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه﴾(٧).

١٠ ـ قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا ...﴾(٨).

وأما بشأن أهل النار فمن قبيل:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَـداً وَكَـانَ ذَلِكَ عَـلَى اللّـهِ يَسِيراً﴾(٩).

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾(١٠).

---

(١) س ٥ المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) س ٩ التوبة، الآية: ٢٢.

(٣) س ٩ التوبة، الآية: ١٠٠.

(٤) س ١٨ الكهف، الآية: ٢ ـ ٣.

(٥) س ٦٤ التغابن، الآية: ٩.

(٦) س ٦٥ الطلاق، الآية: ١١.

(٧) س ٩٨ البينة، الآية: ٨.

(٨) س ١٣ الرعد، الآية: ٣٥.

(٩) س ٤ النساء، الآية: ١٦٩.

(١٠) س ٣٣ الأحزاب، الآية: ٦٥.

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ لَهُ نار جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيْها أَبَدَاً﴾[١].

٤ ـ قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيم﴾[٢].

٥ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُون﴾[٣].

٦ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار﴾[٤].

هذا ولولا الخلود في الجنّة لكان عيشهم منغّصاً بهادم اللذّات وهو الموت.

وقد سبق منّا بيان: أنّ أقوى نزعة فطرية في الإنسان وأقوى شهوة لهي شهوة الخلود، فهي ألحّ علىٰ الإنسان من شهوة الجنس، والتفسير المعقول لذلك هو أنّا خلقنا للبقاء لا للفناء.

وأمّا أنّ الخلود لأهل النار ليس من صالحهم فهذا بسوء فعالهم وليس بتقصير أو ظلم من الله سبحانه وتعالىٰ.

وأمّا ما ورد في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية التي فيها استثناء مشيئة الله تعالىٰ فهو التفصيل بين الاستثناء بلحاظ الجنّة والاستثناء بلحاظ النار، بحمل الأوّل علىٰ مجرّد التعليق علىٰ مشيئة الله والذي هو ثابت في كلّ شيء، وحمل الثاني علىٰ الفسقة الذين ليسوا خالدين في النار فهم يعذّبون في النار مدّة من الزمن ثُمّ يخرجون منها[٥].

ولعلّ المقصود ليس هو التفصيل في مفهوم الاستثناء بين الموردين،

---

(١) س ٧٢ الجنّ، الآية: ٢٣.
(٢) س ٥ المائدة، الآية: ٣٧.
(٣) س ٤٣ زخرف، الآية: ٧٧.
(٤) س ٢ البقرة، الآية: ١٦٧.
(٥) راجع كنز الدقائق ٦ : ٢٤٧، حديث حمران، وحديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام نقلاً عن تفسير العيّاشي.

فكلاهما بمعنى التعليق علىٰ مشيئة الربّ الثابتة في كلّ شيء، وإنّما المقصود التفصيل بين المشيئتين: بأنّ الأُولى لن تتحقّق، والثانية سوف تتحقّق بشأن المؤمنين الفسقة دون الكفّار ومن يُلحق بهم.

وورد في حديث آخر أيضاً ـ لا بعنوان تفسير الآية ـ عن الحسن بن علي الناصر[ي] عن أبيه، عن محمّد بن علي عن أبيه الرضا، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمّد، عن أبيه محمّد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن أبيه الحسين عليهما السلام قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال: علىٰ الخبير سقطتم، هو أحد أُمور ثلاثة يرد عليه: إمّا بشارة بنعيم الأبد، وإمّا بشارة بعذاب الأبد، وإمّا تخويف وتهويل وأمر مبهم لا يدرى من أيّ الفريقين هو:

فأمّا وليّنا المطيع لأمرنا فهو المبشَّر بنعيم الأبد، وأمّا عدوّنا المخالف علينا فهو المبشَّر بعذاب الأبد، وأمّا المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف علىٰ نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله يأتيه الخبر مبهماً محزناً، ثُمّ لن يسوّيه الله عزّ وجلّ بأعدائنا، لكن يخرجه من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تنكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله عزّ وجلّ، فإنّ من المسرفين من لا تلحقه شفاعتنا إلّا بعد ثلاث مئة ألف سنة»[1].

أيّها القارئ الكريم، حينما نجد أنفسنا في فراش الموت وقبل أن نتعرّض لحالة النزع، أيّ هول سنشعر به؛ لتركنا جميع ما نملك عدا أعمالنا؛ ولإقبالنا علىٰ عالم جديد مجهول لدينا؟ فكيف بنا لو نزلت سكرات الموت فأُرينا التخويف والتهويل والأمر المبهم حسب تعبير هذه الرواية؟

والجهل بالعاقبة قد فطّر قلوب جميع العارفين بالله، فماذا ينبغي أن يصنع بنا

---

(١) راجع كنز الدقائق ٦ : ٢٤٥ حديث حمران، وحديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام نقلاً عن معاني الأخبار.

نحن الجهلة الغافلين؟ أسال الله تعالىٰ أن يختم لنا بالسعادة، «اللهم اختم لنا بخير حتّى لاتضرّنا الذنوب»، وفي الحديث عن الصادقعليه السلام عن أبيه عن آبـائهعليهم السلام عن عليّعليه السلام أنّه قال: «حقيقة السعادة أن يختم الرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاوة»[١].

وعلىٰ أيّة حال فقد اتّضح بهذا العرض أنّ فكرة الخلود في الجنّة لا غموض فيها ولا شبهة.

**شبهتان حول الخلود في النار وردّهما:**

نذكر في نهاية الكلام في هذه المرحلة من مراحل المعاد شبهتين حول مسألة الخلود في النار:

**الشبهة الأُولى :** التمسّك بالآية الشريفة في سورة النبأ: **﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلْطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾**[٢]، فقد يتصوّر أنّ الآية تدلّ علىٰ انتهاء العذاب واللبث فيه بعد مضيّ أحقاب.

إلّا أنّ الواقع أنّ الأحقاب بمعنى المُدد الطويلة ـ غير معلومة الأمد أو معلومة الأمد علىٰ رأي من فسّر الحُقب بثمانين أو سبعين أو أربعين سنة ـ لا تدلّ علىٰ نفي الخلود؛ إذ لم يُذكر عدد للأحقاب تنتهي بانتهائه، بل قد تكون أحقاباً غير متناهية، وبكلمة أُخرىٰ: أنّ الأحقاب بنفسها يمكن أن تكون أحقاباً متناهية، ويمكن أن تكون أحقاباً غير متناهية، فذكر هذه الكلمة لا يكون دليلاً علىٰ التناهي.

---

(١) راجع كنز الدقائق ٦ : ٢٤٦ حديث حمران، وحديث أبي بصير عن أبي جعفرعليه السلام نقلاً عن الخصال.

(٢) س ٧٨ النبأ، الآية: ٢١ ـ ٢٣.

ولو فرض إيحاء للعبارة بعدم الدوام فليس هذا الإيحاء قابلاً للمقاومة في مقابل التصريحات الماضية.

الشبهة الثانية : أنّ دوام العقاب مخالف لعدل الله سبحانه وتعالىٰ؛ لأنّه لم تصدر منهم إلّا المعصية المنتهية بالموت، فكيف يقابَلون بعذاب غير متناه؟

والواقع أنّ هذا الإشكال ينشأ من تخيّل أنّ العذاب في القيامة يكون شيئاً من قبيل التقاصّ لسحق العاصي حقّ المولى تعالىٰ، فكأنّ المولى عزّوجلّ يريد أن يأخذ حقّه منه بالعذاب فيقال: إنّ حقّ العذاب من قبل المولى لن يكون بأزيد من عصيان العبد إيّاه، وقد كان العصيان مؤقّتاً محدوداً، فكيف يستعقب عذاباً أبدياً؟

إلّا أنّه لو كان الأمر كذلك لورد إشكال أعظم من ذلك علىٰ العقاب، وهو: أنّ الله تعالىٰ غنّي عن أخذ حقّه، فلماذا يأخذ حقّه بالعذاب؟ فتفسير العذاب بذلك من أساسه باطل.

والأمر المعقول في تفسير عذاب الآخرة ليس إلّا أحد اتّجاهين:

الأوّل : أن يكون العذاب أثراً تكوينياً للعمل، فكما لا يمكن أن يعترض علىٰ ترتب مرضٍ مستمرٍّ علىٰ أكلة خاطئة أو شرب شربة مخالف لإرشاد الطبيب بأنّ الخطأ الذي صدر من الفاعل لم يكن إلّا أكلة قليلة أو شربة واحدة، فلماذا يعذّب طول عمره بذاك المرض؟ ولا يصح أن يقال: إنّ من أخطأ بشرب السمّ لم يكن المفروض أن يجازى بأشدّ الأُمور وهو الموت والحرمان الدائم من حياته، كذلك لا يرد إشكال من هذا القبيل علىٰ عذاب الآخرة؛ فإنّ عمل الإنسان لا ينفكّ من الإنسان ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾[1]، وربما يكون أثر عمله

---

(١) س ١٧ الإسراء، الآية: ١٣.

العذاب الدائم من دون فرق في ذلك بين القول بتجسّم الأعمال ـ كما قد يستفاد ذلك من مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[١] وغير ذلك من الآيات ـ والقول بأنّ نسبة العقاب إلى العمل نسبة المعلول إلى العلّة.

الثاني: أن يكون العذاب أمراً استحقاقياً لظلمة النفس ورَينها الناتجين من المعاصي، وكان بالإمكان علاج ذلك في الدنيا بماء التوبة وبالخضوع للغيب، فإنّ الندم عن غيب يغسل النكتة السوداء التي ظهرت في القلب، وأمّا الندم الناتج من تحوّل الغيب إلى الشهود فلا يخلق تحوّلاً في النفس: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون﴾[٢].

ولعلّه يشير إلى هذا المعنى الحديث الذي ورد عن الصادق عليه السلام معلّلاً الخلود بقوله عليه السلام: «إنّما خلّد أهل النار في النار؛ لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنّما خلّد أهل الجنّة في الجنّة؛ لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا لو بقوا أن يُطيعوا الله أبداً ما بقوا، فالنيّات تخلّد هؤلاء وهؤلاء». ثُمّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه﴾[٣]. قال: «علىٰ نيّته»[٤].

نعم الذين بقي في قلوبهم بصيص من النور: فإمّا أنّ نفس احتراقهم بالنار يصقل أنفسهم ويطهّرها، أو أنّه تدركهم الشفاعة آخر الأمر فيتحوّلون إلى الجنّة، أمّا لو لم يبق بصيص من النور في القلب فالظلمة والرَين لا ينفصلان عن الشخص، وماداما موجودين في القلب يستحق صاحبه العذاب، ولا يمكن

---

(١) س ٩٩ الزلزلة، الآية: ٧ ـ ٨. (٢) س ٦ الأنعام، الآية: ٢٨.

(٣) س ١٧ الإسراء، الآية: ٨٤.

(٤) البحار ٨: ٣٤٧، الباب ٢٦ من أبواب المعاد، الحديث ٥.

تحصيل بصيص النور في ذاك العالم، وإنّما هو نور ينقله الإنسان معه إلى الآخرة من هذه الدنيا: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾[١]، أي إنّ النور يجب أن يلتمس ممّا قبل عالم الآخرة وهو عالم الدنيا.

والخلاصة بناءً علىٰ هذا الاتجاه: أنّ استحقاق العذاب يكون لأجل الظلمة والرَين الثابتين علىٰ القلب وفقدان النور، وما داما دائمين فالعذاب دائم، وتحصيل النور لا يمكن إلّا بالرجوع إلى الوراء أي الدنيا، والرجوع إلى الدنيا لا ينفعهم لتحصيل النور؛ لأنّهم لو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه، فهذا هو سرّ الخلود في النار.

وما ألطف تعبير القرآن عن هذه الحالة بخسران النفس، فقد قال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُون﴾[٢]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يِظْلِمُون﴾[٣]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُون﴾[٤]، ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُون﴾[٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيم﴾[٦]، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُون﴾[٧].

---

(١) س ٥٧ الحديد، الآية: ١٣.
(٢) س ٢٣ المؤمنون، الآية: ١٠٣.
(٣) س ٧ الأعراف، الآية: ٩.
(٤) س ٧ الأعراف، الآية: ٥٣.
(٥) س ١١ هود، الآية: ٢١ ـ ٢٢.
(٦) س ٤٢ الشورى، الآية: ٤٥.
(٧) س ٦ الأنعام، الآية: ١٢.

# خاتمة في الشفاعة

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[١]، وممّا يوجد بصريح القرآن في محكمة عدل الله في يوم القيامة هي الشفاعة، وأقصد بها في هذا البحث ما يسمّى بشفاعة المغفرة، أي إنّ هناك من ينجو من عذاب الله بسبب شفاعة الشافعين.

وبما أنّنا عرضنا هذا البحث بشيء من التفصيل في كتابنا «تزكية النفس» لا نرىٰ مزيد حاجة هنا لشرحه، ولكننا نشير إلى ذلك باختصار؛ لأنّ الشفاعة مفردة من مفردات تلك المحكمة، وقد صرّح بها في آيات قرآنيّة كثيرة كالتي بدأنا الحديث بها.

إلّا أنّ شرذمة ممّن سمّوا أنفسهم باسم الإسلام وهم بعيدون عن الإسلام كلّ البعد قد أنكروا الشفاعة.

وقد روى السيّد الطباطبائيّ في تفسيره[٢] عن أمالي الصدوق، عن الحسين بن خالد، عن الرضاﷺ عن آبائهﷺ عن أمير المؤمنينﷺ قال: «قال رسول اللهﷺ: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. ثُمّ قالﷺ: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي، فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل...».

قال السيّد الطباطبائيّ في ذيل نقله لهذا الحديث: قولهﷺ: «...إنّما شفاعتي...» هذا المعنى رواه الفريقان بطرق متعددة عنهﷺ.

---

(١) س ٢٠ طه، الآية: ١٠٩.

(٢) الميزان ١ : ١٧٤ ـ ١٧٥.

وقال أيضا السيّد الطباطبائي﴿ره﴾ لدى نقل حديث تفسير المقام المحمود بالشفاعة: وهذا المعنى مستفيض مرويّ بالاختصار والتفصيل بطرق متعدّدة من العامّة والخاصّة.... .

والأصل في إنكار الشفاعة ما هو المألوف غالبا في المحاكم الدنيوية من أنّ الشفيع قنطرة لإبطال الحقّ وإحقاق الباطل، فلئن كان المفروض أنّ القاضي يحكم بالعدل، وأنّ الشفيع جاء كي يؤثّر علىٰ حكم القاضي ويغيّره، فهذا يعني أنّ الشفيع جاء لكي يبطل حقّاً أو يحقّ باطلاً، وبما أنّ المفروض أنّ فضاء يوم القيامة منزّه عن أيّ لون من ألوان الباطل أو الظلم، فتدخّل الشفاعة فيه أمر غير معقول.

بل ربما أسرف بعض مخالفي الشفاعة إلى حدّ القول بأنّ الإيمان بالشفاعة مساوق للشرك.

وإنّما أسمينا ذلك بالإسراف لأنّ من الواضح أنّ الشفاعة إنّما تؤدّي إلى الشرك لو فرضت تدخّلاً في الأمر رغم إرادة الله تعالىٰ وعلىٰ خلاف ما يُرضي الله عزّ وجلّ، أمّا إذا قُرّر أنّه ﴿لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[1]، وأن ليس حالها إلّا حال الدعاء الذي إن أراد الله استجابه وإن لم يرد رفضه، فلا معنى لافتراض الإيمان بها شركاً بالله إلّا إذا افترض أنّ الإيمان بالدعاء أيضاً شرك بالله.

وعلىٰ أيّ حال فليس غريباً من مخالفي نهج القرآن الواضح إنكار الشفاعة، إنّما الغريب أن يقول من يعتبر في صفوف المؤمنين بالشفاعة: إنّ الشفاعة أمر صوريّ، وإنّ الله تعالىٰ حينما يريد أن يغفر لأحد يفترض ظاهراً أنّ مغفرته إياه كان لأجل فلان الشفيع، وذلك إبرازاً لعظمة ذاك الشفيع واحترامه.

---

(١) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٢٨.

وإليك نصّ كلام هذا الباحث: «أمّا الشفاعة التي جاء الحديث عنها في الروايات المتعدّدة عن السنّة والشيعة فإنّها ليست حالة وساطة بالمعنى الذي يفهمه الناس في علاقاتهم بالعظماء لديهم الذين قد لا يستطيع الناس مخاطبتهم بشكل مباشر للحواجز المادّية الفاصلة بينهم وبين الناس؛ ولذلك يلجأ الناس إلى الأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة مودّة أو مصلحة أو موقع معيّن ليكونوا الواسطة في إيصال مطالبهم إليهم وقضاء حوائجهم عنده.

إنّ الشفاعة هي كرامة من الله لبعض عباده في ما يريد أن يظهره من فضلهم في الآخرة، فيشفّعهم في من يريد المغفرة له ورفع درجته عنده؛ لتكون المسألة ـ في الشكل ـ واسطة في النتائج التي يتمثّل فيها العفو الإلهي والنعيم الرباني، تماماً كما لو كان النبيّ هو السبب أو كان الوليّ هو الواسطة، ولكنها ـ في العمق ـ إرادة الله لذلك ممّا لا يمكن لنبيّ مرسل أو ملك مقرّب أو وليّ امتحن الله قلبه للإيمان أمر تغييرها في الاتجاه الذي تتحرّك فيه، وبذلك فهم يدرسون مواقع رضا الله في عباده ليقوموا بالشفاعة، أو ليأذن الله لهم بالشفاعة، وفي ضوء ذلك لا معنى للتقرّب للأنبياء والأولياء ليحصل الناس علىٰ شفاعتهم؛ لأنّهم لا يملكون من أمرها شيئاً بالمعنى الذاتي المستقل، بل الله هو المالك لذلك كلّه علىٰ جميع المستويات، فهو الذي يأذن لهم بذلك في مواقع محدّدة ليس لهم أن يتجاوزوها، الأمر الذي يفرض التقرب إلى الله في أن يجعلنا ممن يأذن لهم بالشفاعة له، وهذا هو الذي نفهمه من آيات الشفاعة في القرآن التي تؤكّد علىٰ أنّها قضية تتّصل بالله، فليس لأحد أن يمارسها إلّا بإذنه في من ارتضاهم الله لينالوا عفوه قال الله تعالىٰ: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً** «١٩/٨٧» ﴾، ﴿**يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ** «٢٠/١٠٩» ﴾، ﴿**وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** «٣٤/٢٣» ﴾،

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[(١)].

وليس معنى إذن الله للشفعاء أنّه أعطاهم الحرّيّة في ذلك، أو أنّه يتقبّل منهم ذلك علىٰ أساس خصوصيات علاقاتهم ليتقرّب الناس منهم بالوسائل الخاصّة التي تثير مشاعرهم وتؤكّد علاقاتهم بهم بشكل شخصي كما هي الأشياء الشخصية، بل إنّ معنى ذلك أنّ الله جعل لهم هذه الكرامة ليستعملوها في ما يوافق رضاه؛ لأنّ المفروض أنّ رضاهم لا ينفصل عن خط رضاه، كما أنّ رضاه يتحرّك في آفاق حكمته لا في آفاق رغبات القريبين إليه بالمعنى الذاتي للمسألة.

وفي ضوء ذلك فإنّ الاستشفاع بالأنبياء والأولياء لا يمثّل خروجاً عن توحيد الاستعانة بالله؛ لأنّه يرجع في الحقيقة إلى طلب المغفرة من الله، والنجاة من النار من خلال ما اقتضته إرادة الله وحكمته في ارتباط عفوه بشفاعة هذا النبيّ أو الوليّ علىٰ أساس ما أراده الله من حكمته في ذلك»[(٢)].

وحاصل هذا الكلام : أنّ الشفاعة لا تعني استجابة الله تعالىٰ لرغبة الشفيع في المغفرة رغم عدم المغفرة لولا الشفاعة، وإنّما تعني أنّ الله تعالىٰ حينما قرّر المغفرة لفلان أراد من الشفيع أن يشفع له حتّىٰ تتم مغفرته إيّاه باسم طلب هذا الشفيع، وذلك نوع تكريم وتعظيم للشفيع.

أقول: إنّ الشفاعة الشكلية ـ حسب تعبيره ـ ينبغي أن يطيّب بها خاطر الأطفال ويكرّموا بها، لا خاطر الأنبياء والأوصياء والأولياء، ولا معنى لافتراضها مقاماً محموداً ولا لادّخارها لأهل الكبائر، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل.

---

(١) س ٢١ الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) من وحي القرآن ٢٥ : ٦٦ ـ ٦٩.

ولئن فرض العجز عن حلّ إشكالات الشفاعة بمعناها الحقيقي فليس الطريق المعقول سلوكه هو القول بالشفاعة الشكلية، وإنّما الطريق الذي يكون سلوكه أكثر منطقية عندئذٍ هو إنكار الشفاعة لا سمح الله.

ولحل مشكلة الشفاعة أحد طريقين لا ثالث لهما:

**الأوّل**: ما ذهب إليه المرحوم الشهيد الشيخ المطهّري‌ﷺ من أنّ الشفاعة وإن كانت أمراً حقيقياً وليست أمراً صورياً وشكلياً ولكنّها طريق تكوينيّ لنزول الرحمة والمغفرة والتطهير من قبل الله تعالىٰ إلى العبيد، فهي تبدأ من الله وتنتهي إلى العاصي عن طريق الأنبياء والأوصياء والأولياء والمؤمنين، بخلاف ما هو المتعارف في الدنيا من الشفاعة بين الناس ممّا يبدأ بالعاصي بطلبه من الشفيع، وينتهي بالحاكم أو السلطان ممّن له العقاب، فيعفو عن الذنب ويرفع عنه العقاب.

**الثاني**: ما يعني الالتزام بأنّ الشفاعة حتّىٰ في ما لو بدئ بها عن طريق طلب المذنب وإلحاحه علىٰ الشفيع أو زيارته إياه أو نحو ذلك، لكنها في الحقيقة إثابة للمولى سبحانه علىٰ حسنات الشفيع، فيستجيب لشفاعته شكراً لما له من مقامات عالية إلٓهيّة، وليس ذلك بمعنىٰ أن يتقبّل الله منه شفاعته لسحق حقّ مظلوم كما يتفق في الدنيا، بل إنّ الحق الذي يغفر للمذنب بطلب الشفيع إمّا أن يكون حقّاً إلهياً يتنازل الله تعالىٰ عنه إثابةً للشفيع، أو يكون حقّاً من حقوق الناس يُرضي الله صاحبه بتعويضه إيّاه بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت، فصاحب الحق يتنازل عن حقّه طلباً لذلك التعويض.

وقد ورد في الحديث علىٰ ما رواه السيّد الطباطبائي‌ﷺ في تفسيره عن تفسير الفرات عن بشر بن شريح البصري قال: «قلت لمحمّد بن عليّ‌عليه السلام: أيّة آية في كتاب الله أرجى؟ قال: فما يقول فيها قومك؟ قلت: يقولون: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ

أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[١]. قال: لكنّا أهل البيت لا نقول ذلك، قال: قلت: فأيّ شيء تقولون فيها؟ قال: نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[٢]، الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة»[٣].

وقد اختلفت الروايات في تشخيص أرجى آية في القرآن، فالرواية التي تلوناها آنفاً تشير إلى أنّ أرجى آية هي الآية التي أعطت لرسول الله ﷺ ما يُرضيه، وهو لا يرضى إلّا بأكبر مقدار ممكن من الشفاعة.

وهناك رواية أُخرىٰ رواها صاحب مجمع البيان عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٤]: «ما في القرآن آية أرجى عندي من هذه الآية»[٥].

وهناك رواية ثالثة عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أحدهما عليهما السلام يقول: إنّ عليّاً عليه السلام أقبل علىٰ الناس، فقال: أيّة آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٦]. قال عليه السلام: حسنة وليست إيّاها: وقال بعضهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[٧]. قال عليه السلام: حسنة وليست إيّاها. فقال بعضهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٨]. قال عليه السلام: حسنة وليست إيّاها. وقال بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

---

(١) س ٣٩ الزمر، الآية: ٥٣.
(٢) س ٩٣ الضحى، الآية: ٥.
(٣) تفسير الميزان ١ : ١٧٦.
(٤) س ٤ النساء، الآية: ٤٨.
(٥) مجمع البيان، في ذيل تفسير الآية.
(٦) س ٤ النساء، الآية: ١١٦.
(٧) س ٤ النساء، الآية: ١١٠.
(٨) س ٣٩ الزمر، الآية: ٥٣.

**الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾**(١) قال عليه السلام: حسنة وليست إيّاها. قال: ثمّ أحجم الناس فقال عليه السلام: ما لكم يا معشر المسلمين؟ قالوا: لا والله ما عندنا شيء. قال عليه السلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أرجى آية في كتاب الله: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾**(٢). وقال صلى الله عليه وآله: يا علي، والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً، إنّ أحدكم ليقوم إلى وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أُمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتّىٰ عدّ الصلوات الخمس. ثُمّ قال صلى الله عليه وآله: يا عليّ، إنّما منزلة الصلوات الخمس لأُمّتي كنهرٍ جارٍ على باب أحدكم، فما ظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثُمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات في اليوم، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأُمّتي(٣).

ويمكن الجمع بين هذه الروايات الثلاث بافتراض الفرق بينها في النقاط المنظور إليها، فسعة الرجاء تارة ينظر إليها من زاوية سعة دائرة غسل الدرن الذيٰ التصق بالنفس وإزالة الرين الذي التصق بالقلب نتيجة للذنب، فأوسع شيء بهذا الصدد هو أنّ الحسنات يذهبن السيّئات، فعلى المذنبين الذين يحبّون إصلاح أنفسهم أن يلتزموا بفعل الحسنات بعد السيّئات.

وأُخرىٰ ينظر إليها من زاوية سعة عدد الأفراد الذين يُرجى لهم النجاة من

---

(١) س ٣ آل عمران الآية: ١٣٥ ـ ١٣٦. (٢) س ١١ هود، الآية: ١١٤.

(٣) أُنظر البحار ٨٢: ٢٢٠، الباب ١ من كتاب الصلاة، الحديث ٤١.

الهلاك في يوم القيامة، فأرجى آية هي الآية التي لم تستثن أحداً من المذنبين غير التائبين من أمل المغفرة إلّا المشرك ومن بحكمه، فمن عداهم من العاصين قد فتح الله بشأنه أمل النجاة بإبداء احتمال تعلّق مشيئة الله بالعفو عنه؛ إذ لم يحتّم عدم العفو عن غير التائب إلّا عن المشركين.

وهذه الآية أعني قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاء﴾** تجعل المؤمن بين الخوف والرجاء مهما كثرت ذنوبه وموبقاته مادام هو مؤمناً وليس مشركاً.

وروي في مجمع البيان في ضمن تفسير الآية عن مطرف بن شخير: أنّ عمر ابن الخطّاب قال: «كنّا علىٰ عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل منّا علىٰ كبيرة شهدنا بأنّه من أهل النار، حتّىٰ نزلت الآية فأمسكنا عن الشهادات».

وثالثة ينظر إليها من زاوية النجاة من دون استحقاق، وعندئذٍ فأرجىٰ آية هي آية الشفاعة بلا إشكال، فإنّ النجاة لو كانت باستحقاق نفس العاصي لم يكن في نجاته بحاجة إلى الشفاعة، والوحيد الذي يستفيد العاصي منه باستحقاق غيره هي الشفاعة التي أشرنا إلى أنّ قبولها في الحقيقة مكافأة للشفيع علىٰ حسانته.

هذا وهنا بمناسبة آية **﴿يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاء﴾** أروي هذه الرواية: حينما قدم وحشي قاتل حمزة عمّ الرسول ﷺ إلى مكة أرسل هو وأصحابه كتاباً إلى رسول الله ﷺ: إنّا قد ندمنا علىٰ الذي صنعناه، وليس يمنعنا عن الإسلام إلّا أنّا سمعناك تقول وأنت بمكّة: **﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ**

**﴿الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾**[١]، وقد دعونا مع الله الهاً آخر وقتلنا النفس التي حرّم الله وزنينا فلولا هذه لاتبعناك. فنزلت الآية: **﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾**[٢]، فبعث بهما الرسول ﷺ إلى وحشي وأصحابه فلمّا قرأوهما كتبوا إليه: إنّ هذا شرط شديد نخاف أن لا نفعل عملاً صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾**[٣]، فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته. فنزلت: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾**[٤]، فبعث بها إليهم، فلمّا قرأوها دخل هو وأصحابه في الإسلام[٥].

## الأعراف

قال سبحانه وتعالىٰ: **﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**

---

(١) س ٢٥ الفرقان، الآية: ٦٨ ـ ٦٩.
(٢) س ٢٥ الفرقان، الآية: ٧٠ ـ ٧١.
(٣) س ٤ النساء، الآية: ٤٨.
(٤) س ٣٩ الزمر، الآية: ٥٣.
(٥) مجمع البيان في تفسير الآية (٤٨) من سورة النساء.

**﴿أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾**[١].

يبدو من هذه الآيات المباركة أنّه بعد ما يسكن أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار ويكون بينهما حجاب، يمنع هذا الحجاب عن رؤية أحدهما الآخر، ولكنّه لا يمنع سماع الأصوات، فينادي أهل الجنّة أهل النار: هل وجدتم وعد الربّ بالعذاب حقّاً كما وجدنا وعده بالرحمة حقّاً؟ ويسمعون الجواب من أهل النار بالإيجاب.

وتبقى فئة من الناس خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، فلاهم يعتبرون من أهل النار ولا هم من أهل الجنة، فجُعلوا علىٰ مرتفع من المكان يرون أهل الجنة وأهل النار، فإذا صرفت أبصارهم تجاه أهل الجنة سلّموا علىٰ أهل الجنّة وهم يطمعون الدخول فيها، وإذا صرفت أبصارهم تجاه أهل النار قالوا: **﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**، وهؤلاء المستضعفون لا يُترَكون من قبل أولياء الله الذين هم مشرفون علىٰ الأعراف وسُمّوا برجال الأعراف. وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ هؤلاء هم الأئمّة عليهم السلام، ففي تفسير القمّي عن الصادق عليه السلام: «الأعراف: كثبان بين الجنّة والنار، والرجال: الأئمة صلوات الله عليهم»[٢]، وفي حديث آخر عن هشام عن الباقر عليه السلام «قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾** ما يعني بقوله: **﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ﴾**؟ قال: ألستم تعرفون عليكم عرفاء علىٰ قبائلكم لتعرفون[٣] من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلىٰ. قال: فنحن أُولئك الرجال الذين يعرفون كلّاً بسيماهم»[٤]، وهناك تفاسير أُخرىٰ

---

(١) س ٧ الأعراف، الآية: ٤٤ ـ ٤٩.
(٢) تفسير القمّي ١ : ٢٣١.
(٣) الظاهر أنّ الصحيح: لتعرفوا.
(٤) كنز الدقائق ٥ : ٩٣.

ولا تنافي في ما بينها.

وحاصل ما يستفاد من ظاهر هذه الآيات المباركة ـ والله أعلم بالأُمور ـ أنّ عدداً من أولياء الله يشرفون علىٰ الأعراف ويحاولون نجاة هؤلاء المستضعفين، ويخاطبون أهل النار بأنّكم كنتم تقولون عن هؤلاء: أن **﴿لَا يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾**، ثُمّ يشفعون لهم رغم أنف المستكبرين الذين كانوا ينفون رحمة الربّ عنهم، ويقولون لهم: **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾**.

وفي تفسير آخر روي عن الصادقعليه‌السلام: «الأعراف: كثبان بين الجنّة والنار يوقف عليها كلّ نبيّ وكلّ خليفة نبيّ مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنّة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا إلى الجنّة. فيسلّم عليهم المذنبون وذلك قوله: **﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾** أن يدخلهم الله إيّاها بشفاعة النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله والإمام، وينظر هؤلاء إلى أهل النار فيقولون: **﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**.

وينادي أصحاب الأعراف ـ وهم الأنبياء والخلفاء ـ رجالاً من أهل النار ورؤساء الكفّار يقولون لهم مقرِّعين: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾** واستكباركم **﴿أَهَـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾**؟ إشارة إلى أهل الجنّة الذين كان الرؤساء يستضعفونهم ويحتقرونهم بفقرهم ويستطيلون عليهم بدنياهم ويقسمون أنّ الله لا يدخلهم الجنّة. **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾**. يقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله عزّ وجلّ لهم بذلك: **﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾**، أي لا خائفين ولا محزونين»[1].

---

(١) كنز الدقائق ٥ : ٩٧ ـ ٩٨.

# ختامه مسك

بودّي أن أختم كتابي هـذا بـالبشارة المـرويّة عـن رسـول‌الله صلى الله عليه وآله لشـيعة عليّ عليه السلام: بأنّهم جميعاً في الجنّة، وهذا هو نصّ الرواية الواردة في تفسير الإمام العسكري عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اتّقوا الله معاشر الشيعة، فـإنّ الجـنّة لن تـفوتكم وإن أبطأت بها عنكم قبائح أعمالكم، فتنافسوا في درجاتها. قيل: فهل يدخل جهنّم أحد من محبّيك ومحبّي عليّ عليه السلام؟ قال: من قذّر نفسه بمخالفة مـحمّد وعـليّ، وواقع المحرّمات، وظلم المؤمنين والمؤمنات وخالف ما رسم له من الشريعات جاء يوم القيامة قذراً طفساً، يقول محمّد وعـليّ (صـلّى الله عـليهما وآلهـما): يا فلان، أنت قذر طفس لا تصلح لمرافقة الأخيار، ولا لمعانقة الحور الحسان ولا الملائكة المقرّبين، لا تصل إلى هناك إلّا بأن يطهر عنك ما هاهنا ـ يعني ما عليك من الذنوب ـ، فيدخل إلى الطبق الأعلىٰ من جهنّم، فيعذّب ببعض ذنوبه، ومنهم من يصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه، ثُمّ يلتقطه من هنا من يبعثهم إليه مواليه من خيار شيعتهم كما يلقط الطير الحبّ، ومنهم من يكون ذنوبه أقلّ وأخفّ فيطهر منها بالشدائد والنوائب: من السلاطين وغيرهم، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلىٰ في قبره وهو طاهر، ومنهم من يقرب موته وقد بـقيت عليه سيّئة، فيشتدّ نزعه فيكفّر به عنه، فإن بقي شيء وقويت عليه ويكون عليه بطر أو اضطراب في يوم موته فيقلّ من بحضرته، فيلحقه به الذلّ فيكفّر عنه، فإن

بقي عليه شيء أُتي به ولمّا يلحد فيتفرّقون عنه فتطهر، فإن كانت ذنوبه أعظم وأكثر طهر منها بشدائد عرصات يوم القيامة، فإن كانت أكثر وأعظم طهر منها في الطبق الأعلىٰ من جهنّم، وهؤلاء أشدّ محبّينا عذاباً وأعظمهم ذنوباً، إنّ هؤلاء لا يسمّون بشيعتنا ولكن يسمّون بمحبّينا والموالين لأوليائنا والمعادين لأعدائنا، إنّما شيعتنا من شيّعنا واتّبع آثارنا واقتدىٰ بأعمالنا»[1].

اللهمّ اجعلنا من شيعتهم، وأمتنا علىٰ ولايتهم، ولا تسلبنا محبّتهم،
وارزقنا شفاعتهم، إنّك أنت السميع المجيب.
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

١١ ربيع الأوّل ١٤٢٣ هق

---

(١) البحار ٨: ٣٥٢ ـ ٣٥٣، الباب ٢٧ من أبواب المعاد وما يتبعه ويتعلّق به، الحديث ٢.



# الفهرس

# فهرس مصادر الكتاب

## « أ »

١ ـ الإلهيات علىٰ هدى الكتاب والسنة والعقل: للشيخ جعفر السبحاني بقلم حسن مكّي العاملي، الناشر: المركز العالمي للدراسات الإسلاميّة، الطبعة الثانية تصويراً من طبعة الدار الإسلاميّة في بيروت.

٢ ـ أنوار المواهب (فارسي): للشيخ علي أكبر نهاوندي، الناشر: انتشارات مكتبة محمودي.

## « ب »

٣ ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار: للعلّامة الشيخ محمّدباقر المجلسي‌، الناشر: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة الوفاء، الطبعة الثالثة المصححة التي وقع الفهرس في وسطها (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م)، بيروت ـ لبنان.

٤ ـ البرهان في تفسير القرآن: للعلّامة السيّد هاشم الحسيني البحراني، الناشر: دار الكتب العلميّة قم ـ ايران.

٥ ـ پيام قرآن (فارسي): لسماحة آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي،الناشر: نسل جوان، الطبعة الثالثة، مطبعة مدرسة الإمام علي بن أبيطالب عليه السلام،قم ـ ايران.

« ت »

٦ ـ تفسير القمي: لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، من أعلام قرني (٣ ـ ٤ هـ)، صحّحه وعلّق عليه وقدّم له: السيّد طيّب الموسوي الجزائري، الناشر: مكتبة الهدىٰ، النجف ـ العراق.

٧ ـ التفسير الكبير للفخر الرازي: للإمام الفخر الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، بيروت ـ لبنان.

٨ ـ التوحيد: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي رحمه الله، المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ، صحّحه وعلّق عليه المحقّق السيّد هاشم الحسيني الطهراني، تحقيق ونشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم ـ ايران.

٩ ـ تهذيب الأحكام: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي رحمه الله، المتوفّىٰ سنة ٤٦٠ هـ، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، سنة النشر: ١٣٦٥ هـ ش طهران ـ ايران.

١٠ ـ تفسير نمونة (فارسي): لسماحة آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ ايران.

١١ ـ تاريخ الطبري: لمحمّد بن جرير الطبري، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، الناشر: روائع التراث العربي ـ مصر.

١٢ ـ تاريخ اليعقوبي: لأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، طبعة الأعلمي ـ بيروت.

١٣ ـ التشيّع والإسلام (بحث حول الولاية): لسماحة آية الله العظمىٰ الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر‏ إعداد وتحقيق لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر‏، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصية، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٤٢٣ هـ ق.

١٤ ـ تفسير كنز الدقائق وبحر الغرائب: للعلّامة الشيخ محمّد بن رضا القمي المشهدي، الناشر: مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

١٥ ـ تفسير المنار: لمحمّد رشيد رضا، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

« خ »

١٦ ـ الخصال: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي‏، المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠٣ هـ ق، قم ـ ايران.

« د »

١٧ ـ ديوان پروين اعتصامي (فارسي): للشاعرة الفارسية پروين اعتصامي، الطبعة الثامنة.

١٨ ـ دفاع عن التشيّع: للسيّد نذير الحسني، الناشر: المؤسسة الإسلاميّة العامّة للتبليغ والإرشاد، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٤٢١ هـ قم ـ ايران.

« س »

١٩ ـ سفينة البحار: للمحدّث الشيخ عبّاس القمي، الناشر: دار الأُسوة للطباعة والنشر التابعة لمنظّمة الأوقاف والشؤون الخيرية، المطبعة أُسوة، الطبعة الأُولىٰ، تاريخ النشر: ١٤١٤ هـ ق.

« ش »

٢٠ ـ شرح ابن أبي الحديد: لابن أبي الحديد عبد الحميد بن محمّد المعتزلي، تحقيق محمّد أبوالفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٢١ ـ شبهات وردود: للسيّد سامي البدري، الطبعة الرابعة المزيدة، الناشر: دار الفقه للطباعة والنشر.

« ص »

٢٢ ـ الصحيفة السجاديّة.

« ط »

٢٣ ـ طبقات ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ، محمّد بن سعد الزهيري، الناشر: دار بيروت للطباعة.

« ع »

٢٤ ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام: للشيخ المحدّث أبي جعفر الصدوق محمّد بن علي بن الحسين بن بابوية القمي رحمه الله، المتوفىٰ سنة ٣٨١ هـ، الناشر: دار العالم(جهان).

٢٥ ـ العين: لأبي عبدالرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، الناشر: مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ ق.

« ف »

٢٦ ـ فلسفتنا: لسماحة الإمام الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر رحمه الله، الطبعة الأُولىٰ سنة ١٩٦٢ م، منشورات عويدات، بيروت ـ لبنان.

٢٧ ـ فلاح السائل: للسيّد علي بن طاوس الحلّي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ ايران.

٢٨ ـ الفتاوىٰ الواضحة: لسماحة آية الله العظمىٰ الإمام الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر رحمه الله، وفي هامشه تعليقات سماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسيني الحائري«دام ظلّه»، الناشر: دار البشير، الطبعة الأُولىٰ ١٤٢٣ هـ ق، قم ـ ايران.

« ق »

٢٩ ـ القرآن الكريم.

« ك »

٣٠ ـ الكافي: لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، المتوفّىٰ سنة ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ ايران.

٣١ ـ كمال الدين: للشيخ المحدّث أبي جعفر الصدوق محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، المتوفّىٰ سنة ٣٨١ هـ، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ ق قم ـ ايران.

« م »

٣٢ ـ مباحث الأُصول تقريراً لأبحاث الإمام الشهيد السيّد محمّدباقر الصدر: لسماحة آية الله العظمىٰ السيّد كاظم الحسيني الحائري«دام ظلّه»، الناشر: المؤلّف نفسه، الطبعة الأُولىٰ ١٤٠٧ هـ، مطبعة مركز النشر ـ مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ ايران.

٣٣ ـ الميزان في تفسير القرآن: للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.

٣٤ ـ مرآة العقول في شرح أخبار الرسول: للعلّامة الشيخ محمّدباقر المجلسي، المتوفّىٰ سنة ٩ ـ ٣٢٨ هـ، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ ق، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، طهران ـ ايران.

٣٥ ـ منتهى الآمال (فارسي): للشيخ عبّاس القمّي، الناشر: انتشارات هجرت، المطبعة: صدر، تاريخ النشر: ١٤٠٩ هـ.

٣٦ ـ منشور جاويد (فارسي): لسماحة الشيخ جعفر السبحاني، الناشر: توحيد، قم ـ ايران.

٣٧ ـ معارف قرآن (فارسي): لسماحة الشيخ مصباح اليزدي، الناشر: مؤسسة در راه حقّ، قم ـ ايران.

٣٨ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن: لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري، الناشر: مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان.

٣٩ ـ المعجم الوسيط: لمؤتمر القاهرة.

٤٠ ـ مختصر تاريخ ابن عساكر: لابن منظور الإفريقي، طبعة دار الفكر، دمشق ـ سورية.

٤١ ـ مجمع البحرين: للشيخ فخرالدين الطريحي، المتوفّىٰ سنة ١٠٨٥ هـ، تحقيق: السيّد احمد الحسيني، الناشر: المكتبة المرتضويّة لإحياء الآثار الجعفريّة.

٤٢ ـ مفاتيح الجنان: للمحدّث الشيخ عبّاس القمّي ﴿ره﴾.

٤٣ ـ من وحي القرآن: للسيّد محمّدحسين فضل‌الله، الناشر: دار الزهراء، بيروت ـ لبنان.

« ن »

٤٤ ـ نهج البلاغة.

« و »

٤٥ ـ وسائل الشيعة: للشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي ﷺ، المتوفّىٰ سنة ١١٠٤ هـ ق، الناشر: مؤسسة آل البيت، سنة النشر: ١٤٠٩ هـ ق، قم ـ ايران.

« ي »

٤٦ ـ ينابيع المودّة لذوي القُربىٰ: لسليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ( ١٢٢٠ ـ ١٢٩٤ هـ )، تحقيق سيّد علي جمال أشرف الحسيني، الناشر: دار الأُسوة.

* * *

# فهرس موضوعات الكتاب



## الله جَلَّ جَلَالُهُ

## ( ٩ ـ ١٤٠ )

## إثبات الصانع

## ( ١١ ـ ٧٥ )

# التوحيد

## (٧٧ ـ ١٠٤)

## صفات الله تعالى

## (١٠٥ ـ ١٤٠)

## النبوّة

## ( ١٤١ ـ ٢٣٩ )

## النبوّة العامة

## ( ١٤٣ ـ ١٧٠ )

# النبوّة الخاصّة

## ( ١٧١ ـ ٢٣٩ )

## الإمامة
## ( ٢٤١ ـ ٢٩٤ )

## البرزخ
## ( ٢٩٥ ـ ٣٣٨ )

## المعاد

## ( ٣٣٩ ـ ٣٨٧ )

## الفهرس
## ( ٣٨٩ ـ ٤٠٨ )